د.هوشنك نهاوندي

الخميني في فرنسا

الأكاذيب الكبرى والحقائق الموثّقة
حول قصة حياته وحادثة الثورة



ترجمه من الفرنسية وأصدره
مركز الخليج العربي للدراسات الإيرانية

الخُمَيني في فرنسا

الأكاذيب الكُبْرَى والحقائق الموثَّقة
حول قصة حياته وحادثة الثورة

تأليف

د. هوشنك نهاوندي

ترجمه من الفرنسية وأصدره

مركز الخليج العربي للدراسات الإيرانية

الطبعة الأولى - الرياض - يناير 2017

ISBN: 978-603-90911-0-3

المحتويات

مقدّمة الناشر

تأتي أهميةُ هذا الكتاب، الذي نسعد بتقديمه للقارئ العربي الكريم، من زاويتين، تضافان إلى أهمّية موضوعه في نقد الثورة الخُمَينيَّة في إيران، وما تمثّله من مركزية في التحوُّلات السياسية والاجتماعية والثقافية:

الزاوية الأولى الرؤية التحليلية والمعلومات الحَدَثِيَّة المعزَّزة بالوثائق في مختلف مفاصل الحدث الإيراني، في أسلوب قويّ رَصِين، يستوعب مختلف علاقات الأحداث وسيرورتها، في صياغة تنجح في تقديم الصورة المتكاملة حدثيًّا وتحليليًّا من وجهة نظر الكاتب، مضافًا إلى ذلك كله قدرة المؤلّف، لا على تسليط الضوء على الحدث ومتعلقاته السياسية فحسب، بل وعلى رسم بانوراما كاملة للشخصيات الأساسية ثم الثانوية المؤثّرة بدرجات متفاوتة في صناعة المشهد، مِمَّا يضع القارئ أمام حدث متصل بوقائعه وشخوصه وآثاره.

أما الزاوية الثانية فهي موقع المؤلّف داخل النظام الإيراني في عهد الشاه، إذ كان المؤلف الدكتور هوشنك نهاوندي في عهد الشاه وزيرًا للإسكان، ثم وزيرًا للعلوم، ثم رئيسًا لجامعة طهران، قبل أن يغادر إيران بعد الثورة إلى فرنسا ليعمل أستاذًا في جامعة باريس لمُدّة سبعة عشر عامًا، وهو ما يعطي الكتاب قيمة نوعية مُهِمَّة بوصفه في جزء مهمّ منه شهادةً مباشِرةً ورؤية من داخل الحدث الإيراني في تلك المرحلة التي سبقت الثورة بكل ظروفها وملابساتها الداخلية والخارجية.

وبعدُ، فقد راعينا في ترجمتنا لهذا الكتاب عن الطبعة الفرنسية الثانية الصادرة عام ٢٠١٠، المعدّلة عن الطبعة الأولى الصادرة عام ٢٠٠٩م، الدِّقَّةَ

الكاملة في الترجمة، وكذلك استعنًا بشروحات وتوضيحات يرجع الفضل فيها إلى داد مهر، مترجم الطبعة الفارسية، الصادرة عن دار «شركت كتاب»، ومقرَها في لوس أنجلوس، وهي ضمن التوضيحات الواردة في حواشي الكتاب، وكتبنا بعدها كلمة (المترجم) تمييزًا لها من حواشي المؤلّف، وذلك إدراكًا منّا للفروق الناشئة بين كون الكتاب موجَّهًا إلى قارئ فرنسي، وكونه موجَّهًا إلى القارئ العربي.

الكتاب مزيج عظيم من المتعة والدهشة والعَجَب، والحقائقُ المكشوفة فيه والموثَّقة بعديد من المصادر هي حقائق مذهلة، تجعلنا نقف اليوم ناظرين نحو الماضي القريب متسائلين: كيف تَحوّل ذلك الماضي الذي يقول الكاتب إن شاه إيران سعى خلاله إلى نهضة تقدُّمية تنتقل بالشعب الإيراني إلى الديمقراطية والعدالة ومشاركة المرأة، كيف تَحوَّل إلى هذا الحاضر المعاكس تمامًا لكل ذلك؟!

مركز الخليج العربي للدراسات الإيرانية

ديسمبر ٢٠١٦

"سياستنا الخاطئة هي التي أدّت إلى سقوط نظام الشّاه في إيران، وهي نقطة سوداء في تاريخ الولايات المتّحدة الأمْرِيكِيَّة، ونتيجة لهذه السّياسة استطاع متعصب مجنون أن يمسك بزمام الأمور في إيران، ليرسل آلاف الإيرانيِّين إلى أفواج النيران".

رونالد ريغان[1]

من مناظره تليفزيونية مع وولتر مونديل[2]

نوفمبر 1984

---

(1)Ronald Reagan

(2) Walter Mondale: نائب الرئيس في زمن جيمي كارتر والذي ترشح لانتخابات الرئاسة في عام 1984 بالنيابة عن الحزب الديمقراطي وخسر أمام رونالد ريغان. (المترجم).

"قصة نوفل لوشاتو(1)

ليست صفحة مشرقة في تاريخ فرنسا، ولا يمكن فهم

تصرُّف جيسكار ديستان(2).

ولا ذلك الاهتمام وتلك الإمكانيَّات التي وضعها بين يدَي

نبيٍّ كاذب، صعود الإسلام المتطرّف بدأ من هنا".

موريس دريون(3)

فيغارو، 12 نوفمبر 2004

---

(1)Neauphl-Le-Chateau

(2) Valery Giscard d' Estaing: الرئيس الفرنسي (1974 - 1981) (المترجم)..

(3) Maurice Druon (تـوُفّي 2009): مـن أبـرز الكُتّـاب والمفكّريـن المعاصريـن في فرنسـا وعضـو الأكاديميـة العلميـة فيهـا. كان وزيـرًا للثقافـة لبرهـة مـن الزمـن. وهـو مـن أصدقـاء الجـنرال ديغـول الأوائـل في زمـن المقاومـة الفرنسـية. (المترجـم).

مقدمة المؤلف

في السادس من أكتوبر عام 1978، دخل آية الله رُوح الله الخُمَيني باريس قادمًا من بغداد. كان صيته قد ذاع في إيرانَ منذ أشهر طويلة. لكنه لم يكُن المرجعيَّة الأبرز والأهَمَ في سلسلة مراتب المراجع الشِّيعيَّة المعقَّدة. هذه الأقلِّيَّة في العالَم الإسلاميّ التي اختيرَ مذهبها مذهبًا رَسْمِيًّا لإيران في عام 1501. في ذلك الوقت لم يكُن آية الله الخُمَيني معروفًا للعالَم.

في الأول من فبراير عام 1979، وبعد خمسة عشر عامًا من النفي، عاد إلى إيران ذلك الشخص الذي جعلوه مشهورًا وصاحب مكانة في العالَم ومنحوه لقب "إمام"، أمسك بزمام القدرة وأقام في إيرانَ نظامًا خشنًا مستبدًّا لا يزال قائمًا حتى اليوم. وفي مُدَّة لا تتجاوز أربعة أشهر. بخاصَّة الأيام المئة والاثني عشر التي أسكنوه خلالها في مدينة نوفل لوشاتو الصغيرة، صنعوا له قصة حياة مكذوبة، وأظهروه للعالَم كفيلسوف كبير وفقيه ذي مكانة، في حين أنه لم يكتب في الفقه إلا أباطيل من قبيل: أحكام الدخول بالمرأة - عدد أيام الحيض - الدخول بالحيوانات - البول والغائط - نكاح البقر والغنم والجمال - أحكام بيت الخلاء - كيفيَّة صلاة ساكني الكواكب الأُخرى وتوجُّههم نحو الكعبة...

أطلقوا العنان لأقلامهم في تحليل "أفكاره السِّياسِيَّة"، في حين أنه لم يُرَ حتى ذلك الوقت أيُّ أثر لهذه الأفكار ما عدا بضع محاضرات أو إعلانات لم يقرأها أحد، وكان يهاجم فيها اليَهُود ودولة إسرائيل. لكنَّه وصل إلى مرحلة لقَّبوه فيها بـ"القديس الاشتراكيّ الديمقراطيّ"، وأصبح معبود المفكِّرين اليساريين في الغرب.

ونادرًا ما كان أحد يستطيع أن يُبدِي رأيه في خضمّ تلك الفَوْضَى المصطنَعة. في الواقع ختم أغلب أصحاب الرَّأي أفواههم بختم السكوت خوفًا من هجوم مدّعي التنوير.

سيرة حياته، حواراته الصحفية، رسائله وتطلُّعاته السِّياسِيَّة، كلّها كانت مصطنَعة وكذبًا في كذب.

هذا الكتاب تفسير موثَّق لهذه الأكاذيب والخُدَع الكُبْرَى، التي ستدرَّس يومًا ما في مدارس خاصَّة كأعظم حيلة دعائية في تاريخ العالَم.

***

بالتجاوز عن إصدار أيّ أحكام حول ما مرّ من أحداث، وهي ليست -ولا يمكن أن تكون- موضوع دراستنا، فلا مجال للشك، ولا ينكر أيّ صاحب فكر أنّ بداية صعود الإسلام المتطرِّف هي هذه المدة من الزمن التي قضاها رُوح الله الخُمَيني في نوفل لوشاتو، هذا الرَّأي حتى اللحظة بُنِيَ على أساس مجموعة من تحاليل المؤرّخين والمحلّلين ومقارنة الدراسات المختلفة، لكن اليوم، ونتيجةً لإمكانية الوصول إلى كثير من الوثائق الرَّسْميَّة، كتلك الموجودة في الولايات المتَّحدة، وانتشار الدراسات العلمية والتَّارِيخيَّة الموثَّقة بهذه الوثائق، لا يبقى شكّ أو تردُّد في أنّ التأسيس لفكرة الإسلام الأصولي الخشن أو الإسلام المتشدد[1] كان وليد ونتيجةَ تلك السِّياسة التي أحضرها آية الله الخُمَيني معه إلى نوفل لوشاتو، وأسَّسَت للثَّوْرة الإسلاميَّة في إيران. الإسلام الراديكالي في الحقيقة كالبُلْشُفيَّة مقارنةً بالاشتراكيَّة، أو كالنازية مقابل القوميَّة، فهذه الحركة التي أقلقت العالَم اليوم وأربكت الدُّوَل الإسلاميَّة، هي نتيجة لاتِّفاق ضمنيّ بين الشرق والغرب في سنوات العقد السابع من القرن العشرين، وكان لبعض المفكِّرين الغربيين دور بارز في ظهورها ونموّها. هذا المذهب الخشن يشكِّل اليوم خطرًا على العالَم

---

(1) Islamisme Radical أو Islmisme: يُستخدم هذان المصطلحان في اللغة الفرنسية للتعريف بالإسلام السياسيّ المرافق للخشونة والإرهاب، ويُعدّ النِّظام الإسلامي في إيران، وحركة طالبان في أفغانستان، واتحاد المحاكم الإسلاميّة في الصومال، من أهم نماذج هذا الفكر. (المترجم).

المتحضّر والدُّوَل الإسلاميّة في الدرجة الأولى. لقد استلزم الأمر مدة طويلة ليعلم الجميع أن الحادي عشر من سبتمبر وجرائم أُخرى كثيرة كالتي حدثت في مدريد وبالي والأقصر[1]... هي تبعات لم يكُن يمكن تجنُّبها لتلك الأيام المئة والاثني عشر التي أمضاها آية الله الخُمَيني في نوفل لوشاتو.

هل يمكن نسيان ما فعله أتباعه بأمر منه -على أغلب الظنّ- أو بتأييد منه -على أقلّ الاحتمالات- قُبَيل استقراره في نوفل لوشاتو؟ إذ أحرقوا في أغسطس 1978 أربعمئة وسبعين شخصًا أحياء، أكثرهم من النِّسَاء والأطفال، في سينما "ركس" في مدينة آبادان، ولم يجرؤ أي شخص على الاعتراض أو إبداء أسفه تجاه هذا العمل "الثوريّ".

اليوم يتظاهر الغربيون، أو لعلّ هذا في صميم قلوبهم، بإظهار تأسفهم وقلقهم إزاء ما يرتكبه الإسلام الراديكالي من جرائم! ألم يكُن هذا التيَّار من صناعة الغربيين أنفسهم؟ هذا المسخ الذي أقلقهم اليوم هو ثمرة ما زرعوه، وهو اليوم ينتقم من صانعه[2].

***

هدفي وأسلوبي في هذا الكتاب هو الاستفادة من الوثائق والدراسات التي لا مجال للشك في صحتها ودقتها، والاعتمادُ عليها. وقد استشهدت كثيرًا، بخصوص حياة ونشاطات رُوح الله الخُمَيني، بما كتبه هو نفسه أو أتباعه، حتى لا يبقى للنقاش أو التردُّد مجال، وهذا ما يقتضيه التأريخ من حياديَّة وواقعيَّة. أحيانًا بدت لنا هذه الكتابات مشكوكًا فيها، وفي كل مرة كنت أشير إلى هذا الأمر، لأنّ بعض المقرَّبين منه ممَّن ناصبوه العداء لاحقًا ربّما أعملوا بعض التحريفات في أقوالهم نتيجة حقدهم ورغبتهم في الانتقام، ولا بدّ من التحدّث بإنصاف وتحرِّي الدِّقَّة والاستشهاد بالتحليل التَّاريخي الدقيق حتى

(1) إشارة إلى التفجيرات التي وقعت في هذه المدن وذهب ضحيّتها عشرات. (المترجم).

(2) في متن الكتاب يشير الكاتب إلى قصة «مسخ الدكتور فرانكنشتاين» Dr. Frankenstein الذي عاد لينتقم من صانعه. (المترجم).

عندما نتحدث عن كائن فاسد وخبيث كالخُمَيني، وقد حاولت في هذا الكتاب اتّباع هذا المنهج.

لقد أسهم كثير من الأصدقاء في تأمين الوثائق التي رجعت إليها واستشهدت بها مرّات عدّة، وكلّما سَنَحَت لي الفرصة كنت أذكر أسماءهم في الحواشي مُبدِيًا شكري وامتناني لهم. وبعضهم إمّا مقيم في إيرانَ وإما لا تزال لديه الفرصة لزيارتها، لذلك لم أذكر أسماءهم حفاظًا على سلامتهم. وأشكر الجميع من صميم قلبي، سواءٌ مَن ذكرت أسماءهم ومَن آثرت عدم ذكر أسمائهم، كما أشكر الناشر الكريم الذي أظهر جرأته في نشر مثل هذا الكتاب.

الأول من سبتمبر 2009

الفصل الأول

السَّنَوات الخمسون الأولى من حياة رجل دين

رُوح الله الخُمَيني، الذي اشتهر في ستينيَّات القرن العشرين ولُقب بـ"آية الله". وأطلقوا عليه لاحقًا لقب "إمام" في نوفل لوشاتو، وُلد على وجه اليقين في بداية القرن العشرين، قُتل والده في عام 1901 في اشتباك قرب مدينة خُمين، وتشير سير حياته المنشورة إلى أن الخُمَيني كان يبلغ من العمر آنذاك سنة واحدة.

في عام 1924 أُقِرَّ قانون الأحوال المدينة الذي كان يُلزِم الناس بالحصول على بطاقة الهوية الشخصيَّة، في هذه الآونة حصل رُوح الله الخُمَيني على أول بطاقة شخصيَّة من دائرة الأحوال المدنية في مدينة خُمين[1]، وذُكر في هذه البطاقة أنه وُلد عام 1279 شمسيًّا، المعادل لعام 1900 ميلاديًّا. لكن لم تذكر البطاقة اليوم ولا الشهر الذي وُلد فيه.

لم يكُن في إيرانَ حتى ذلك الزمان مركزية للأحوال المدنية. لذلك حصل رُوح الله على بطاقتَي أحوال أُخرَيَين، الأولى عندما استقرّ في قم وبدأ حياة طلب العلم، وفيها عرّف نفسه باسم "رُوح الله الموسوي الخُمَيني". ربما كي يظنُّوه من أحفاد الإمام موسى الكاظم، وكان هذا الاسم أكثر تماشيًا مع مهنة رجل الدين[2].

---

(1) "2744" هو رقم الملف في فرع دائرة الأحوال المدنية في مدينة خُمين، انظر كتاب: مهدي شمشيري، ناكفته هايي درباره روح الله خميني، هيوستن، تكساس 2001، ص6، حيث أدرج الكاتب ما يتعلق بهذه الهُوِيَّة من وثائق.

(2) المرجع السابق، ص25. منذ هذا الزمان أصبح الخُمينيّ يوقِّع باسم «روح الله الموسوي

وبعد عام حصل رُوح الله الخُمَيني على بطاقة أحوال أُخرى (البطاقة الثالثة)، وكان يحمل اسم المصطفوي الخُمَيني إشارة إلى اسم والده (مصطفى)، وذلك لكي يُعرَف من نسبه[1]، ولاحقًا كان ينادَى بهذا الاسم أحيانًا.

في البطاقات الثلاث كان تاريخ ولادته عام 1900، لذا يمكن التسليم بأن هذا التَّاريخ هو تاريخ ولادة الخُمَيني، وبعد أن وصل إلى السُّلْطة في إيرانَ بدؤوا يشيرون في سيرة حياته الرَّسْميَّة إلى الشهر واليوم اللذين وُلد فيهما. ليس لهذا الأمر أيّ أهَمِيَّة، ولكن ليس معلومًا لماذا أقدم آية الله (الإمام) على الحصول على ثلاث بطاقات شخصيَّة!

كلمة (خُمَيني) المذكورة في البطاقات الثلاث والتي اختارها رُوح الله الشاب لتكون لقبه، كانت أيضًا تشير إلى انتسابه إلى مدينة خُمين الواقعة في وسط إيران، التي سكنها جدُّه وأبوه في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كان أحمد (الجد) ومصطفى (الأب) من مسلمي كشمير، لذا يُعَدَّان أصلًا من الهند، إذ جاء كثير منهم إلى إيران في تلك الفترة، وكانوا غالبًا ما يتنقلون من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية، وكانوا يقتاتون من العِرَافة والتنجيم. ويبدو أن مصطفى كان يجيد القراءة والكتابة، ومثل كثير من أبناء جلدته كان يُتقن الفارسيَّة، قبل أن يأتي إلى إيران ذهب برفقة والده لزيارة كربلاء، مرقد الإمام حسين بن عليّ إمام الشِّيعَة الثالث وحفيد الرسول محمد (ص) الذي يُعَدّ في نظر الشِّيعَة رمزًا للشهادة في سبيل الله والإسلام[2]، وبناءً على نصيحة أحد زوار كربلاء سافر أحمد ومصطفى إلى خُمين بعد تجوال طويل داخل إيران واستقرَّا فيها.

الخُمينيّ» ربما ليصبغ اسمه بالصبغة العربية الإسلاميَّة.

(1) المرجع السابق، صص28-27.

(2) انظر: مهدي بيراسته، آخوندشناسى، بررسى نقش آخوند، وملا در ايران از زمان حمله تازيان تا فاجعه بهمن 57 وبس از آن، جزئين، دار نشر آرش، ستوكهولم، 2005، الجزء الثاني، ص384.

مؤلف الكتاب، الذي كان من المسؤولين الكبار في السُّلْطة القضائية في إيران، ووصل إلى مراتب سياسيَّة مهمَّة في: المحافظة ووزارة الداخلية والسفارات. كان وزيرًا للداخلية في زمن حالات الشغب التي حصلت في أوائل الستينيات والتي كان للخُمينيّ دور بارز فيها، وفي الوقت الذي نُفي فيه الخُمينيّ إلى العراق عمل سفيرًا لإيران في بغداد لثلاث سنوات، يحتوي كتابه على خليط من الذكريات، المعلومات المهمة، الآراء والمناقشات الشخصية والتي بطبيعة الحال يجب أن يستشهد بها مع أخذ الحيطة والحذر. كثير مِمَّا ذكر في الكتاب حول حياة الخُمينيّ العائلية يجذب الانتباه، لا سيما أن الكاتب من نفس مدينة خُمين.

تاريخ وفاة أحمد (جدّ آية الله القادم) ليس معلومًا، لكن نعلم أنّ والده مصطفى تَزوّج شقيقة ذلك الزائر الذي نصحهما بالتوجُّه إلى خُمين والإقامة فيها، وكان اسمها سكينة، وما تَبَقّى من ثمرة هذا الزواج كان ثلاثة أبناء وابنتين. كان رُوح الله الأصغر بين الأبناء. استطاع الابن الأكبر (مرتضى) افتتاح مكتب أحوال مدنية من الدرجة الثالثة بعد إتمام دراسته التقليدية، وبعد تأسيس النِّظَام الجديد لدائرة الأحوال المدنية كانت مهامّ مكاتب الدرجة الثالثة فقط إتمام معاملات الزواج والمعاملات الصغيرة، وبقي هذا المكتب لسنوات حتى أغلقته السُّلُطات في السَّنَوات الأولى للحرب العالَمِيَّة الثَّانية بسبب بعض المخالفات. استمرّ السيد مرتضى، الذي كان قد اختار اسم "بسنديده" لقبًا، في حياته البسيطة الهادئة يقتات من الدخل الذي كانت تُدِرُّه عليه ممتلكاته البسيطة وما كان يدّخره. بعد الثَّورة أطلق على نفسه، أو أطلقوا عليه، لقب آية الله. حدث بينه وبين أخيه بعض الخلافات التي سنشير إلى أسبابها لاحقًا. وحسب إحدى الروايات توُفِّي السيد مرتضى عن عمر يناهز مئة عام. اختار الشقيق الثَّاني السيد نور لقب "هنديّ" الذي يشير إلى أصول هذه العائلة، وبعد إتمامه الدراسة اشتغل محاميًا، وكان يعيش حياة كريمة، وتوُفِّي عام 1976.

اثنان من المحلِّلين الفرنسيين الذين درسوا حول الثَّورة الإسلاميَّة وحياة الخُمَيني، نشرا كتابًا مُهِمًّا في هذا الجانب، يذكران فيه أن اسم "روح الله" خاصّ باليَهُود حديثي الدخول في الإسلام، أو الإيرانيّين البهائيين[1]. تبدو هذه المعلومة غير صحيحة، فلا دليل على أن أجداد رُوح الله الخُمَيني لم يكونوا مسلمين أو كانوا بهائيين أو يَهُودًا، وإيرانيّون كثيرون من شتَّى المذاهب والأديان يحملون اسم روح الله.

***

(1) Christian Delannoy - Jean Pichard, Khomeyni, La Revolution Trahie, Carriere. Paris, 1988, P. 67.

كان مصطفى، الذي عرف القراءة والكتابة، يعمل لدى أهم إقطاعيّ في المنطقة وهو حشمت الدّولة (جدّ عائلة حشمتي محلات). وفي الواقع كان سكرتيرًا لديه، كان حشمت الدّولة -كعادة الإقطاعيّين في ذلك الزمان- يسعى لتوسيع رقعة أملاكه، فكان يشتري الأراضي من الأشخاص الذين أثقلتهم الديون بثمن قليل، وكان لا يتوانى، على ما يبدو، عن تهديدهم وإخافتهم، وكان سكرتيره يسجّل مثل هذه المعاملات. فحتى ذلك اليوم لم يكُن قد أنشئ في إيرانَ مكاتب للوثائق الرّسْميّة، ولإضفاء الصبغة الرّسْميّة على المعاملات كانوا يذهبون إلى أحد رجال الدين. أوكانوا يكتبون صكًّا يوقّع عليه أويختمه كلا الطرفين. وبما أن حشمت الدّولة كان يتمتّع بالنُّفُوذ والقُوّة فلم يكُن الرجوع إلى رجل الدِّين أمرًا ضروريًّا، فكان سكرتيره السيد مصطفى، يُتِمّ هذه المعاملات، وفي خضمّ هذا العمل استطاع تكوين ثروة صغيرة، وهو بدوره لم يكُن يتورّع عن ممارسة القُوّة على المزارعين والمُلّاك صغار الشأن. نتيجة لذلك كَثُرَ أعداؤه، وجعلوه هدفًا لكرههم وحقدهم، بدلًا من حشمت الدّولة الذي كانوا يهابونه.

في أواخر القرن التاسع عشر وعلى أثر هذه العداوات حدثت الفاجعة لعائلة الخُمَيني، فقد أقدم أحد المتضررين من أذاه، وهو شخص يُدعَى بهرام خان، على الانتقام لنفسه. فتربّص له هو ومجموعة على الطريق الواصل بين خُمين وأراك، وقتله.

وُقف بهرام خان المتّهم بالقتل وأُرسِلَ إلى طَهْرَان، وهناك حُوكِم وحُكِم عليه بالإعدام، وشُنق أمام الملأ العامّ، وكانت عائلة الجاني أيضًا حاضرة في مراسم الإعدام كما كانت العادة.

بعد مرور ثمانين عامًا على هذه الحادثة، سجَنَ رُوح الله الخُمَيني، المليء بالحقد، حسين بهرامي مدير جمعية مدينة خُمين وحفيد بهرام خان، وعذّبه عذابًا لا يمكن وصفه، بحُجّة أنه "عدو لله ومُفسِد في الأرض"[1]، ثمّ جلَدَه أمام أهالي المدينة، وفي النّهاية شنقه، وكالعادة في نظام الجُمهُوريّة الإسلاميّة صودرت وسُرقت جميع أمواله وأموال عائلته.

---

(1) مهدي بيراسته، المرجع السابق، ص401.

أطنبت الصحف في تلك الفترة في شرح "إجراء العدالة الإسلاميَّة" بحق حسين بهرامي، موثِّقة ذلك بالصُّوَر وكثير من التعليقات.

بعد موت مصطفى، لم تبقَ عائلته بلا حماية، فقد تكفَّلت بهم بعض العائلات من أعيان المنطقة، مثل عائلة صدر الأشراف[1]، ونتيجة لهذه الحماية استطاع أبناء السيد مصطفى الذهاب إلى الكُتَّاب والمدارس التقليدية، وفي النّهاية أصبحوا ذوي مكانة.

***

في عام 1924 أُلزِمَ الإيرانيّون باختيار لقب لعائلاتهم والحصول على بطاقة شخصيَّة، فاختار مَن تَبقَّى من نسل الجد (أحمد) والأب (مصطفى) لقب "الهنديّ" للعائلة، الذي كان يذكّرهم بأصولهم، واختار بعضهم لقب "هنديّ زاده" لنفس السبب، أما رُوح الله فاختار -كما رأينا- لقب الخُمَيني، فعلى ما يبدو كان يحقّ للأبناء في منطقة أراك ومحلات وخمين اختيار ألقاب عائلاتهم في المستقبَل، ولهذا الأمر أمثلة متعدِّدة.

تَعلّم رُوح الله القراءة والكتابة على يد أخيه الأكبر السيد مرتضى، كما ذهب فترةً إلى الكُتّاب في مدينة خُمين، بعدها غادر إلى محلات، ثُمّ أراك، وفي النّهاية إلى قم لإكمال دراسته، وفي قم التحق بحلقات درس بعض العلماء المشاهير[2]. كان رُوح الله مرفَّهًا بالنسبة إلى الطلاب الآخرين، كان يقتات من دخله الخاص، ولم يكُن يمدّ يده إلى هذا أو ذاك، ومع ذلك كان ينشد المدائح في أشهُر المحرَّم وصفر مقابل الأجر، وعلى ما يبدو كان أيضًا يدرِّس بعض الطلبة.

---

(1) محسن صدر، صدر الأشراف، الذي تَوَلّى في عهد السَّلْطنة البهلويَّة مناصب رفيعة مثل: رئيس محكمة النقض العليا، ووزير، ورئيس وزراء، ورئيس مجلس الشيوخ.

(2) منهم: الحاج عبد الكريم حائري اليزدي، ومحمد علي شاه آبادي. لمزيد عن هذه المرحلة من حياة الخُمينيّ انظر: Amir Taheri, Khomeyni, Balland, Paris, pp. 29 a 65.
حَسَب تحقيقات مؤلف الكتاب فقد كان زملاء روح الله الخُمينيّ يعتبرونه أحد الطلاب الأذكياء وفي نفس الوقت من محبّي الجاه.

قُبَيل الحرب العالَميَّة الثَّانية، ومن أجل إكمال دراسته، قصد الخُمَيني النّجف التي كانت في ذلك الزمان -كما هي اليوم- أهمّ مركز للشّيعة في العالَم، وقبل سفره تَزوَّج بفتاة في سنّ الحادية عشرة، واسمها خديجة، كانت من عائلة محترمة تملك ثروة لا بأس بها[1]. كان الزواج من الفتيات اللاتي تجاوزَت سِنُّهن التاسعة مسموحًا في ذلك الوقت، تجدر الإشارة إلى أن حياة روح الله -على عكس أكثر رجال الدين- كانت هادئة، فلم يتزوّج امرأة أُخرَى، وُلد له من زوجته خديجة أبناء كثر لم يبقَ منهم على قيد الحياة سوى أربعة: مصطفى وأحمد اللذين سنتطرّق إليهما في كتابنا هذا، وابنتين عاشتا باحترام وهدوء. على الرغم من أن الخُمَيني لم يتزوج إلا زوجة واحدة، فقد أقرّ ثانيةً تَعدُّد الزوجات، الذي مُنع بعد الثَّورة البيضاء[2]، وحدّد سنّ زواج الفتيات بتسع سنوات وأعلن أنه: "يجب على الفتيات أن يشاهدن دماء الحيض في بيوت أزواجهن"[3].

***

في أواسط العقد الرابع الميلادي، وبعد انتهاء الحرب العالَميَّة الثَّانية وعودة الهدوء النِّسبيّ إلى إيران، عاد رُوح الله الخُمَيني إلى بلده، وعلى الرغم من التحاقه بجماعة آية الله سيد أبو القاسم الكاشاني، الذي كان معارضًا للدكتور محمد مصدّق، قائد الحركة الوطنيَّة في إيران، وأبدى حينها نشاطًا وحيوية، فقد كانت حياته هادئة حتى عام 1963 حين وقف في مواجهة النِّظَام السياسيّ. كان أحد أخويه رئيسًا لمكتب الأحوال المدنية، والآخر كان محاميًا، أمَّا نشاطه الشخصي فقد كان الوعظ وإنشاد المدائح وتدريس العلوم الدِّينِيَّة في مساجد قم.

ورث الإخوة الثلاثة مزرعة صغيرة عن والدهم في مدينة خُمين، وكان يُطلَق على هذه المزرعة التي يملكها "آية الله القادم" اسم "زورقان"[4].

---

(1) توُفّيت خديجة الثقفي زوجة الخُمينيّ في 21 مارس 2009. انظر: Iran Times العدد 27 مارس 2009.

(2) انظر الصفات التالية من الكتاب.

(3) منقول عن جزء من ترجمة كتابات الخُمينيّ في كتاب Delannoy et Pichard، مرجع سابق، ص67.

(4) انظر: سياوش بشيري، توفان در 57، الجزء الأول، انتشارات برنك. Levallois، 1982، ص58.

في ذلك الزمان تعاون الإخوة الثلاثة وأسَّسوا مصلحة ماليَّة كانت عبارة عن مكتب لخطوط الحافلات. أطلقوا عليها اسم "مكتب الهنديّ". وأُسِّس هذا المكتب لخطوط الحافلات الواصلة بين خُمين ومحلات وأراك. ثمّ حوَّلوا بيت والدهم إلى ورشة سيارات ومخزن لقطع الغيار ومكان يقيم فيه السائقون. بعبارة أخرى، جعلوه مركزًا لنشاطات هذا المكتب[1].

أخذ هذا المبنى يتداعى تدريجيًّا، لكن في عام 1980 أعادوا ترميمه. وحسب رواية الأشخاص الذين زاروا "بيت السيد" مؤخَّرًا، فالمبنى عبارة عن طابق أرضي يحتوي على إحدى عشرة غرفة وفناء وسيع نسبيًّا فيه شجرتان. وفي البناء مرحاض واحد. عندما كان "مكتب الهنديّ" في أوج عطائه كانوا يركنون الحافلات في الفناء ويستخدمون الغرف كمخازنَ أو مكانٍ يستريح فيه السائقون. اليوم ليس لهذا البناء أي استخدام، وأحيانًا يأتي بعض الأجانب لزيارته.

***

في الأساس لم تكُن هذه المرحلة من حياة ونشاطات رُوح الله الخُمَيني تستوجب كثيرًا من البحث والجدل. لكن عندما أحضروه إلى نوفل لوشاتو وصنعوا منه شخصيَّة عالَميَّة. قيل كثير من الأكاذيب حول تلك المرحلة.

خلال المدة التي قضاها في فرنسا لم يُذكر أي شيء عن أصله الهنديّ في أي من السِّيَر التي كُتِبَت هنا وهناك عن حياته. لقد كان ابن عائلة هاجرت إلى إيران، وهذا الأمر لا يعيب إطلاقًا، لكن عندما أرادوا أن يجعلوا منه أسطورة ويُظهروه بطلًا. لم تكُن هذه الأصول غير الإيرانيَّة شيئًا يُفتخر به. لذا كانوا يتجنَّبون ذكرها، واليوم في إيرانَ أيضًا لا يشير أحد إلى هذا الأمر. كما لا يؤيِّد مدَّعو التنوير خارج إيران التطرُّق إلى ذكره.

---

(1) انظر: Amir Taheri، مرجع سابق. كذلك انظر:

.Gerard Beaufils, Tous Otages de Khomeyni, Seguier, Paris, 1984, P. 76

الكذب والتستُّر

السيد مرتضى بسنديده، الشقيق الأكبر لآية الله، قال في حواره مع صحف طَهْرَان في الأيام التي سبقت انتصار الثَّورة: "كان جَدُّنا المرحوم آقا سيد أحمد كشميريًّا، جاء من الهند إلى إيران، وعاش سنوات طويلة مع عائلتنا في خُمين"[1].

ويبدو أن هذا التصريح أوجد خلافًا بينه وبين أخيه روح الله، وبعد خمسة عشر عامًا أشار بسنديده نفسه، في مذكّراته التي لقّب فيها نفسه بـ"آية الله"، إلى هذا الأمر بالتفصيل، مؤكِّدًا على ما ذكره سابقًا[2].

بعد انتصار الثَّورة الإسلاميَّة أُشيرَ في الدستور إلى أنّ "المرشد الأعلى" يجب أن يكون إيرانيًّا، ويجب أن يكون رئيس الجُمهُوريَّة "إيرانيًّا وإيرانيّ الأصل"، وبهذا أرادوا أن يكون الوضع القانوني للمرشد الأعلى في ذلك الزمان، وهو الخُمَيني، بعيدًا عن متناول الانتقادات والشَّكّ. وبعد أن وصل آية الله إلى السُّلْطة ألغى رمز "الأسد والشمس" الذي كان شعارًا رَسْمِيًّا وقوميًّا لإيران لقرون طويلة، واستبدل بذلك "الشعار الملعون"[3] رسمًا كشميريًّا.

جميع ما ذُكر هو اعترافات رسميَّة، وتقريبًا علنيَّة، حول نَسَب رُوح الله الخُمَيني غير الإيرانيّ، كما يُظهرون في هذه السير الرَّسْميَّة المنتشرة هنا وهناك عن حياة الخُمَيني أنّ أُمَّ آية الله كانت ابنة أحد الأئمة[4].

---

(1) صحيفة إطلاعات، 15 يناير 1978.

(2) نُشرت هذه المذكَّرات ورُتِّبت باهتمام من محمد جواد مرادي، نشر حديث، طهران 1374 شمسي (1995)، هذه الوثيقة تحتوي على معلومات لافتة حول حياة وعائلة الخُمينيّ وتتطابق في جميع جوانبها مع ما ذكرناه هنا.

(3) محاضرة في المدرسة الفيضية في قم، 6 مارس 1979. لمزيد من الاطِّلاع حول تاريخ علم إيران وشعار الأسد والشمس انظر: حميد نيّرنوري، تاريخچه پرچم ايران وشير وخورشيد، موسسه مطالعات وتحقيقات اجتماعيّ دانشكاه تهران، تهران، 1965.

(4) Paul Balta, Le Monde, 19Jonvui 1979: هذه السيرة المفصَّلة عن حياة الخُمينيّ التي نقلتها وكالة فرانس برس (A.F.P) كما هي ونشرتها في جميع أنحاء العالَم واعتُمدت في كلّ مكان تقريبًا، هي في الحقيقة المصدر الأساسي لكل المعلومات المغايرة للحقيقة التي كُتبت عن الخُمينيّ واعتُبرت رسمية في ما بعد.

الكذبة الأُخرى الكُبْرَى

كانت هذه "الأخبار" أو "الإشارات" الفرنسيَّة والغربيَّة خياليَّة ومغايرة للواقع، لدرجة أن سِيَر حياة الخُمَيني الرَّسْميَّة في إيرانَ لم تتطرق إليها، لكنَّ كُتَّاب الغرب ما زالوا يستشهدون بها.

لقد وجدَت الاختراعات الباريسية حول والد آية الله أبعادًا أحدَثَ وأوسَعَ:

"في حياة الخُمَيني المليئة بالحوادث، قُتل والده مصطفى بأمر من رضا شاه"[1]!

ما زالت هذه المعلومة مُدرَجة في أكثر سِيَر حياة الخُمَيني الرَّسْميَّة، في حين يعلم الجميع أنه عندما قُتل مصطفى في عام 1900 أو 1910، كان شاه إيران القادم لا يزال ضابطًا شابًّا في جيش القوزاق في زمن الدَّولة القاجارية، ويقينًا لم يُسمَع حتى عن حادثة مقتل سكرتير حشمت الدَّولة وإعدام قاتله، كانت هذه القِصَّة كاذبة ومختلَقة لدرجة أن سِفَارة الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة في باريس أُجبِرَت لاحقًا على أن تغيِّرها، وتعلن أن "والد آية الله أُعدِمَ نتيجة لمقاومته للمستعمرين، في حين لم يكُن آية الله قد تجاوز الخامسة من العمر"[2].

مرة أُخرى.. كذبة أُخرى

تُظهر صحيفة "لوموند" الفرنسية والد آية الله الذي "قُتل بأمر رضا شاه" بسبب مخالفته للنِّظام"(!) كبطل للمقاومة ضِدَّ الإقطاعيِّين"، وحتى كقائد لمجتمَع "خُمين"[3].

الخيالات والأكاذيب المتسرِّبة حول الخُمَيني هنا وهناك جعلت من مصطفى الذي كان سكرتيرًا لدى كبير إقطاعيِّ المنطقة، جعلت منه "قائد مجتمَع خُمين"،

(1) Pierre Accoce et Dr. Piere Rentchnich, Ces Nouveavx Malades Qui Nous Gouvernent, Stock, Paris,1988,P.282.

(2) انظر: Gerard Beaufis، ص74.

(3) Le Monde, 19Janvier 1979.

وهو لقب لم يكُن موجودًا في ذلك الزمان وليس موجودًا اليوم. كان والد الخُمَيني معمَّمًا كسائر من كان لهم معرفة بسيطة بالقراءة والكتابة في ذلك الزمان، حتى إنه لبس العمامة السوداء ليعتقدوا أنه من الأشراف، لكنه لم يكُن رجل دين.

***

في السَّنَوات التي أعقبت الحرب العالَمِيَّة الثَّانية، كان رُوح الله الخُمَيني رجلَ دينٍ عاديًّا ومجهولًا كآلاف رجال الدِّين في إيران، كان في قم يدرّس الفقه وأصول الدِّين لبعض طلاب العلم، وكان يمارس إنشاد المدائح. كان يحصل على راتب بسيط من صندوق زكاة المرجِعيَّة الشِّيعِيَّة آية الله العُظْمَى الحاج حسين البروجردي، لكن كان يعيش حياة مرفَّهة بسبب مدّخَراته وما كان يُدِرُّه عليه مكتب حافلات "الهنديّ". لم يكُن هذا النشاط الاقتصاديّ مخالفًا للقانون أو العادات، لكن في نفس الوقت لم يكُن له أبعاد بُطُوليَّة واستثنائيَّة. كان الخُمَيني رجل دين مجهولًا، لم يكُن يتدخَّل في شؤون أحد ولم يكُن أحد يتدخّل في شؤونه. في هذه المرحلة لم يُشهَد له أي نشاط سياسيّ سوى مرة واحدة:

في الرابع من فبراير 1949 عندما حضر محمد رضا شاه البهلوي إلى كلية القانون والعلوم السِّياسِيَّة بجامعة طَهْرَان لحضور مراسم الاحتفال بيوم الجامعة، تَعرَّض لمحاولة اغتيال من ناصر فخر آرائي، أحد أعضاء لجنة الاغتيالات في حزب "توده"، إذ أُطلِقَت صوبه خمس رصاصات. ونجا الشَّاه بمعجزة بعد أن أُصِيبَ بجروح بسيطة، وفي خِضَمّ فَوْضَى هذه العمَلِيَّة قُتل المهاجم على يد رجال الأمن.

أوجَدَت هذه العمَلِيَّة تغييرات في الرَّأي العامّ لصالح الشَّاه، ولانتهاز الفرصة بادرت الحُكُومة برئاسة محمد ساعد، ومَجلِس النُّوَّاب، بإحداث تغييرات في الدستور من أجل تقوية الموقف الملكيّ وهيبة الدَّولة، من هذه التغييرات أنه يُسمَح للملك في ظروف خاصَّة أن يحلّ مَجلِس النوَّاب، أو أن يعيد أي قانون أقَرَّه مَجلِس التشريع إلى مَجلِس النُّوَّاب للمشاورة، على أن يكون الرَّأي الفصل بيد مَجلِس النُّوَّاب.

في السابع من فبراير. وفي خِضَمِّ انشغال الرَّأي العامَ. جُزِمَ الأمر بخصوص اقتراح الحُكُومة والمَجلِس، وتَقَرَّر تشكيل "اللجنة التأسيسيَّة"، وهي المرجِعيَّة الوحيدة التي كان بإمكانها إبداء الرَّأي واتِّخاذ القرارات بهذا الخصوص.

وكما كانت العادة في ذلك الزمان، قرَّرَت الحُكُومة والبلاط أن يضمَّا صوت آية الله العُظْمَى البروجردي الموافق حول هذه التغييرات.

انتشرت شائعة التغييرات واستشارة المرجِعيَّة الشِّيعِيَّة في قم، فكتب حينها ستة من رجال الدِّين رسالة إلى آية الله العُظْمَى وخاطبوه فيها بأدب سائلين: هل يوجد في هذه التغييرات ما يمسّ الشؤون الدِّينِيَّة والقوميَّة والاجتماعيَّة؟ كان رُوح الله الخُمَيني أحد الموقِّعِين على هذه الرسالة، وكان ترتيبه الرابع بينهم، وهو ترتيب له أهَمِيَّة كبيرة في موضوع سلسلة المراتب بين علماء الشِّيعَة[1].

فأجاب آية الله العُظْمَى على رسالتهم برسالة يقول فيها:

"... لقد نبّهت جلالة الملك مَرَّات عِدَّة عن طريق بعض الأشخاص إلى هذا الأمر. حتى جاءني الردّ مؤخَّرًا عن طريق السيد وزير الدَّولة والسيد رفيع[2] بأنّ الموادّ التي تتعلق بالديانة لن يجري عليها أي تعديل. ومع هذا فقد حضر بعض العلماء في جلسات المشاورات حول هذه القضيَّة، ولم يصدر عني أي كلمة تشير إلى موافقتي..."[3].

أشار آية الله العُظْمَى في جوابه إلى أن عددًا من العلماء الأعلام حضر مشاوراته مع مبعوثي البلاط والحُكُومة، وأراد من ذلك أن يذكّر الموقِّعين على الرسالة، ومنهم رُوح الله الخُمَيني، بأنه لا يعدّهم من زمرة العلماء الأعلام.

---

(1) نَصّ هذه الرسالة وجواب آية الله العظمى بروجردي مُدرَج في كتاب طُبع عام 1981 بعنوان «مجموعه مكتوبات، سخنرانها، بيامها وفتاوى امام خمينى» به اهتمام م. دهنوى، نشر جابخش،1360.

(2) الحاج رضا رفيع الملقب ب«قائم مقام الملك»، شخصية مقرَّبة من الشاه والبلاط وأيضًا من رجال الدين.

(3) المرجع السابق، ص8.

لم تتمَ متابعة القضيَّة ثانيةً. لم يكُن الموقِعون على الرسالة مشهورين حتى داخل قم، ولم تُشِر الصحف في ذلك الوقت إلى هذه المراسلات التي نُشرت مؤخَّرًا.

في هذه الآونة تقريبًا ألّف الخُمَيني ونشر كُتَيّبه "كشف الأسرار" الذي طُبع في إيرانَ مرارًا وتَكرارًا دون ذِكْر اسم المؤلّف أو الناشر أو التَّاريخ، ويحتوي على مجموعة من أفكاره السِّياسِيَّة المتداخلة المتناقضة، مكتوبةً بقلم مبتدئ، وغالبًا لا يمكن فهمها. وفي مواطن عدة من هذا الكتاب أكّد عدم مخالفته الملكيَّة. يقول: "لم تبرز أي مخالفة من رجال الدِّين للنِّظام المَلَكِيّ حتى الآن، إن مساندة العلماء الكبار ودعمهم للحُكُومة مشهود في التَّاريخ"[1]. ويضيف: "لا نقول إن الشَّاه يجب أن يكون رجل دين، الشَّاه يجب أن يكون عسكريًّا، ويجب أن يتبع قوانين الدَّولة"[2].

حتى أواسط القرن العشرين عندما بلغ رُوح الله الخُمَيني الخمسين من العمر، كان النشاط الوحيد الذي قام به ويمكن صبغه بالصبغة السِّياسِيَّة هو تلك الرسالة التي وجَّهَها مع مجموعة إلى آية الله العُظْمَى البروجردي، وذلك الكتيّب المليء بالتشويش والتناقض المسمَّى "كشف الأسرار"، وفي كليهما لا يمكننا مشاهدة أي أثر لكفاحه الذي لا يُهزَم مع الإمبريالية والملكيَّة، والذي -حسب الصحف الغربيَّة- رافقه منذ شبابه.

---

(1) روح الله الخُمينيّ، كشف الأسرار، صص187-186، و234.

(2) لمزيد من المعلومات حول آراء آية الله الخُمينيّ السياسيَّة انظر: ناآكاهي وبوسيدكي، سيري در نوشته هاي سيد روح الله خميني، جزآن، لندن، نشر نوآوران، 1370 شمسي. (المترجم).

الفصل الثَّاني

الخُطُوات الأولى في السِّياسة

مرَّت إيران في السَّنَوات التي أعقبت الحرب العالَميَّة الثَّانية بمرحلة مضطربة متأزِّمة وصعبة، الأصعب بلا شكّ. كانت عندما رفض السوفييتيون إخلاء قواعدهم في إيرانَ كما وعدوا سابقًا، وأوجدوا نظامين شيوعيَّين انفصاليَّين. أحدهما في أذربيجان والآخر في أجزاء من كردستان. إن تفاصيل هاتين الأزمتين المتعلقتين بالحرب الباردة بين الشرق والغرب (العالَم الذي تسيطر عليه موسكو وذلك الذي يسيطر عليه العالَم الحرّ) لا تخفى على أحد.

استطاعت إيران أن تخرج منتصرة من هاتين الأزمتين وتحافظ على سيادة أراضيها ببركة مثابرة وإدارة أحمد قوام (قوام السلطنة)[1] رئيس الوزراء، الذي كان يتمتَّع بحماية كاملة من الرَّأي العامّ والشَّاه وأيضًا من الرئيس الأمْرِيكِيّ هاري ترومان.

كانت مشكلة أذربيجان وكردستان قد حُلّت للتَّوِّ عندما ظهرت مشكلة جديدة، هي بداية حركة وطنيَّة وشعبيَّة تهدف إلى تحصيل حقوق إيران من الشركة الإيرانيَّة البريطانيَّة للنِّفْط (B.P./A.I.O.C). وكذلك إنهاء التدخُّل البريطانيّ غير المبرَّر في الشؤون الداخليَّة لإيران.

---

(1) استطاع قوام، أكثر من أي رجل دولة آخَر في العالَم، أن يخدع ستالين وينتصر على الاتحاد السوفييتي.

اتسعَت رقعة المظاهرات ضِدّ سياسة الاستعمار البريطانيّ لدرجة أن الشَّعْب، في حركة تاريخيَّة ووطنيَّة غير مسبوقة، أخذ يطالب بتأميم صناعة النِّفْط في إيران، التي كان يديرها البريطانيُّون بناءً على اتِّفاقية 1901 مقابل دخل ضئيل، ولم يكُن للإيرانيِّين الحقّ حتى في الإشراف عليها.

كان ممثِّل وقائد هذه الحركة هو الدكتور محمد مصدَّق، كان من عائلة نجيبة وثريَّة، كان نسبه من ناحية الأم يصل إلى عباس ميرزا وفتح علي شاه القاجاري، وكان صهر ناصر الدِّين شاه. كان الدكتور مصدّق حقوقيًّا بارزًا، وأول إيرانيّ يحصل على شهادة الدكتوراه في القانون، كان قويًّا في إلقاء الخطابات، وحسب أحد المؤرّخين الفرنسيين: "لم يكُن مصدَق يستطيع العيش دون حماسة، ودائمًا ما كان يقع تحت تأثير عواطفه"[1]، كان مصدّق يتمتَّع بشعبيَّة بين الناس، ولم يكُن محمد رضا شاه يحبه، لكنه كان يسانده في هذه الحركة.

كان اللواء فضل الله زاهدي، وهو عسكريّ ذو مواصفات خاصَّة[2]، أحد رفقائه في هذه المقاومة، الذي اشتهر بمخالفته للإنْجِلِيز، فقد خطفه الإنْجِلِيز في زمن الحرب وأبعدوه إلى فلسطين وعاش في ظروف معيشية صعبة لِمُدَّة ثلاث سنوات، وفي عهد حُكُومة مصدّق أصبح وزيرًا للداخليَّة، ثمَ حلَ محلّه.

كان آية الله سيد أبو القاسم الكاشاني أحد أتباع الدكتور مصدّق في المقاومة، الذي كان معروفًا بتطرُّفه وقسوته وفساده المالي، وعلى الرغم من أنه عاش لسنوات طويلة في دول كانت تحت حماية بريطانيا بشكل مباشر وكان يتمتَّع باحترام وحماية البريطانيّين فقد أظهر نفسه معارضًا، بل عدوًّا للسياسة البريطانيَّة، وكان يُقال إنه على علاقة وثيقة مع جماعة الإخوان المسلمين. جدير بالذِّكْر أنّ هذه الجماعة في بداياتها في السَّنَوات التي تلت الحرب العالَميَّة الأولى كانت تتمتَّع بدعم ماليّ وسياسيّ من لندن، وبهذا أراد الإنْجِلِيز أن يُوجِدُوا حركة ضِدّ الحركات القوميَّة العربيَّة،

---

(1) Arthur Conte, le Reveil De l'Islam, Paris Match, 23 septembere 1983.

(2) استخدم السيد عزت الله همايونفر مصطلح «عسكري ذو مواصفات خاصة» في كتابه «از سباهيكرى تا سياستمدارى/ نشر آبنوس جنيف 1997» الذي شرح فيه سيرة حياة زاهدي بالتفصيل.

في هذه السَّنَوات تأسَّسَت جماعة "فدائيّي الإسلام" المتطرِّفة من أتباع سيد أبو القاسم، التي يبدو أنها كانت الجناح الإيرانيّ لجماعة الإخوان المسلمين في مصر.

كان مصدّق يعارض تداخل السِّياسة مع الدين، وكان يعتقد أنه يجب إبعاد رجال الدِّين عن التدخُّل في شؤون السِّياسة، وقد قال وكتب هذه الفكرة مرارًا وتَكرارًا، كان باحتمال أقرب إلى اليقين يعتنق مذهبًا ما، لكنه لم يكُن يُولِي اهتمامًا لمراعاة الآداب والشكليات الإسلاميَّة، وفي حياته الشخصيَّة غالبًا ما كان يستهزئ باهتمام زوجته الأميرة ضياء السلطنة، بهذه الآداب والشكليات، على الرغم من محبته الشديدة لها[1]. كان الكاشاني يدّعي أنه يجب تطبيق أحكام الشريعة الإسلاميَّة في المجتمَع المدني بكلّ بما تحمله من تَشَدُّدٍ وقسوةِ القرون الوسطى، كان يريد أن يمنع المشروبات الرُّوحِيَّة ويعيد فرض الحجاب، ويحرم النِّسَاء من حقوقهن الاجتماعيَّة، وحسب مصطلَح اليوم فقد كان يُعَدُّ إسلاميًّا متطرِّفًا وقاسيًا[2].

على الرغم من أن كثيرًا من قادة ومراجع الشِّيعَة في البداية كانوا مؤيِّدين للحركة القوميَّة، فقد تجنبوا التدخُّل المباشر فيها وتَجنَّبوا مقاومة السياسات البريطانيَّة الاستعماريَّة.

كان الكاشاني هو رجل الدِّين الوحيد المعروف والمهمّ نسبيًّا الذي ساند حركة تأميم صناعة النِّفْط منذ البداية. لقد كان يحتاج إلى مصدّق ليحصل على مكانة ومنزلة في عالَم السِّياسة في إيرانَ آنذاك، وكان مصدّق يحتاج إليه ليجيّش ويحفّز الجموع المقيَّدة بتطبيق المعتقدات الدِّينِيَّة، في سبيل الطموح القوميّ للإيرانيّين، كان لا بُدّ أن يساير كلاهما الآخر لِمُدَّة، فكان كلاهما يجامل الآخر. والتُقِطَت ونُشِرَت لهما الصُّوَر التي تشير إلى علاقتهما الحميميَّة، إلى أن وصل الأمر إلى إظهار الكاشاني على أنه القائد الدينيّ للحركة الوطنيَّة، لكنه كان ينوي أن يسيطر على الحركة، وأن يسيِّرها لتحقيق مآربه ومنافعه الشخصيَّة.

---

(1) انظر كتاب: السيدة شيرين سميعي، در خلوت مصدق، نشر شركت كتاب، لوس أنجلوس، 2006. السيدة شيرين سمعيعي هي زوجة ابن الدكتور غلام حسين مصدق، ابن الدكتور مصدق، التي بقيت إلى جانبه حتى نهاية حياته.

(2) Islamiste- integriste islamique.

لهذا سرعان ما حدث اختلاف في وجهات النظر بين الكاشاني ومصدّق، وأخذ يزداد يومًا بعد يوم، وبالتزامن مع بروز بعض التضارُب بين الشَّاه ومصدّق أخذ الكاشاني يتقرَّب من البلاط، وفي النِّهاية برز كأشدّ المعارضين للحركة القوميَّة. كان أتباع الشَّاه يريدون استخدام الكاشاني في ألاعيبهم واستفزازاتهم لمصدّق، وكان هو بدوره ينوي الاستفادة من إمكانيَّات وحماية البلاط لصالحه.

في الثالث عشر من أغسطس عام 1953، عندما حلّ اللواء زاهدي مكان مصدّق وأمسك زمام الأمور بيده، أقدم سيد أبو القاسم على التدخُّل في القيادة السِّياسِيَّة علنًا وبلا خوف، وأن يكون له دور مؤثّر في سياسة الدَّولة، كان يريد إرسال بعض مؤيِّديه إلى المَجلِس التشريعيّ، وأن يعيّن بدوره بعض الوزراء، ومِن ثَمَّ يحصل على جائزة الدور الذي لعبه في نهايات عهد مصدّق.

كانت حسابات الكاشاني خاطئة، ولم تتحقق توقُّعاته. فقد كان اللواء زاهدي كأسلافه، قوام ومصدّق وغيرهما من رجال الدَّولة الإيرانيِّين البارزين، من أتباع فصل الدِّين عن السِّياسة، ولم يكُن يحتمل تدخُّل رجال الدِّين في إدارة شؤون المَمْلَكَة.

كان لزاهدي عَلَاقات جيِّدة مع أكثر العلماء الأعلام، بخاصَّة المرجِعيَّة الشِّيعِيَّة آية الله العُظْمَى البروجردي، ولم يكُن بحاجة إلى الكاشاني والجناح المتطرّف لرجال الدين، وبعد مُدَّة قصيرة ساءت العَلَاقات بينهما، وأخذ الكاشاني يناهض زاهدي، فأمر اللواء زاهدي بحبسه ونفيه، وفي النِّهاية وبعد بضع سنوات مات الكاشاني مجهولًا، ولُوحِق أعضاء جماعة "فدائيِّي الإسلام"، عملاء الكاشاني، بسبب الجرائم التي ارتكبوها، وحُكم على بعضهم بالإعدام، وطُبِّقت أحكام القضاء على بعضهم[1]، في نهاية المطاف لم يكُن لهذه الجماعة أيُّ تحرُّكات أو نشاطات حتى الثَّورة الإسلاميَّة 1979-1978.

(1) منهم قائد الجماعة الذي كان يسمِّي نفسه سيد مجتبى نواب صفوي، وكذلك قتلة أحمد الكسروي، المؤرّخ المعروف، وقتلة رئيس الوزراء الأسبق عبد الحسين هزير والمشير رزم آرا.

أُشِيعَ في طَهْرَانَ في ذلك الوقت أن البلاط، خصوصًا أشرف، شقيقة الشَّاه، التي لم تكُن تجمعها مع زاهدي عَلَاقات طيبة، توسَّطوا لكاشاني. وقيل إن سِفَارة بريطانيا، التي لم تنسَ عداوة لندن القديمة لزاهدي، كانت تشجِّع الكاشاني ضدّه. تؤيِّد قرائن كثيرة هذه الإشاعات، لكن لا يوجد دليل قطعيّ على صحتها.

***

منذ أواخر العقد الرابع الميلاديّ كان رُوح الله الخُمَيني يُعَدّ من الزمرة المقرَّبة من آية الله الكاشاني، وكان يشارك في نشاطاته السِّياسِيَّة الأساسيَّة.

بعد استقرار نظام الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة، أصبح الكاشاني شخصيَّة تاريخيَّة يحترمها النِّظَام الجديد، حتى إنهم أطلقوا اسمه على بعض المدارس، وطبعوا الطوابع تخليدًا لذكراه. وأصبح "فدائيُو الإسلام" يُذكَرون بالخير. ومع ذلك فإن الإشارة إلى دور رُوح الله الخُمَيني في نشاطات آية الله الكاشاني ليس مسموحًا بها، لأن الأمر يتنافى مع تلك الصُّورة البُطُوليَّة التي رسموها عنه في فرنسا، صُورة البطل المقاوم للاستعمار.

إنَّ يوم الثَّامن والعشرين من فبراير[1] 1953، يُعَدّ نقطة تحوُّل في النِّزَاعات الشديدة التي حصلت بين مخالفي ومناصري الدكتور مصدّق في الأشهر الأخيرة لحكومته.

لنعُد إلى الوراء قليلًا: قبل هذه الحادثة ببضعة أشهر، في التاسع عشر، ثم على الخصوص في العشرين والحادي والعشرين من يوليو 1952، حدث خلاف علنيّ بين الشَّاه ومَجلِس الشُّورَى من جهة، والدكتور مصدّق من جهة أُخرَى، وامتدّ الأمر ليصل إلى مشاجرات بين أتباع كليهما في الشوارع والأسواق، وقامت مظاهرات دامية في طَهْرَانَ وبعض المدن الأُخرَى.

بعد إجراء انتخابات مَجلِس الشُّورَى وافتتاح الشَّاه للدورة التأسيسيَّة الجديدة، وحسب العادة، قدّم الدكتور مصدّق استقالته للشَّاه.

---

(1) الحادثة المعروفة بـ«التاسع من اسفند» أو «الثامن والعشرين من فبراير». (المترجم).

مراعاةً لهذه العادات، طلب الشَّاه من مَجلِسي الشُّورَى والشُّيُوخ إبداء آراءهم حول رئيس الوزراء القادم، فحصل مصدّق على رأي أكثريَّة أعضاء مَجلِس الشُّورَى، بينما لم يحصل من مَجلِس الشُّيُوخ إلا على أربعة عشر صوتًا من أصل ستة وثلاثين ممَّن حضروا الجلسة، ومرة أُخرَى وحسب العادات البرلمانيَّة فقد كان لرأي مَجلِس الشُّورَى الأَوْلويَة ومقدَّمًا على رأي مَجلِس الشُّيُوخ. لذا ففي العاشر من يوليو كلّف الشَّاه رئيس الوزراء المستقيلَ تشكيلَ الحُكُومة الجديدة، في الثالث عشر من يوليو في جلسة خاصَّة مشترَكة بين أعضاء مَجلِسي الشُّورَى والشُّيُوخ طلب مصدّق إعطاءه صلاحيَّات كاملة لمواجهة مشكلات الدَّولة المتزايدة، بحيث يستطيع أن يدير الحُكُومة من خلال "المراسيم القانونيَّة"، دون حاجة إلى تقديم مشروعات القوانين المقترَحة للهيئة التشريعيَّة. كذلك طلب مصدّق أن يتقلّد منصب وزير الحرب (الدِّفاع الوطنيّ)، أي أن تكون قيادة القُوَّات المسلَّحة، التي قائدها الأعلى هو الشَّاه، بيده لا بيد الشَّاه.

قرر المَجلِسان أنّ الطلب الأوَّل مخالف للدستور وللعُرُف البرلماني. لأن مصدّق كان يريد "الصلاحيَّات الكاملة" لنفسه شخصيًّا لا لحكومته. كما أنه كان يُصِرُّ على إقرار الهيئةِ التشريعيَّة هذا الطلبَ قبل تشكيل الحُكُومة والحصول على الثِّقَة.

كذلك عارض الشَّاه طلب رئيس الوزراء الثَّاني. ففي السادس عشر من يوليو ذهب رئيس الوزراء لملاقاة الملك، وحسب صحف العاصمة فقد كانت أجواء مفاوضاتهم التي استمرت ثلاث ساعات، ودِّيَّة. وفي هذا اللقاء طلب رئيس الوزراء من الملك أن يُعفِيَه من منصب رئاسة الوزراء وتشكيل الحُكُومة.

حَسَب جميع الروايات الموجودة، فقد كان الشَّاه يرغب في تنصيب أحد شخصيَّات الجبهة الوطنيَّة المعتدلين رئيسًا للوزراء[1]، لكن مَجلِس الشُّورَى لم يقبل بهذا الرَّأي، واختاروا أحمد قوام المعروف بـ"منقذ أذربيجان"، رئيسًا للوزراء[2].

---

(1) وهم حسب الأقوال اللهيار صالح، الدكتور عبد الله معظمي أو حسين مكي. (المترجم).

(2) حول هذه الحوادث انظر: H. Nahavandi, Iran, Le choc des Ambitions, 2006.

تُرجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية وطُبع في لندن عام 2007. أيضًا انظر: جلال متيني، كارنامه سياسى دكتر مصدق، شركت كتاب، لوس أنجلوس، 2006، الطبعة الثانية 2009. وأيضًا: هوشنك

لم يكُن ترجيح قوام متوقَّعًا من المَجلِس، الأمر الذي لم يكُن مُرضِيًا للشَّاه، لأنه لم يكُن يُحِبُّه، لكن لم يكُن لديه حلّ سوى قَبُول رأي المَجلِس، وعلى خلاف رغبته فقد استدعى قوام وأمره بتشكيل الحُكُومة.

في الأيام 19 و20 و21 من يوليو1952، كانت طَهْرَان وبضع مدن أُخرَى في إيرانَ تشهد مظاهرات كبيرة يشوبها العنف، فقد اتّحد في حادثة استثنائيَّة أعضاء حزب "توده" الذين لم يَنسُوا انتصار قوام على ستالين، والمجموعة التي أرسلها آية الله الكاشاني إلى الشوارع حيث كان قد أفتى بقتل قوام، مع مناصري مصدّق الكثر، وكلّهم كانوا يطالبون باستقالة رئيس الوزراء الجديد.

أمر الشَّاه الجيش وقوات الأمن بعدم التدخُّل في المظاهرات وإهمال الأمن[1].

في الحادي والعشرين من يوليو قابل أحمد قوام الشَّاه وقدّم له استقالته، التي قبِلَها مباشرةً، وكانت إذاعة طَهْرَان نشرت خبر الاستقالة قبل تقديمها.

في الثَّاني والعشرين من يوليو تراجع المَجلِسان عن قرارهما السابق وأظهرا رغبتهما في تعيين مصدّق رئيسًا للحُكُومة، وقبِلُوا دون قيد أو شرط جميع شروطه التي كانوا قد رفضوها قبل أسبوع.

هل شارك رُوح الله الموسوي الخُمَيني في هذه المظاهرات الدموية؟

ليس لدينا أيّ رواية مباشرة بهذا الخصوص، لكن بالنظر إلى ما سيأتي من حوادث، فمشاركته في هذه المظاهرات أمر محتمَل، وكما يتساءل أحد المحلِّلين[2]: ألم يكُن هو أحد عملاء آية الله الكاشاني الذين أشعلوا هذه الأحداث؟

***

نهاوندي، سه رويداد وسه دولتمرد، نكاهى نو به يك دهه از تاريخ معاصر إيران، شركت كتاب، لوس أنجلوس، 2009. (المترجم).

(1) Mohammad Reza Pahlavi Responsc a l'Histoire, Albin Michel, Paris, 1979, P. 67.

(2) منهم: مهدي شمشيري، يستشهد في النّصّ المذكور برواية مظفر بقائي، الذي كان مرافقًا لمصدق، أن الخُمينيّ كان له دور أساسي في هذه الأحداث. صص80-68.

بعد هذه الأيام الحاسمة الثلاثة وبعد استقالة قوام الإجبارية، أصبح مصدّق يمتلك صلاحيَّات غير محدودة، لقد حصر حدود سُلْطة الشَّاه واحتمالات تدخُّله في أمور الدَّولة، مع حفاظه على تلك المراسم الظاهرية التي كان ملتزمًا بها، كما أجبر حسين علاء وزير البلاط الملكي، على تقديم استقالته، وعيَّن مكانه شخصًا آخر كان يعتقد أنه من المقرَّبين منه[1]، ثمّ أغلق مكاتب الأمراء والأميرات، وأجبر أشرف، شقيقة الشَّاه، التي كانت تُعتبر أساس كلّ المضايقات للحُكُومة، على ترك إيران، وأصبح الشَّاه مكلَّفًا بعدم استقبال أيّ شخصيَّة رسميَّة أجنبيَّة دون حضور أحد الوزراء.

كان رئيس الوزراء يحكم من خلال إصدار المراسيم القانونيَّة، وبقرار مشكوك في قانونيته، لكن موقَّع من الشَّاه. عُطِّل نشاط مَجلِس الشُّيُوخ[2]، كما عُلِّق عمل المحكمة العُلْيا، كما أقرَّ مصدّق نَصًّا آخر حول "الأمن القوميّ" يمنح الحُكُومة والأجهزة الإدارية صلاحيَّات استثنائيَّة، ويسمح لها بإحضار وحبس ونفي المعارضين السياسيّين، كما وقّع رئيس الوزراء على مرسوم قانوني يقيّد حرية الصِّحافة. أثار تعليق عمل جهاز القضاء والمحكمة العُلْيا وصلاحيَّات الحُكُومة بخصوص الأمن القوميّ وتقييد حرية الصِّحافة ضَجَّة كبيرة، وأصبح مصدّق، الذي كان حتى ذلك الوقت المدافع الأول عن الحقوق الأساسيَّة واحترام السُّلْطة القضائيَّة، مَحَطَّ هجوم مخالفيه الشديد.

وقع رئيس الحُكُومة أيضًا على عدد من المراسيم، كان يمكن لها أن تكون بداية ومقدّمة لإصلاحات اقتصاديَّة واجتماعيَّة مُهِمَّة، لكن في ظلّ الأزمة السِّياسِيَّة والاقتصاديَّة آنذاك، بالإضافة إلى انعدام الأمن في المدن والقرى، لم تكُن الحُكُومة قادرة على تنفيذها، وبقيت حِبْرًا على ورق.

كان يأس واستياء أكثريَّة الناس وكذلك اعتراضات المعارضين شاملة، كان مناصرو ومخالفو الحُكُومة يتضاربون في الشوارع والأزِقَّة، وكل يوم كان عدد القتلى والجرحى يزداد، كانت إيران كسفينة بلا قبطان.

---

(1) أبو القاسم أميني. (المترجم).

(2) وذلك من خلال تحديد دورة مجلس الشيوخ بسنتين بدلاً من أربع سنوات، وكانت بدورها قد شارفت على الانتهاء. (المترجم).

في ظلّ هذه الأجواء المتشنّجة، أجْبَر آية الله الكاشاني، الذي كان نائبًا عن مدينة طَهْرَان في مَجلِس الشُورَى ولم يكُن يحضر أغلب الجلسات، أجبر رئيس المَجلِس، الذي كان رجل دين معتدلًا وبعيدًا عن الخلافات السِّياسِيَّة، على الاستقالة[1]، وانتُخب الكاشاني خلفًا له بأكثريَّة نسبيَّة. لم يكُن الكاشاني يحضر إلى المَجلِس، فكان نُوّاب الرئيس يُدِيرون الجلسات، لكن رئاسة الهيئة التشريعيَّة منحته قدرة ونفوذًا سياسيًّا لا يستهان بهما، استخدمهما في الأسابيع والأشهُر التالية. كان سيد أبو القاسم يردِّد في كل مكان أن عودة مصدّق إلى الحُكُومة كانت بسببه، وقد كان هذا الأمر صحيحًا إلى حدّ ما، فقد كان لأتباعه تأثير كبير في إسقاط حُكُومة قوام. لكن الكاشاني كان يرغب في الحصول على امتيازات ماليَّة وسياسيَّة مكافأةً، وكان دائمًا ما يؤكِّد تطبيق "أحكام الشريعة" في المجتمَع.

كان مصدّق رجلًا نزيهًا، ولم يكُن يحتمل تدخُّل رجال الدِّين في شؤون السِّياسة، فكان جوابه لتوقُّعات سيد أبو القاسم الكاشاني سلبيًّا، ووقف في وجهها، ونتيجة لذلك تَحوَّل الكاشاني بأسلوبه الفَظّ وتهديداته وتجاوزاته إلى أسوأ وأخطر معارضي رئيس حُكُومة جبهة إيران الوطنيَّة.

كان للسيد أبو القاسم احتياجات ماليَّة كثيرة، ليغطِّي مستحَقَّات عملائه الماليَّة ويُشبِع مؤيِّديه، فقد كانت شهيتهم مفتوحة. لم يكُن مصدّق من أصحاب مثل هذه المبادلات، لكن مخالفيه كانوا يمتلكون قدرات ماليَّة لا يستهان بها، فوقع سيد أبو القاسم في قبضتهم. كان سيد أبو القاسم يسير في ركب الدوائر المقتدرة ماليًّا والمقرَّبة من البلاط، وكذلك الجماعات المقرَّبة من بريطانيا، وكان اللواء زاهدي، الذي أصبح قائد معارِضي مصدّق المطالب بخلافته، يسعى لضَمّ وتوحيد الجماعات المعارضة، ومنهم المنشقّون عن الجبهة الوطنيَّة الذين كان عددهم لا بأس به. كان زاهدي تحت مراقبة الأجهزة الأمنيَّة، ولم يكُن يريد أو يستطيع

---

(1) هو: آية الله الدكتور سيد حسن إمامي. (المترجم).

الدخول في مفاوضات علنيَّة مع آية الله. فكان ابنه أردشير زاهدي هو الرابط بينهما. وقد أشار بصراحة في مذكِّراته إلى حضور رُوح الله الموسوي الخُمَيني في جلسات المفاوضات مع آية الله سيد أبو القاسم الكاشاني[1]. كان الخُمَيني آنذاك من زمرة مقرَّبي وأصدقاء سيد أبو القاسم. وكان في جميع نشاطاته معارضًا لمصدّق ومؤيِّدًا للبلاط.

***

بالتزامن مع اشتداد الأزمة السِّياسِيَّة وتفاقُم المشكلات الاقتصاديَّة والاختلافات الداخليَّة. كان كثير من مؤيِّدي مصدّق. وربما هو ذاته. يعتقدون أن إنهاء "تحريض البلاط" هو الطريق الوحيد لعودة الاستقرار. لم يكُن لوحدة كلمة الشَّعْب بعد الأيام والأسابيع الأولى لأحداث العشرين من يوليو عام 1952 أي وجود. لكن القدرة السِّياسِيَّة والكلمة المؤثِّرة اللتين كان يملكهما مصدّق كانتا تمكِّنانه من إنهاء النِّظَام الملكيّ. وحرمان الملك من تاجه وعرشه. وإقرار النِّظَام الجمهوريّ.

ليفعل ذلك كان جَلْب دعم حزب "توده" ضروريًّا، لكنّ مصدّق، خلاصة القوميَّة والأرستقراطية الإيرانيَّة القديمة. لم يكُن جمهوريًّا، لم يكُن يحب الملك. أو لم يعُد يحبّ الملك. لكنه في نفس الوقت لم يكُن يحتمل حزب "توده" الشيوعيّ. ولم يكُن يرغب في أن يقع أسيرًا لديهم. فرأى أن يُبعِد الشَّاه والمِلِكة ثُرَيَّا عن إيران إلى حين عودة الاستقرار إليها، ويشكِّل، ممتثلًا للدستور. مَجلِسَ وصاية يحلّ مَحَلّ الشَّاه.

يبدو أنّ الشَّاه المتعَب اليائس أذعن لهذا الحلّ. واتفق مع رئيس وزرائه سِرًّا على أن يسافر الملك والمِلِكة برًّا عن طريق العراق، يرافقهما خلال السَّفَر أحد الوزراء إلى الحدود كنوع من الاحترام.

---

(1) أردشير زاهدي، خاطرات، الجزء الأول، آيبكس، واشنطن 2006، ص101.

في الساعات الأولى من صباح يوم 28 فبراير 1953 خرج رئيس الوزراء بلباسه الرَّسْميّ إلى القصر المَلَكِيّ الذي كان يبعد بضعة أقدام عن مكان إقامته، لوداع الشَّاه والمِلكة. كان الوزراء حضروا أيضًا بلباسهم الرَّسْميّ لتوديعهم، استُقبل الحضور وقُدّم لهم الشاي والحلوى. بدا كأن كلّ شيء كان طبيعيًا، لذا كانت مراعاة الرسوم والتقاليد أمرًا لا بُدّ منه.

على أثر الإشاعات التي انتشرت في المدينة لم تبقَ نية الشَّاه والملِكة تَرْك العاصمة سرّيةً، فحضرت هيئة برئاسة رئيس مَجلِس الشُّورَى آية الله الكاشاني إلى القصر، وطلب من الشَّاه بإلحاح أن يبقى في إيرانَ ويصرف النظر عن السفر. كان أحمد قوام، الذي عُزل وكان يعيش منزويًا كثيرَ الشكوى من الشَّاه، يحرّك شبكة من مؤيّديه وأصدقائه ليمنع سفر الشَّاه، الذي كان يعتبره أمرًا خطيرًا للدَّوْلة. حشَد بعضُ الأندية الرياضية الكُبْرَى ونوادي الضُبَّاط المتقاعدين أعضاءها وتَوَجَّهوا إلى الشوارع المحيطة بالقصر المَلَكِيّ. أُغلِقَت الأسواق، وبسرعة فائقة حاصرَت جموع غفيرة القصر المَلَكِيّ[1] مُحدِثة ضوضاء عالية، فلم يتمكن رئيس الوزراء وأعضاء حكومته الذين كانت الشِّعارات تُطلَق ضدّهم أيضًا مِن ترك المكان.

حضور جمع كبير من مؤيِدي آية الله الكاشاني، الذين كان يترأسهم رجل دين متحمس، وكذلك حضور آية الله مير سيد البهباني، الرُّوحاني صاحب التأثير الكبير في العاصمة، إلى القصر هو وجميع مؤيّديه الذين جاؤوا مشيًا على الأقدام، أضفى أُبَّهة وعظمة على المظاهرات. قابل آية الله البهباني الشَّاه شخصيًّا وطلب منه صرف النظر عن مغادرة البلاد.

في اليوم التالي كتبت صحف العاصمة أنّ أعداد المتظاهرين كانت بالآلاف، وبعد سنوات جاء في التواريخ والنُّصوص الرَّسْميَّة في العهد البهلوي أنّ أعداد المتظاهرين كانت مئات الآلاف[2]، لكن يبدو أن هذا الرقم

---

(1) القصر المعروف بـ«(اختصاصي» الكائن في شارع القصر، تقاطع سردرسنكي. (المترجم).

(2) تقويم "خمسينية الملكية البهلويّة"، الجزء الثاني، نشر سهيل، باريس، ص610.

مُبالَغ فيه، لكنّ المؤكّد أن جمعًا غفيرًا كانوا يحاصرون القصر المَلَكِيّ.

أُجبر محمد رضا شاه أن يتحدث إلى الجموع بمكبر الصوت من داخل القصر، وأن يقطع لهم وعدًا بعدم ترك إيران. لكنّ الجموع استمرّت في المظاهرات، وهاجمت مجموعات منهم منزل الدكتور مصدّق، لكن قوات الأمن فرّقتهم بالقُوّة، ومن أجل تهدئة الناس أُجبِرَت وزارة البلاط أن تبثّ بيانًا رَسْمِيًّا من خلال الإذاعة بشكل متكرِّر تفيد فيه بأنّ الملك والملِكة قد صرفا النظر عن السَّفَر إلى الخارج.

في الساعة الخامسة بعد الظهر أمسك رجل الدِّين الصاخب، الذي كان يقود مؤيِّدي آية الله الكاشاني، مكبِّر الصوت، وأخذ يتلو البيان الصادر عن آية الله رئيس المَجلِس، الذي يطلب فيه من الحشود أن يحترموا مكان إقامة الدكتور مصدّق، وأن يتفرقوا. في اليوم التالي وفي تحليلها لمظاهرات اليوم السابق، ذكرت صحف "طَهْرَان" اسم رجل الدِّين المتحمّس الذي كان يقود المتظاهرين والذي تلا بيان الكاشاني، لقد كان رُوح الله الموسوي الخُمَيني، آية الله القادم[1].

في أثناء هذا الهرج والمرج، أُجبِرَ مصدّق وأعضاء حكومته على الالتجاء إلى قصر مجاور للقصر المَلَكِيّ، ومغادرة المكان خُلسَةً هاربين من أحد أبوابه الجانبية، كان مصدّق يخاف حتى الرجوع إلى مكان إقامته، فتَوَجَّه صوب القيادة العامّة للجيش، ومكث فترة وجيزة هناك حتى عاد الهدوء الكامل إلى العاصمة ثانيةً.

تُعَدُّ حوادث ذلك اليوم نقطة تَحَوُّل في التَّارِيخ، فقد رفع مناهضو مصدّق رؤوسهم وأدركوا حجم قوّتهم، وأدّى آية الله الكاشاني دورًا مُهِمًّا في المظاهرات، وخرج الخُمَيني من المجهول لأول مرّة، وأصبح معروفًا في المحافل السِّياسِيَّة إذ قال: "لقد وجَّهنا صفعة إلى مصدّق، لأنه كان يريد

---

(1) انظر: أهم صحف طهران الصباحية في الأول من مارس عام 1953.

أن يصفع الإسلام"[1]. منذ تلك اللحظة أصبح الجميع في طَهْرَانَ يعرفونه كزعيم مؤثّر وخبير في إشعال المظاهرات وإدارتها، وأدرك الشّاه أيضًا أنّه "ليس وحيدًا، فقد كان كثير من الإيرانيِّين يؤيّدونه. لذا أصبح أكثر أملًا في المستقبَل"[2].

***

تُعدّ أحداث الثّامن والعشرين من فبراير نقطة تَحَوُّل في حياة آية الله الخُمَيني السِّياسِيَّة أيضًا، فقد أصبح منذ ذلك الزمن "شيئًا ما"، كان يتردَّد بانتظام بين قم وطَهْرَان، لكنه كان أغلب أوقاته يسكن قم إلى أن سقط مصدَّق، ومنذ ذلك الوقت أصبح بالإمكان مشاهدة الحديث عن الشؤون السِّياسِيَّة والحُكُوميَّة ودَوْر الإسلام في القيادة في دروسه وكتاباته. مع هذا لم يحصل على تأثير وأهَمِّيَّة كبيرَيْن، وبقي تقريبًا على الهامش. بخاصَّة بعد سقوط مصدَّق وقدوم الجنرال زاهدي الذي كان كسلفه لا يتحمَّل تدخُّل رجال الدِّين في شؤون السِّياسة والدَّولة. فأنهى توقُّعات آية الله الكاشاني ومؤيِّديه. ومنهم الخُمَيني، وأخمد تلك الجَلَبة التي كانوا قد أثاروها.

لقد حازت شهادة مظفَّر بقائي حول الدور المهمّ الذي لعبه رُوح الله الموسوي الخُمَيني في هذه الأحداث، أهَمِّيَّة خاصَّة، إذ لا تدَع مجالًا للشك، فقد كان بقائي يعرف الخُمَيني جيدًا[3].

بعد انتصار الثَّورة الإسلاميّة جرَت محاولات لطمس هذه المرحلة من

---

(1) نقلاً عن السيدة هما ناطق، المؤرِّخة المعروفة التي كانت من مناصري آية الله الخُمينيّ بعد الثَّوْرة ثمّ انصرفت عنه. انظر: Christian Delannoy et Jean Pierre Pichard, Khomeyni la Revolution Trahie. Of cit. P. 71.

(2) Memoires De l'Imperatrice Soraya, Le Palaais des solitudes, editions No.1, Michel Lafon, Paris, 1991, 1991m P.142.

(3) وردت أقوال مظفَّر بقائي حول هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب مهدي شمشيري، وقد كان مهدي شمشيري من مؤيدي مظفر بقائي ومن المقرَّبين منه.

حياة آية الله الخُمَيني ونشاطه السياسيّ، لأنها كانت تخالف سيرة حياته المختلَقة. واليوم لا يُسمح لأحد في إيرانَ بأن يتحدث عنها. فهل بين عمَليَّة الطمس هذه وموت مظفَّر بقائي الذي سُجن بعيد الثَّورة وقُتل تحت التعذيب علاقة؟[1] لا يمكن تجاهل هذا الخيار. فلم يكُن بقائي كاتمًا للأسرار، سواء كانت تخصّ الخُمَيني أو الآخَرين.

***

بعد موت آية الله العُظْمَى البروجردي في مارس عام 1961، قرَّر الخُمَيني الذي لم يكُن لُقِّب بَعدُ بـ"آية الله"، أن يجد محلًّا من الإعراب وأن يصنع لنفسه اسمًا ومكانة.

---

(1) حول حياة ونهاية مظفر بقائي انظر: L' Express, 11 noveubue 1987.

الفصل الثالث

بداية المواجهة مع الحُكُومة

كانت حادثة الثَّامن والعشرين من فبراير عام 1953 نقطة تحول في حياة آية الله الخُمَيني، فقد لعب "دورًا" في ذلك اليوم. وعلى الرغم من أنه لم يكُن دورًا أساسيًّا وفاصلًا، فإن اسمه ذُكر للمرة الأولى في الصحف. وفي الحقيقة كان قد خرج من المجهول، وكان البعض في قم يناديه بـ"حُجَّة الإسلام"[1].

لا يوجد أي شك أو تَرَدُّد في أن رُوح الله الموسوي الخُمَيني قد شارك في مظاهرات الثَّامن والعشرين من فبراير، وأنه أحد لاعبي الحركات السِّياسِيَّة لإسقاط مصدَّق ووصول الجنرال زاهدي إلى السُّلْطة؛ يبدو أن الوثائق الموجودة في هذا المجال لا يمكن إنكارها.

في الأشهُر التي تلت عزل مصدَّق ووصول الجنرال زاهدي إلى السُّلْطة، قبض بعض مؤيِّدي آية الله الكاشاني الثمن، فمنهم من وصل إلى مَجلِس الشُّورَى، ومنهم من وصل إلى مقامات رفيعة ومنهم من حصل على أراضٍ وامتيازات ماليَّة، لكن الخُمَيني لم ينَل شيئًا من ذلك. وفي أحد النُّصُوص، الرَّسْميَّة تقريبًا، التي انتشرت بعد الثَّورة الإسلاميَّة، أُشيرَ بوضوح إلى المرارة التي تَجرَّعها وإلى استيائه

---

(1) وهو لقب أهمّ من «آية الله»، لم تكُن هذه الألقاب البرّاقة دارجة في إيرانَ في بدايات القرن العشرين، ولكن بعد ذلك اتّخذت صبغة رسمية، لم يكُن لإطلاق هذه الألقاب ضوابط، ومنذ ذلك الوقت أصبح لقب «آية الله العظمى» يُطلَق على مراجع التقليد، وبعد استقرار الجمهورية الإسلاميّة في إيرانَ أصبحت الجهات الرسمية والحكومية تمنح هذه الألقاب هنا وهناك دون ضوابط، لهذا فإن كان لها أهَمِّيَة، فقد فقدَتها في تلك المرحلة.

من ذلك الوضع[1].كانت حسرته كبيرة لدرجة أنه لم يخرج من منزله لبضعة أيام، وكان يستقبل بعض طلبة العلم بشكل استثنائيّ، وكان يدرّسهم في بيته، وكان يذهب مرة واحدة في الأسبوع، الخميس ليلًا، لزيارة مقام المعصومة شقيقة الإمام الرضا، كان يشتكي من أنّ آراءه واقتراحاته (التي لم يكُن يعلم بها أحد) لا تلاقي اهتمامًا من آية الله العُظمَى البروجردي، "كان قد اختار السكوت، حزينًا مكسور الخاطر"[2]. لاشكّ أنه كان له طموح، لكن حضور آية الله العُظمَى البروجردي في قم، قائد الشّيعَة الأساسي، الذي كان رجلًا حذرًا ووطنيًا، كان يقف حائلًا دون رجال الدِّين المتشددين، كان البروجردي هو الأوْلى بالتحدُّث في الشؤون السّياسِيَّة للدَّولة باسم المؤسَّسة الدِّينِيَّة، وحده دون سواه، لذا كان لا بدّ للخُمَيني من السكوت والانتظار.

كما أنّ آية الله الكاشاني مرشد وحامي الخُمَيني الأول، بعد مدة قصيرة من استعراض القُوَّة واستغلال أو سوء استغلال القُدُرَات السّياسِيَّة والماليَّة التي كان قد حصل عليها بعد سقوط مصدَّق، أُبعِد مِن طَهْرَان بأمر من الجنرال زاهدي ونُسِيَ بالتدريج، ولم يجد الخُمَيني بعدها ميدانًا لاستعراض قدراته، فقلّ تَرَدُّده على طَهْرَان. كان بيته في حيّ بامنار في طَهْرَانَ شِبهَ خالٍ[3]. ولم يكُن يؤمُّه أحد.

في الثلاثين من مارس عام 1961 غيَّرَت وفاة آية الله العُظمَى البروجردي الأوضاع، وبعد ذلك بعام، أي في الثالث عشر من مارس عام 1962، مات آية الله الكاشاني.

بعد وفاة آية الله العُظمَى ظهر جدل حول من سيحلّ محلّه في أواسط العلماء الأعلام، كان لقب "العُظمَى" يستحقّه من له أتباع كثر يقلدونه، أو من يستطيع جمع أكبر قدر من أموال الزكاة والنذور وغيرها من الناس، بعبارة أُخرَى من كان يملك قدرات ماليَّة أكثر.

---

(1) زندكنامه آية الله عظمي بروجردى، الطبعة الثانية، طهران، نشر مطهّر، 1371 (1992-1991) صص313-314.

(2) المرجع السابق.

(3) يعود هذا المنزل إلى زوجة الخُمينيّ، فقد كان جزءًا من مَهرِها.

في النَّجف كان آية الله الحاج محسن الحكيم هو الأبرز، وسرعان ما أصبح أهمّ مراجع التقليد، هو الآخر بدوره كان رجلًا حذِرًا ومعتدلًا.

في قم كان ثلاثة من آيات الله في المقام الأول: الكلبايكاني، والنّجفي، والشريعت مداري، وكان رجال الدِّين من الدرجة الثَّانية وطلاب العلم الشرعيّ والشخصيَّات المحلِّيَّة وشخصيَّات الدَّولة يأتون لزيارتهم، ويجلسون منتظرين.

كتب الشيخ حسين علي منتظري، الذي كان من أصدقاء الخُمَيني، ولُقّب بعد انتصار الثَّورة بـ"آية الله" و"آية الله العُظْمَى" و"الفقيه عالي القدر"، وجاء في مذكِّراته[1] أنه عندما ذهب للتحدُّث مع الخُمَيني حول نيابة البروجردي كان منزله خاليًا، وكان الخُمَيني يشعر بالمرارة والاستياء.

في النّهاية حلّ الشَّاه ومعاونوه، أي الحُكُومة والبلاط، المسألةَ، وأرسلوا برقيَّات تعزية رسميَّة إلى آيات الله الثلاثة في قم وآية الله الحاج أحمد خوانساري في طَهْرَانَ، وكذلك آية الله محسن الحكيم في النَّجف. لقد خاطبهم علنًا ملك الدَّولة الشِّيعيَّة الوحيدة في العالَم، لذا أصبحوا يُعَدُّون مرجعًا للتقليد وحصلوا جميعًا على لقب آية الله العُظْمَى، وبقي الخُمَيني، الذي ربما كانت لديه بعض التوقُّعات والأوهام، محرومًا.

في خِضَمِّ أحداث أغسطس 1953، سمح آية الله العُظْمَى البروجردي لتُجَّار السُّوق في طَهْرَانَ بأن يغلقوا متاجرهم، وأن ينزلوا إلى الشوارع دعمًا للجنرال زاهدي. كان ظهورهم على الساحة سببًا في ترجيح الكفَّة لصالح الجنرال زاهدي، مِمَّا أجبر مصدَّق على التراجع والتخلِّي عن السُّلْطة. كان محمد رضا شاه خرج من إيران قبل هذه الحادثة بثلاثة أيام، وكان مَدِينًا في رجوعه إلى السُّلْطة لشخصين: في المقام الأول الجنرال زاهدي الذي تَجَرَّأ على التدخُّل في هذه القضيَّة حين باءت المحاولات الأولى لعزل مصدَّق بالفشل وتَمكَّن مؤيِّدو مصدَّق من السيطرة على الأمور، وفي المقام الثَّاني آية الله العُظْمَى البروجردي الذي أضفى بعدًا شعبيًّا على هذه العمَليَّة بدعمه زاهدي.

---

(1) شركت كتاب، لوس أنجلوس، ص92.

بعد أن استعاد الشّاه تاجه وعرشه، أجبر الجنرال زاهدي (الذي كان يتمتّع كرئيس للوزراء بحماية المَجلِسَين المؤكّدة، وكان يحكم باقتدار) على تقديم استقالته والخروج من إيران. لكنّ الشّاه والبلاط كانوا مُجبَرين على التشاور في شؤون الدّولة المُهِمّة مع البروجردي والوصول معه إلى حل وسط، ما دام على قيد الحياة. كان محمد رضا البهلوي يبحث عن مزيد من السُلْطة، ولم يكُن يرغب في أن يكون نِدًّا لقائد دينيّ قويّ. لقد كان تعدد المرجعيات والقيادات الدِّينيّة يصبّ في مصلحته، وبعد وفاة آية الله البروجردي نال ما كان يصبو إليه.

كان رُوح الله الخُمَيني، الذي لم يكُن قد حصل حتى على لقب "آية الله"، مستاءً من أن أحدًا لم يشركه في اللُعْبة السِّياسِيّة، وأنّه لم يُحسَب له أيُّ حساب.

***

مرّ أقلُّ من عام على موت آية الله العُظمَى البروجردي، والتحق به الكاشاني الذي كان رجلًا انتهازيًا ومثيرًا للفَوْضَى والقلاقل، كان يريد أن يحصل على السُلْطة، وعندما كان يرى أن الحُكُومة ضعيفة ومطاوعة، كان يستمر في التدخُّل في شؤون الدّولة ويسيء استخدام تأثيره وألقابه، لكن لم يكُن قوام ومِن بعده مصدِّق والجنرال زاهدي من جنس الكاشاني، ولم يكونوا ممَّن يمكن تطويعهم.

أُجبِرَ الكاشاني على الخروج من اللُعْبة، وظنّ الخُمَيني أن موت الكاشاني فتح له ولأطماعه التي لا نهاية لها، الباب على مصراعيه، فولج ميدان السِّياسة، وفي الحقيقة كان يريد أن يأخذ مكان الكاشاني في الساحة السِّياسِيّة.

في السابع عشر من أكتوبر لعام 1962 أقرّت الحُكُومة، برئاسة أمير أسد الله، لائحة لإجراء انتخابات جمعيّات المحافظات، كان تشكيل هذه الجمعيّات منصوصًا عليه في مقدّمة دستور سنة 1906، ولم يكُن مشكلة في حد ذاته، لكن في قرار حُكُومة أسد الله، أضيف بندان ثوريّان: الأول أن لكلّ إيرانيّ الحقّ في التصويت أو الترشُّح، وهذا بطبيعة الحال يشمل النِّسَاء، والثّاني أن المنتخَبين يحقّ لهم القَسَم على الكتب المقدَّسة كلٌّ حسب ديانته، وليسوا مُلزَمين بالقسم على القرآن، الذي لم يكُن الكتاب المقدّس للمسيحيين واليَهُود والزرادشتيين.

لم يحتمل كثيرون في قم هذا الإجراء، فوصلت رسالة اعتراض موقَّعة باسم بعض رجال الدين، وكان رُوح الله الموسوي الخُمَيني من بينهم. أرسل المحتجُّون البرقيَّات والرسائل إلى الشاه معترضين على هذه "البدع" المخالفة للشرع.

كتب رُوح الله الموسوي الخُمَيني في برقيته إلى محمد رضا شاه[1]:

"حضرة صاحب الجلالة، طَهْرَان

بعد التحية والدعاء، كما ورد في الصحف، فقد أغفلَت الحُكُومة شرط الإسلام للمقترعين والمرشَّحين لجمعيَّات المحافظات، كما أنهم أعطوا المرأة الحقّ في التصويت، الأمر الذي أثار قلق العلماء وسائر المسلمين، أرجو التفضل بتوجيه الأوامر بحذف مثل هذه البنود من خُطَط الحُكُومة والأحزاب، ليستوجب ذلك مباركة أُمَّة الإسلام.

قم، الداعي لكم، رُوح الله الموسوي الخُمَيني".

ردّ الشَّاه على جميع الرسائل الواردة بهذا الخصوص بجواب واحد:

"إنني أسعى أكثر من أي شخص آخر للحفاظ على شعائر الدين، هذه البرقية موجَّهة أيضًا إلى الحُكُومة، وإنني أجلب انتباه حضرتكم لتغيُّرات الزمان وكذلك وضع سائر شعوب العالَم، أرجو لكم التوفيق في نشر أحكام الشريعة وهداية عوام الناس.

15 أكتوبر 1962/ الملك".

بعد مدة، تراجعت الحُكُومة عن قرارها وأرسلت برقيَّات إلى العلماء في قم تخبرهم فيها بعُدُولها عن قرارها السابق، وكان رُوح الله الموسوي الخُمَيني أحد مخاطَبي هذه البرقيَّات[2].

---

(1) نَصّ هذه الرسالة، وجميع الرسائل المشابهة التي طُبعت في جميع صحف طهران آنذاك، وأيضًا طُبعت في الوثائق التي نُشرت بعد الثَّورة الإسلاميَّة في مطابع النِّظَام، في متناول اليد ويمكن الحصول عليها.

(2) كان مهدي بيراسته الذي كان في ذلك الوقت وزيرًا للداخلية، يشير في كتابه بأسف (مرجع سابق، ص395) إلى أن إدراج اسم الخُمينيّ ضمن لائحة مخاطبي هذه الرسالة كانت فكرته.

كان القرار الذي اتخذته الحُكُومة بالتراجع على الرغم من المظاهرات الحاشدة التي نظّمها مؤيِّدو قرار جمعيَّات المحافظات، خطأً سياسيًّا فادحًا، دفعت ثمنه غاليًا.

ورود اسم الخُمَيني في قائمة مُخاطَبي برقيَّات رئيس الوزراء منح رجل الدين، المجهول تقريبًا، أهَمِّيَّة كان يفتقر إليها، واستغلّها في ما بعد هو ومؤيِّدوه ومعارضو النِّظَام السياسيّ في الداخل والخارج آنذاك[1].

كانت هذه الحادثة تبدو غير مُهِمَّة بالنظر إلى طبيعة العَلَاقات المعقَّدة والمتقلبة بين القادة السياسيِّين ومجتمَع رجال الدين، لكنها منحت رُوح الله الموسوي الخُمَيني أهَمِّيَّة كان يفتقر إليها، فقد بدأ يظنّ منذ ذلك الوقت، هو أو من كانوا يُسيِّرونه، أنه قد أصبح شيئًا، وأنه يستطيع أن يلعب دورًا سياسيًّا مُهِمًّا.

لم تكُن الحُكُومة المركزية، ولا الشّاه ولا أسَد الله عَلَم رئيس الوزراء ولا أعضاء حكومته ولا جزء كبير من رجال الدَّولة البارزين ولا الجمعيَّات النسائية البارزة ولا الجماعات المتنوِّرة، ترغب في أن يبقى القرار الثَّوريّ بإعطاء الحقّ للنساء في الترشُّح والتصويت وكذلك إعلان المساواة بين الأديان الرئيسية في إيران[2] مُغفَلًا، وكانوا يعتبرونه إصلاحًا أساسيًّا وضروريًّا للتقدُّم والحداثة الوطنيَّة.

تطبيق برنامج الإصلاح الزراعي، الذي كان قد بدأ قبل هذه الأحداث بعامين[3]،

---

(1) لا يبدو أن ادّعاء مهدي بيراسته المبنيّ على أنه أورد اسم الخُمينيّ في قائمة مخاطبي الحكومة، غير صحيح، من المحتمَل أنه أراد أن يقدِّم خدمة لابن مدينته الذي كانت له علاقات قريبة مع عائلته، ويجعله مَدينًا له.

(2) لم تكُن البهائية التي كان يعدّها العلماء الأعلام والمراجع الدينية «فرقة ضالَّة" مشمولة بهذا القرار، وفي الأساس لم يُؤتَ على ذِكْر اسمها. (المترجم).

(3) أقِرّت إجراءات منح الأراضي وزيادة حصة المزارعين (الرعايا) قبل ذلك بسنوات في عهد حكومة قوام السَّلْطنة، ثمّ في الأشهر الأخيرة من حكومة مصدِّق، لكن نسبة تنفيذ هذه القرارات كانت ضئيلة، أول قانون «للإصلاح الزراعي» وتغيير «نظام المالك والرعية: العبودية» أقرّه المجلسان في زمن حكومة الدكتور إقبال، لكنه كان معقَّدًا، وكان يبدو أن من الصعب تطبيقه في زمن حكومة الدكتور أميني ومن ثم أسد الله علم (اللذين كانا من معارضي المُلّاك/الإقطاعيين)، وبالاستفادة من القرارات القانونية سُرِّع تطبيق هذا البرنامج وأصبح يُعَدّ «ثورة في الإصلاح الزراعي» في إيران. (المترجم).

وانهيار نظام "الإقطاعيّين" وظهور الطبقة الجديدة لصغار المالكين المتحمّسين الذين كانوا بالأمس من "الرعايا"، غيّر الوجه الريفيّ لإيران. كانت هذه الطبقة الجديدة مؤيّدة للشّاه، لكنّ هذه الإصلاحات الزراعيّة أوجدت له أعداءً أقوياء هم كبار الإقطاعيّين ورؤساء العشائر ورجال الدِّين الذين كان بعضهم يُعَدّ من كبار المالكين -كان الخُمَيني وإخوته منهم- أو كانوا يحصلون على دخل عالٍ نتيجة استغلال أموال وأراضي الوقف. كانت هذه الجماعات تفقد مصادر دخلها المهمّة بالإضافة إلى قدرتها وتأثيرها السياسيّ.

في هذه البُرْهة من الزمان، خرج الشّاه سالمًا من نزاع طالت مُدّته مع القادة السياسيّين في أمريكا. فلم يكُن رأي الرئيس كينيدي ومعاونيه، بخاصّة أخوه روبرت كينيدي وزير العدل، إيجابيًّا تجاه الشّاه، وعلى الرغم من انتقادهم العلني لخشونة وتطرُّف "السافاك" (جهاز استخبارات وأمن الدّولة) في إيران، إلا أنهم في السِّرّ كانوا يشجِّعون مشروع انقلاب يطيح بالشّاه، ينفِّذه الجنرال تيمور بختيار رئيس جهاز "السافاك" صاحب القدرة والتأثير. لكن الشّاه عرف بشأن هذه المباحثات، فعَزَل تيمور، المكروه من الناس، وأبعد الدكتور أميني الذي كان يعتقد بقربه من الأمْريكيّين.

حسَبَ ما لدينا من روايات، كان الشّاه في هذه المرحلة يمرّ بحالة من التوتُّر. وكان يريد أن يدبّر حركةً استعراضيةً و"تاريخيّة" ويُخرج نفسه وبلده من "المأزق" السياسيّ الذي كان يعتقد أنه يمرّ به[1].

---

(1) في أثناء هذه الحوادث كنت (أنا مؤلّف الكتاب) نائب رئيس الوفد الإيراني في الاتحاد الأوروبي في بروكسل، ولا أستطيع ذِكْر شهادتي الشخصية، لكن كلّ من كان شاهدًا على هذه الأحداث يؤيد هذا الأمر، ومنهم: أمير أسد الله علم رئيس الوزراء آنذاك، وحسن علي منصور نائبه الإصلاحي الذي قتله الإسلاميون المتشددون، والدكتور باهري نائب رئيس الوزراء، ولاحقًا وزير العدل، والدكتور محمد نصيري أحد المقرّبين من مصدّق، الذي أصبح لاحقًا مستشارًا للدولة واستدعاه الشاه إحدى المرات وتشاور معه.

كان الشّاه ينوي أن يفاجئ الجميع، وعلى رأسهم واشنطن ورجال السّياسة الأمريكيُّون، وأيضًا معارضوه السياسيُّون، بخاصّة المقرَّبون من مصدَّق الذين كانوا يتحدثون دائمًا عن ضرورة الإصلاحات السّياسِيَّة والاجتماعيَّة وينتقدون سياسته المحافظة، وفي النّهاية الجناح المتشدد والسطحي للمؤسَّسة الدِّينيَّة، الذين كان يشير إليهم بـ"الرجعية السوداء"، ويضعهم أمام الأمر الواقع، ويثبت مدى شعبيته.

في التاسع من يوليو عام 1963، أعلن أمام المشاركين في المؤتمَر الوطنيّ للشركات التعاونيَّة الريفيَّة، بأنه سيُقدِم على إيجاد تحوُّل أساسيّ في البناء الاقتصاديّ والاجتماعيّ للدَّوْلة، يكون أساسه مشاركة الجميع في شؤون الدَّولة والتعاون والاستقرار التدريجيّ للديمقراطيَّة وتأسيس مجتمَع مبنيّ على العدل والأُخُوَّة، وأضاف أنه يريد للمجتمَع الإيرانيّ الحديث أن يكون قائمًا على أساس المعتقَدات القوميَّة الإيرانيَّة العريقة، التي تؤدِّي في النّهاية إلى توسعة الثقافة القوميَّة، لا على أساس الأيديولوجيات المستوردة[1]. بعدها نوّه الشّاه بأنه قدَّم هذا البرنامج آخذًا بعين الاعتبار الأولويَّات القوميَّة والوطنيَّة، قاصدًا تسوية مسائل الدَّولة الحقيقيَّة والحياتيَّة[2].

كانت أهمّ أسس هذه الإصلاحات الأساسيَّة التي سُمِّيَت في ما بعد "ثورة الشّاه والشَّعب" و"الثَّورة البيضاء"، هي إلغاء النِّظَام الإقطاعيّ وتقسيم أراضي الإقطاعيِّين بين الرعايا الذين كانوا يزرعونها، وتأميم الغابات الطبيعيَّة والمراعي ومصادر المياه، والمساواة الكاملة بين النِّسَاء والرجال في جميع الشؤون السّياسِيَّة والاجتماعيَّة، وإنشاء فرق للمعرفة والصِّحَّة والعمران بهدف المساعدة في إعمار القرى وإيجاد التغيير السريع في حياة القرويين، ومشاركة العُمَّال في أرباح المنشآت الصناعيَّة، وإنشاء "بيوت العدالة" في القرى و"هيئات المحلَّفين" في المدن بحيث يكون أعضاء كلتا المؤسَّستين بالانتخاب لا بالتعيين[3]

---

(1) منقول عن خطاب الشاه أمام المؤتمر، 9 يوليو1963.

(2) منقول عن: M.P. PAHLAVI, Reponse a l'Histoire, Albin Michel, Paris, 1979, P92.

(3) نُشرت مقالات وكتب عدَّة بكلّ اللغات المهمَّة حول الثَّورة البيضاء، بخاصَّة برنامج الإصلاح

في مساء يوم الثّاني عشر من يوليو جلس محمد رضا شاه إلى طاولة العشاء إلى جانب 4800 من المشاركين في المؤتمر، الذين كان أكثرهم من القرويّين البسطاء ممّن كانت أقدامهم تطأ أرض طَهْرَان لأول مرة. كان هذا العشاء الجماعي حدثًا استثنائيًا و"ثوريًا". في نهاية العشاء قال الشّاه للحاضرين بنبرة تجيش بالأحاسيس والمشاعر: "لقد استطاع مَلِكُكم الذي ينبض قلبه من أجلكم، بسبب دعمكم وصدقكم، أن يقول إن الدّولة لجميع الشّعب الإيرانيّ، ولا تخصّ طبقة أو فردًا بذاته، إنها للجميع، ولأنكم تشكّلون خمسة وسبعين في المئة من هذه الدّولة، فخمسة وسبعون في المئة منها ملك لكم"[1].

كان لا بدّ من إضفاء الصبغة القانونيّة والرّسْميّة على هذه الإجراءات، وبناءً على طلب من الدكتور أميني الذي سبق أمير أسَد الله عَلَم في رئاسة الحُكُومة، فحَلّ الشّاه المَجلِسين بما يملكه من صلاحيّات، وكانت الحُكُومات بعد ذلك تدير الدّولة مستخدمة "المراسيم القانونيّة". وما لم يكُن يمكن تَصَوُّره هو إمكانية استخدام مثل هذه المراسيم من أجل تطبيق قرارات من هذا المستوى.

نتيجةً لذلك قرّر الملك والحُكُومة إجراء استفتاء حول "ثورة الشّاه والشّعب". لم يأتِ دستور عام 1906 على أي ذكر لـ(الاستفتاء"، لكنه كان يشير بصراحة إلى مبدأ السيادة الوطنيّة[2]. لذا لم يكُن من استفتاء المصدر الرئيسي للسيادة الوطنيّة مانع.

تمّ الاستفتاء في السابع والعشرين من يوليو عام 1963، وتمّ إقرار أسُس الثّورة البيضاء بعد حصوله على 5598711 صوتًا مؤيّدًا مقابل 4115 صوتًا معارضًا، والمؤكّد أن الاستفتاء كان يجري تحت إشراف ومراقبة، ولا شكّ أنّ

الزراعي. أدرِجَت مقتطفات من هذه المصادر باللغات الفارسية والإنجليزية والفرنسية في كتاب «Iran, le choc Des Ambitions, Aquilion" صص324-291، الترجمة الإنجليزية: نفس الناشر 2007. أدرجت مشخّصات هذه الكتب والمقالات وفهرست المنابع والمآخذ في مُلحَقات الكتاب.

(1) من خطاب الشاه في ختام مؤتمر الشركات التعاونية الريفية، 12 يوليو 1963.

(2) الدستور الذي نتج عن الثّورة الإسلاميّة ألغى مبدأ السيادة الوطنية، واستبدل به «ولاية الفقيه».

الحماس الذي لا يمكن وصفه من القرويين الذين كانوا يشكّلون الأغلبيّة في إيران، وكذلك النِّسَاء اللاتي كُنّ سيتمتَّعن بحقوق سياسيَّة واجتماعيَّة كالرجال، أضفى على هذا الاستفتاء بعدًا صادقًا وواقعيًا. كانت الأصوات تزيد أو تنقص عن الرقم المذكور، لكن في النِّهاية كانت الأغلبيَّة تؤيِّد أُسُس الثَّورة البيضاء، وقد أيَّد هذا الأمرَ مراسلو جميع الصحف الأجنبيَّة الذين جاؤوا إلى إيران لتغطية هذا التحوُّل الأساسيّ.

***

ما إن أعلنت الحُكُومة نتيجة الاستفتاء الذي أجراه الشَّعْب، حتى أصدر رُوح الله الموسوي الخُمَيني، الذي كان لا يزال يُلَقَّب بـ"حُجَّة الإسلام" ولم يكُن يُعَدّ مرجعيَّة، أصدر فتوى اعتبر فيها أن هذا الاستفتاء مخالف لـ"الشرع المنير":

"الاستفتاء مخالف لرأي المجتمَع الدينيّ وللأغلبيَّة الساحقة في الأُمَّة... لا يساوي الاستفتاء شيئًا أمام الإسلام... لم يُذكَر أيّ شيء عن الاستفتاء في قوانين إيران، ولم يكُن له سابقة سوى مرة واحدة، وقد أعلنت السُّلُطات أنها غير قانونيَّة، وسُجِنَ بعض المشاركين فيها وبعضهم حُرم من حقوقه الاجتماعيَّة(1)... يجب أن يكون المقترعون على قدر من الفهم ليعرفوا ما الذي صوَّتوا له، لذا لا يحقّ للأكثريَّة التصويت، والمسموح لهم بالتصويت على البنود الستة هم بعض ساكني المحافظات ممَّن يملكون القدرة على التمييز، وهم من المؤكَّد من المخالفين... لقد أُغرِيَ أكثر الناس... إن كانوا ينوون تنفيذ عمل من أجلنا نحن الشَّعْب، فلماذا لم يعودوا إلى المشروع الدينيّ والخبراء الدينيين؟ لقد خَدعوا جلالة الملك..."(2).

بعد الإعلان عن هذه الفتوى وجد المخالفون المبعثَرون وغير المنظَّمين

(1) يشير بذلك إلى الاستفتاء في زمن حكومة مصدِّق، حين كان الخُمينيّ من مخالفيه تبعًا لسيد أبو القاسم الكاشاني. (المترجم).

(2) ورد النَّصّ الكامل للفتوى في كتاب الدهنوي، مرجع سابق ص24، وأيضًا في كتاب سياوش بشيري، توفان در 57، مصدر سابق، صص77-74.

للإصلاحات الزراعيَّة ومساواة المرأة بالرجل، ناطقًا سليط اللسان، وعلى ما يبدو شجاعًا، شخصًا تجرَّأ على معارضة الشَّاه والحُكُومة وأغلبيَّة الشَّعْب الإيرانيّ.

***

بعد بُرْهة من الزمن، في الثالث عشر من مارس عام 1963، أقَرَّ مَجلِس الوزراء نظامًا جديدًا لانتخاب المَجلِسَين والهيئات الأُخرى المنتخَبة، وسمحوا فيه للمرأة (التي أصبحت تُعَدّ مع الشَّعْب الإيرانيّ) بالتصويت والترشُّح للانتخابات، مستندين في ذلك إلى مقدِّمة دستور عام 1906، التي تنصّ على مشاركة الإيرانيّين في إدارة جميع شؤون الدَّولة[1]، وكذلك المبدأ الثَّاني[2] من نفس الدستور الذي ينصّ على أن الهيئة التشريعيَّة تنوب عن جميع الشَّعْب الإيرانيّ، وبذلك يشارك الجميع في إدارة الشؤون السِّياسِيَّة والاجتماعيَّة لوطنهم من خلال نُوَّابهم المنتخَبين.

بعد اثني عشر يومًا، أصدر رُوح الله الموسوي الخُمَيني فتوى أُخرى:

"النِّظَام الحاكم في إيرانَ تَعَدَّى على أحكام الشريعة المقدَّسة، وينوي التعدِّي على أحكام القرآن المقدَّسة، إن أعراض المسلمين على وشك أن تُهتَك، إن النِّظَام الخشن بإقراره قانونًا مخالفًا للشريعة والدستور، يريد أن يفضح النِّسَاء العفيفات وأن يُشعِر الشَّعْب الإيرانيّ بالخزي، إن النِّظَام الخشن ينوي أن يُقِرَّ المساواة بين المرأة والرّجل، أي يريد أن يضع أحكام الإسلام والقرآن الأساسيَّة تحت قدمه، أي يريد أن يرسل الفتيات في سِنّ الثَّامنة عشرة للخدمة العسكريَّة، يريد أن يسوق فتيات المسلمين العفيفات بالقُوَّة إلى أوكار الفاحشة، إن هدف الأجانب هو القرآن ورجال الدين".

وفي اليوم التالي أعلن الخُمَيني في فتوى أُخرى، "الحداد العامّ، ومنع إقامة مراسم عيد النيروز"، لكن أحدًا لم يُولِ أيَّ اهتمام للحداد العامّ ولا لمنع إقامة مراسم عيد النيروز. كتب الخُمَيني في فتواه:

---

(1) منصوص على أن «لكل فرد الحق في المشاركة في الإشراف والرقابة العامة».

(2) "مجلس الشورى هو النائب لجميع أفراد الشعب الإيراني الذين يحقّ لهم المشاركة في جميع الشؤون الاجتماعية والسياسيّة لوطنهم».

"النِّظَام الحاكم يسعى جاهدًا لهدم أحكام الإسلام الأساسيَّة، وتطبيق تلك البنود التي تهدِّد الإسلام، لذا أُعلِنُ أن النيروز حداد، وأقدّم تعازيّ لإمام الزمان عجَّل الله تعالى فرَجَه، وأحذِّر الناس من الخطر الداهم".

لقد كانت هذه الفتاوى هي نقطة البداية للمعارضة العلنيَّة لحُجَّة الإسلام رُوح الله الموسوي الخُمَيني للنِّظام السياسيّ للدَّوْلة. وأخيرًا أكسبته بعض الشهرة، وقارنه كثيرون بعد ذلك بآية الله الكاشاني، ولم تكُن مقارنة في غير مكانها.

يبدو أن الخُمَيني في هذه المرحلة استرعى انتباه بعض أجهزة المخابرات والتجسُّس الأجنبيَّة. فقد رأوا فيه شخصيَّة يمكن استغلالها سياسيًّا.

إزاء هذه البيانات والفتاوى أرسل الخُمَيني رسائل إلى الآيات العظام في النَّجف وقم يطلب منهم المساعدة في مقاومة هتك حرمات الإسلام والتعدِّي على أحكام القرآن، لكنه لم يحصل على جواب بالإيجاب، وعلى الرغم من ذلك فقد أحدث في قم ضجة كُبْرَى، ففي كل يوم كان يأتي آلاف الزُّوَّار إلى هناك، وانعكست هذه الضَّجَّة بطبيعة الحال في إيرانَ كلّها، صعد الخُمَيني المنبر بضع مَرَّات في المدرسة الفيضيَّة، حيث كان يُلقِي دروسه، وكرَّر ما قاله سابقًا.

في الثالث من مايو لعام 1963، وفي خطاب شديد اللهجة، هاجم فيه علنًا -ربما للمرة الأولى- اليَهُود ودولة إسرائيل:

"إسرائيل لا تريد أن يبقى القرآن في هذا البلد، إسرائيل لا تريد أن يبقى في هذا البلد أي أثر لعلماء المسلمين، إسرائيل لا تريد أن يبقى أثر لأحكام الإسلام في هذا البلد، إسرائيل لا تريد أن يبقى في هذا البلد علماء، إسرائيل تقوم من خلال أياديها السوداء بمهاجمة المدرسة الفيضيَّة، تهاجمنا، تهاجمكم أنتم الشَّعب، تريد أن تُحكِم قبضتها على اقتصادكم، تريد أن تقضي على تجارتكم وزراعتكم، تريد أن تستولي على الثروات، إسرائيل تريد عن طريق عملائها أن تُزيل كل العوائق التي تقف وتسدّ طريقها، رجال الدِّين هم عائق، يجب إذًا أن تنكسر شوكتهم، المدرسة الفيضيَّة ومراكز العلم الأُخرَى أيضًا عائق يجب كسر شوكتها، يمكن لطلاب العلم الشرعيّ أن يكونوا مانعًا في الطريق في ما بعد،

يجب قتلهم، يجب رميهم من فوق الأسطح، يجب أن تُكسَر رؤوسهم وأيديهم، من أجل أن تتحقق لإسرائيل مصالحها. حُكُومة إيران تبعًا لمخطَّطات إسرائيل أهانتنا، ولا تزال تفعل.

إنني أنصحكم، أيها الشَّاه، يا حضرة الشَّاه، إنني أنصحك أن تكفّ عن هذه الأفعال والمخطَّطات، لا أريد أن يحمد الناسُ اللهَ على ذهابك إن قرَّر يومًا ما أسيادك التخلِّي عنك، لا أريدك أن تكون هكذا، لا أرغب أن تصبح كأبيك، اسمع نصيحتي، أصغِ إلى العلماء الأعلام، فهم يريدون مصلحة الشَّعب، لا تُصغِ إلى إسرائيل، لن تنفعك إسرائيل.

أيها البائس المسكين، لقد مرّ من عمرك خمسة وخمسون عامًا، فتَأمَّل قليلًا، تَدبَّر قليلًا، انظر لبُرْهة إلى عواقب الأمور، اتَّعِظْ قليلًا، إن كان ما يقولون صحيحًا من أنك تعارض الإسلام ورجال الدين، فبئس الفكر فكرك إن كانوا يُمْلُون عليك ما يريدون، فتأَمَّل حولك، لماذا تنطق بلا تفكير؟ سيدي الملك، إنهم يريدون أن يُظهِروك يَهُوديًا، حتى أكفرك، عندها سيُخرِجُونك من إيران ويصفُّونك".

وفي خطاب آخر يقول:

"وهل تتقدَم الدَّولة بدخول بضع نسوة إلى الـمَجلِس؟ لن تصلح الدَّولة بمخطَّطات إسرائيل".

وفي اليوم الثَّاني أعلن أنّ "اليوم اقتصاد الدَّولة بأكمله بيد إسرائيل، لقد سيطر عملاء إسرائيل على اقتصاد الدَّولة، أكثر المصانع هم يديرونها: التليفزيون ومصنع "أرج" ومصنع "بيبسي كولا".

وأيضًا يقول: "نحن نقول إن مشروعاتكم الإصلاحية تصنعها لكم إسرائيل، عندما تَنوُون إيجاد برنامج إصلاحي تلجؤون إلى إسرائيل، تُحضِرون خبراء عسكريّين إلى إيران من إسرائيل، تُرسِلون الطلاب من هنا إلى إسرائيل، لَيْتَكُم ترسلونهم إلى أي مكان آخَر، ليتكم ترسلونهم إلى بريطانيا، إلى أمريكا. ترسلونهم إلى إسرائيل؟! نحن نعارض ذلك.

أهذه هي دولتكم المتقدّمة التي تحتاج إلى كلّ شيء من الخارج؟! تُحضِر الخبراء من إسرائيل؟! وترسل الطلاب إلى إسرائيل؟! هذا العام ذهب بعض منهم من هذه المدينة، من قم، يعني هم أرسلوهم.

نحن لا نعلم ما علاقة هؤلاء بإسرائيل وعملاء إسرائيل، أليس من العار على دولة عريقة كإيران أن تقول إسرائيل: نحن ندعم إيران؟ إيران العُظْمَى تحت حماية إسرائيل!

مَزَارِع إيران الممتازة بيد إسرائيل، لقد راسلوني من إيلام وقالوا إنهم أعطوا المزارع الجيدة لإسرائيل كي تزرعها بالشمندر، علّقوا لوحة على جانب الطريق مكتوبًا عليها (مزرعة إيران وإسرائيل النموذجية)".

هل يوجد أيّ علاقة بين هذه التصريحات المتوالية المناهضة لإسرائيل وتلك المساعدات الماليَّة التي كانت تصل إلى الخُمَيني من مصر عندما كان عبد الناصر في رأس السُّلْطة هناك؟ لقد أُثبِتَت حقيقة هذه المساعدات لاحقًا، كما سنرى. لا يمكن تجاهل هذه الفرضية.

في تلك الأيام كانت الاضطرابات في مدينة قم مستمرَّة. إذ كان يأتي آلاف الزوار من كل مكان في إيرانَ وحتى من الدُّوَل الأُخرى لزيارة مقام حضرة المعصومة شقيقة إمام الشِّيعَة الثَّامن. كان المطلب الأساسيّ لمتظاهري قم بخاصَّة الذين كانوا يجتمعون في المدرسة الفيضيَّة، هو إلغاء قانون مساواة النِّسَاء بالرجال، وكانوا ينتقدون قانون الإصلاح الزراعي، وكانوا يطالبون باتِّخاذ إجراءات ضِدّ اليَهُود ودولة إسرائيل.

بالتدريج أصبحت الدوائر السِّياسِيَّة في طَهْرَانَ تأخذ هذه الاضطرابات الدائمة على محمل الجدّ، وأصبحت مصدرًا لقلق الحُكُومة هناك، بخاصَّة أنّ مظاهرات مشابهة أُخرى حدثت في مشهد وشيراز وأصفهان وكاشان، بل وفي طَهْرَان نفسها.

في طَهْرَان، كانت تُدفَع مبالغ كبيرة من أجل استعمال البلطجيَّة وأوباش الحارات وأوباش ميدان أمين السلطان (السُّوق الرئيسية التي تزوِّد العاصمة بالخضاروالفواكه)، كان يمكن مشاهدة مثيري الشغب المحترفين بين المتظاهرين.

من أين كانت هذه الأموال تأتي؟ مَن كان مثيرو الشغب هؤلاء؟ ومَن كان يديرهم؟ سرعان ما ظهرت بعض الإجابات حول هذه الاستفسارات.

بالتزامن مع هذه الأوضاع بدأ في محافظة فارس شغب كبير. تَمرَّد بعض رؤساء العشائروأحدثوا القلاقل الأَمنيَّة. في النِّهاية قرَّر الملك والحُكُومة أن يظهروا ردَّة فعل حازمة. كان الجميع في طَهْرَانَ يعرف أن رئيس الوزراء أمير أسَد الله عَلَم، وجميع قادة الجيش والأمن، هم من مؤيِّدي الحزم في مقابل مثيري الشغب، كانت الحُكُومة تريد إنهاء الفَوْضَى، مع أنها كانت محدودة ولم تمتدَ لتشمل كلّ إيران بعد، حتى يتسنَّى لها إجراء برنامجها الإصلاحي الذي أقرّته حديثًا. في قم أعلن الخُمَيني أنه "سيُسقِط الحُكُومة بضربة واحدة على قفاها"؛ لم يعُد استعراض القُوَّة يمكن اجتنابه بين الطرفين.

***

في صباح الخامس عشر من يونيو عام 1963، حاصرت قوات الأمن مكان إقامة حُجَّة الإسلام رُوح الله الموسوي الخُمَيني. لم يكُن حُجَّة الإسلام في بيته، فقد أمضى الليل في بيت ابنه الأكبر مصطفى الذي كان يسكن بالقرب.

أُخبِرَ بحضور قوات الأمن إلى مكان إقامته، فعاد مباشرة إلى منزله. جَرَت عمَليَّة اعتقاله بهدوء، ونُقل إلى طَهْرَان مباشرةً، وأنزلوه في مقرّلجهازأمن الدَّولة. سُجِنَ، لكن ليس في سِجْن.

انتشر خبر اعتقاله في قم سريعًا، وخرجت مظاهرات مؤيِّدة له، وعندما وصل الخبر إلى طَهْرَان حدثت فيها اضطرابات لِمُدَّة ثلاثة أيام، هاجمت جماعات محرّضة بزعامة شخص يُدعَى طيب حاج رضايي، أحد بلطجية طَهْرَان المعروفين وكانت له سوابق متعددة، عددًا من دور السينما، والمراكز الثقافيَّة، ومَقَرّ

مؤسَّسة النقل العامّ، ومبنى الجمعية الثقافيَّة الإيرانيَّة-الأمريكيَّة، وكذلك مصنع "بيبسي كولا" الذي قال الخُمَيني إنه مِلْك اليَهُود، ونهبوها وأحرقوها.

اتَّخذَت هذه المظاهرات شكل حرب الشوارع، كانت تطلق الشِّعارات المناهضة للمساواة في الحقوق بين النِّسَاء والرجال، وبدأ الأراذل والأوباش النهب.

لم تنجح الشُّرطة، التي لم تكُن مؤهَّلة لمواجهة المظاهرات العنيفة وحرب الشوارع، في إعادة فرض الاستقرار. في نهاية اليوم الأول من هذه الكارثة لم تكُن الأوضاع قد اتّضحَت بعد. أبدت الحُكُومة ضعفًا شديدًا تجاه ما حدث، وبدا أن الشَّاه الذي كان يكره إسالة الدماء، على وشك الاستسلام.

أمر أسَد الله عَلَم رئيس الوزراء، معتمدًا على الجيش وجزء مُهِمّ من الرَّأي العامّ، بقطع خطوط هاتف القصر المَلَكِيّ مع الخارج لِمُدَّة ست وثلاثين ساعة، ومنع قادة الجيش وقوات الأمن من التواصل مع الشَّاه؛ لقد كان يخشى من لين الشَّاه ورأفته.

أُعطِيَت الأوامر لقوات الدَّرك بإغلاق الطريق الواصل بين قم وطَهْرَان، وأن يمنعوا وصول بضع مئات من المتظاهرين الذين كانوا يلبسون الأكفان ويحملون الأسلحة، في طَهْرَانَ أُعلِنَ عن حُكُومة عسكريَّة، وبدأ الجيش التدخُّل. بالقُرْب من سوق طَهْرَان في ميدان أرك، قصد بضع مئات من المتظاهرين مركز إذاعة إيران ليستولوا عليه، الأمر الذي كان بإمكانه أن يُخرِج الأوضاع عن سيطرة الدَّولة. لقد أصبحت الأوضاع معقَّدة، فكان لا بدّ من أن تتدخل دبابات الجيش، وخلال بضع دقائق تَمكَّنُوا من صدّ الهجوم والحيلولة دون السيطرة على الإذاعة، عندها كانت الفَوْضَى قد انتهت تقريبًا.

على هذا النحو انهزم الخُمَيني ومؤيِّدُوه، وكذلك الأشخاص الذين جعلوه ألعوبة لهم، وكانت الدَّولة قويَّة، وعمومًا لم تتحرك أغلبيَّة الشَّعْب.

***

بلغ عدد الضحايا خلال هذه الأيام الثلاثة ما يقارب خمسة وسبعين أو ثمانية وسبعين، وكان أكثرهم من المتظاهرين، فأصدرت الحُكُومة مباشرةً مرسومًا يتضمن تعويض أهالي الضحايا بصرف راتب شهريَ مُجزٍلهم. لم يكُن لأسر الضحايا أي ذنب، وما كان يجب معاقبتهم. ويبدو أن هذه المبادرة كانت من أسَد الله عَلَم شخصيًّا، إذ كان يقول إن الوقت قد حان من أجل لَمْلَمة الجراح.

كان عَلَم من الشخصيَّات التي كانت -وما زالت- تُنتقَد بوجه حقّ أو بغير وجه حقّ، وقد أبدى في هذه الأحداث حِكْمة وتدبيرًا وجَلَدًا.

وفي هذه الأحداث أظهر الخُمَيني أنه شخص مغرور واستبداديّ إلى أبعد الحدود، وأنه متشائم تجاه كل إنسان وكل شيء، وأنه مُبتلًى بداء العظمة وداء الحقد تجاه معارضيه. لم تكُن سمات الإنسانيَّة والرحمة والشفقة تعني له شيئًا، ولم يكُن ينظر عواقب قراراته وشعاراته التي كان يطلقها. لقد أظهرت تلك المجازر التي سبَّبَها وتلك الفتنة التي كان يريد إشعالها فلم ينجح، أنه لا أثر للرحمة والإنسانيَّة في هذا الكائن، الأمر الذي ثبت بعد سنوات للشَّعْب الإيرانيّ والعالَم أجمع.

كان يستند في أفعاله وأقواله إلى الإسلام، الإسلام كما كان يَتخيَّله ويفهمه هو، إسلامه الخاصّ به، الذي لم يكُن فهما إنسانيًا، لقد أظهر رُوح الله الموسوي الخُمَيني في هذه الأحداث أنه لا يحبَ إلا نفسه، ولم يكُن للصداقة والمحبَّة والشفقة بالأساس أي معنًى في قاموسه، فعندما أمسك بزمام السُّلْطة المطلقة في إيرانَ فعل كل ما يحلو له، وأصدر أحكامًا كانت سببًا في كثير من الجرائم والمصائب، وأصدر أوامر كثيرة متناقضة. تَجرَّأ أحد الصحفيين المعروفين وسأله: "هل لديك أيّ أحاسيس بشرية؟ هل بكيت يومًا؟ هل تُحِسّ بالحزن؟ هل لديك أيّ أحاسيس في الأصل؟". أخذ آية الله يتهرَّب من الإجابة وأنهى المقابلة قائلًا إنه ليس لديه المزاج للإجابة عن هذا النوع من الأسئلة، وطرد الصحفيَّ من غرفته.

أليس مثل هذا التصرُّف دليلًا على جنون العظمة والغرور الذي لا نهاية له؟ ما نعرفه عنه هو أنه كان إنسانًا ذكيًّا، وكان كتومًا يستطيع إخفاء مشاعره بالكامل، لكنه لم يكُن ليغيِّر رأيه وكان يُصِرّ عليه.

في أيام الفتنة هذه أجرى جدولًا من الدماء دون أدْنَى تدبُّر أو نظر إلى عواقب الأمور. بعد ثورة 1978-1979 قُتل عشرات الآلاف بأمر منه. ربما كان يعتقد أنهم تجلِّيات الشرّ.

أشار ابنه أحمد في مقابلة طويلة مع قناة "BBC" إلى طباع والده وسجاياه:

"كان والدي شقيًا. على سبيل المثال كُسرت يداه، وكُسرت قدمه. كُسِر وجهه في عدة أماكن. كُسر رأسه. كل ذلك نتيجة للعب والشقاوة التي كانت ترافقه".

هو نفسه. رُوح الله الموسوي الخُمَيني. كان يقول: "إن أخي السيد بسنديده كان إنسانًا منظَّمًا. نظيفًا. لقد كان على قدر من النظافة والأدب لدرجة أن الأكبر منه سِنًّا عندما كانوا يرونه كانوا يترجّلون عن الحمير. أما بالنسبة إليّ فقد كان يجب على أحدهم أن يبحث عني في المساء بين أكوام القمامة. وأكوام التراب والطين. وفي الجداول. ليأخذني إلى المنزل".

لقد كان يعيش تناقضًا نفسيًّا عجيبًا. ففي حين أنه لا يرُشّ ذبابة كانت في غرفته بالمبيد الحشري. بل يمسك بها ويفتح لها الباب. ويحرّرها قائلًا: "لماذا يجب أن نمسك بها؟ لماذا يجب أن نؤذيها؟" فإنه في نفس الوقت يعتقد أن آلاف الشباب إن خالفوا أوامر الدِّين فيجب عندها قتلهم جميعًا.

لا نعرف مدى صحة قصة "قتل الذبابة" التي تَكرَّر ذكرها. فقد نقلها بضعة أشخاص آخرين. لكن هذه الأقوال الفاضحة لم تكُن من روايات الأعداء أو معارضي آية الله الخُمَيني. بل كانت من كلام ابنه.

بعد أحداث يونيو 1963، بدا أن نشاطات الإسلاميّين المتشددين. سواء في إيرانَ أو خارجها. لاقت اهتمامًا من أجهزة المخابرات والتجسُّس الأمريكيَّة. التي أخذت تفكر في إمكانية الاستفادة من هؤلاء عندما تقتضي الضرورة.

كان الخُمَيني يقيم تحت المراقبة في منزل للأجهزة الأمنيَّة. لكنه لم يكُن سجينًا بما تحمله الكلمة من معنى: كان كثيرون يأتون لمقابلته. وكانت أسماؤهم تُدوَّن. ولم يكُن من تردُّدهم مانع... وسرعان ما وُجِّهَت إليه التُّهَم بالتحريض على

أمن الدَّولة، وإحداث القلاقل، والتشجيع على القتل والتآمر مع القوى الأجنبيَّة.

أعلن رئيس الوزراء علم في مؤتمر صحفي، أنه سيتم تسليم المسؤولين والمحرِّضين على أحداث أيام يونيو الدامية الثلاثة إلى المحاكم ذات الصلاحية. وستُطَبَّق أشدّ العقوبات على المحرِّضين والمسؤولين عن المجازر. كان يمكن تَصَوُّر أن حكم الإعدام سينفَّذ في حقّ رُوح الله الموسوي الخُمَيني الآمر والمسبب الرئيسي في هذه المجازر.

بعد هذا المؤتمَر الصحفي نُقل الخُمَيني من مكان إقامته إلى حامية عشرت آباد العسكريَّة، وسُجن هناك، ونزل في غرفة نظيفة مجهَّزة بوسائل الراحة، لكنه كان في هذه المَرَّة سجينًا. وبعد الثَّورة الإسلاميَّة ادّعت مصادر رسميَّة أو شبه رسميَّة للنِّظام أنّ جواد صدر، وزير الداخليَّة، لاقى الخُمَيني في نفس الغرفة في مارس 1963، واعتذر إليه بالنيابة عن الشَّاه والحُكُومة، وأبلغه أنه حُرّ بالكامل.

في مارس 1963 كان جواد صدر، وهو أحد كبار دبلوماسيّي في الخارجيَّة الإيرانيَّة، سفيرًا لإيران في طوكيو، وفي مارس 1964 أصبح وزيرًا للداخليَّة في حُكُومة حسن علي منصور. على أي حال لم يكُن الخُمَيني مسجونًا أصلًا في مارس 1963.

لكن الصحيح أنّ مهدى بيراسته وزير الداخليَّة آنذاك، ذهب إلى حامية عشرت آباد برفقة آقا نور الهنديّ شقيق الخُمَيني المحامي، وأحد الأشخاص الذين كانت تجمعهم به قرابة مشتركة (بيراسته والخُمَيني والهنديّ كانوا أبناء محافظة واحدة، وكانت بينهم صلة قرابة)، وتحدث إلى الخُمَيني. يروي وزير الداخليَّة الأسبق هذه القِصَّة بطريقة مختلفة: "... في أثناء حديثي إليه وجدته مهزومًا، وضمن شكره لي على هذه الزيارة كان يتحدث عن الشَّاه بتودُّد، ومع أن أشخاصًا مثلي عندما يتحدثون عن الشَّاه نناديه (صاحب الجلالة)، فإنّ الخُمَيني كان يستخدم تعبير (صاحب الجلالة المعظّم)، وكان يمدح الدستور ويدافع عنه...".

لا يوجد دليل على أنّ تأليف قصة هذا اللقاء لم يكُن من أفكار وزير الداخليَّة آنذاك. لقد كان يرمي من هذا اللقاء إلى فهم غايات ومرامي الخُمَيني بحضوره شخصيًّا إليه، وليقرر إن كان في إحالة ملفِّه إلى المحاكم صاحبة الشأن مصلحة أم لا، لكن في خِضَمِّ تلك الفَوْضَى قرَّرَت الحُكُومة صرف النظر عن إحالة ملفّه إلى السُّلْطات القضائيَّة.

يضيف بيراسته: "في أول مقابلة لي مع الشَّاه، ذكرت موضوع لقائي بالخُمَيني وأسلوبه في الحديث واستنتاجي أنه يطمع في عفو الشَّاه، لكن الشَّاه لم يُظهِر انبساطه للموضوع، وعلى أي حال فقد أُطلِقَ سراحه بعد مدة".

***

بعد التحقيق مع معتقَلي أحداث الأيام الدامية الثلاثة، أشارت تقارير الجهات الأمنيَّة إلى أنّ لأعضاء حزب "توده" (المنحلّ رَسْمِيًّا) دور بارز في ما حدث.

لم تتجاوز أعداد المتظاهرين في العاصمة خمسة آلاف شخص، بينما كان عدد سكان طَهْرَان حينها يقارب مليونًا ونصف مليون، لذا يمكن القول إنه على الرغم من احتدام المواجهات ودمويّتها فإن هذه المظاهرات السِّياسِيَّة لم تتخذ بعدًا شعبيًّا، لقد نحَّى أبناء العاصمة أنفسهم جانبًا.

بعد مرور بضعة أيام على هذه الأحداث نُشرت وثائق تشير إلى أن جهاز المخابرات المصريَ أرسل أموالًا طائلة إلى طَهْرَان لإثارة هذه الاضطرابات، في ذلك الوقت كان عبد الناصر الرجل الأول في مصر، وكان عداؤه لنظام الحكم وللشَّاه علنيًّا وشديدًا، وكان يعتبره ندًّا له في المنطقة، ودعونا لا ننسَ أن عبد الناصر كان مقرَّبًا، بل وحليفًا للسوفييت، وبالتزامن مع مساعداتها الماليَّة لإثارة الفَوْضَى في طَهْرَانَ كانت القاهرة تقدِّم المساعدات لوجهاء القبائل في منطقة فارس ليتمرّدوا، الأمر الذي كان قد شكَّل قلقًا آخر للحُكُومة آنذاك، لقد كان الخُمَيني في الحقيقة بيدقًا في صراع السُّلْطة في المنطقة.

بعد سبعة عشر عامًا، قَبِلَ محمد حسنين هيكل، وزير عبد الناصر المقرَّب الذي أصبح من المعجبين بآية الله رُوح الله الموسوي الخُمَيني والمقرّبين منه، أَقرَّ صراحةً أنّ الخُمَيني وأتباعه قد استفادوا في هذه الأحداث من مساعدات مصر.

***

في عام 1978، عندما كان رُوح الله الموسوي الخُمَيني يقيم في نوفل لوشاتو، حوّلت الجلبة التي أحدثتها وسائل الإعلام وكاتبو السِّيَر أحداثَ الخامس عشر من يونيو إلى "نقطة البداية" للخُمَيني في حربه على "الإمبريالية العالَميَّة" وبداية "الثَّورة الإسلاميَّة". وفي دستور الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة أشير إليها على أنها النهضة العظيمة للإسلام المقاوم. وبعد سنوات كتبت إحدى صحف باريس الصباحيَّة الكُبْرَى: "كان ذلك في قم عام 1963 عندما ألقى آية الله الخُمَيني خطبته التأسيسيَّة حول الثَّورة الإسلاميَّة". وهو أمر مغاير تمامًا للحقيقة.

من البداية إلى النِّهاية يمكن تلخيص "خطبة الثَّورة الإسلاميَّة التأسيسيَّة" في عام 1963 في ثلاث نقاط: معارضة الإصلاح الزراعي، ومعارضة حرية المرأة ومساواتها في الحقوق السِّياسِيَّة والاجتماعيَّة بالرجال، ومعارضة الرجوع إلى رأي الشَّعب لإقرار القانونين السابقين.

لم تكُن نهضة الإسلام المقاوم أكثر من فَوْضَى دفع الأجانب الجزء الأكبر من تكاليفها.

لقد كانت مصالح الأشخاص الذين تسببوا بهذه الأحداث متنوعة وربما متضادَّة، لكنهم كانوا متفقين على ضرورة إسقاط الحُكُومة التي تعارض أهدافهم ومصالحهم، وشكّلوا ائتلافًا مؤقَّتًا: كان الإقطاعيُّون ورؤساء العشائر يعارضون الإصلاحات الزراعيَّة، وعبد الناصر وأنصاره من السوفييت كانوا يريدون إسقاط النِّظَام الذي كان يقف سدًّا في وجه أطماعهم التوسُّعيَّة ورغبتهم في السيطرة على الشرق الأوسط.

أصبح حُجَّة الإسلام رُوح الله الخُمَيني، بسبب حقده وكرهه وبسبب جنون العظمة وطمعه الذي لا حدَ له، ألعوبة في أيديهم، وبرز بشكل مؤقَّت على أنه رافع راية الفَوْضَى، ومن ثَمّ استطاع أن يجد لنفسه مكانًا. لقد جعلته سياسة الحُكُومة الصارمة آنذاك يتنحى عن الساحة لسنوات عِدَّة، مِمَّا أدَّى إلى نسيانه تقريبًا. بعد سنوات، وكما سنرى لاحقًا، اتخذوا منه ألعوبة مرة أُخرَى.

***

في هذه المرحلة من الأحداث، يجدر الانتباه لمرحلة أُخرَى من حياة رُوح الله الموسوي الخُمَيني، هي مرحلة لم يُشَر إليها في تلك السير التي صنعوها له في أثناء إقامته في فرنسا، واليوم لا يُسمَح لأحد أن يعرّج على ذكرها.

لقد أخذ كثيرون مخاطر محاكمة الخُمَيني ومعاقبته على محمل الجِدّ، واختلف السياسيُّون والمقرَّبون من الشَّاه حول القرار الذي يجب اتِّخاذه بهذا الخصوص، فمجموعة، على رأسها أَسَد الله عَلَم رئيس الوزراء، كانت ترى أن الحزم أوْلَى في هذا المجال، وكانوا يعتقدون بوجوب زوال كل ما يَحُول دون محاكمة الخُمَيني، وإن اقتضت الضرورة التغييرَ والعفوَ بعد اتِّخاذ السُّلُطات القضائيَّة الحكم، فيمكن للشَّاه أن يستفيد من صلاحيَّاته القانونيَّة ويُقدِم على تخفيف الحكم، وفي النِّهاية يعفو عنه.

فئة أُخرَى من مؤيِّدي المصالحة والتهدئة، كانت ترى أنه يجب اجتناب مواجهة المؤسَّسة الدِّينِيَّة، وكانوا يرون أنه على الرغم من أن رُوح الله الموسوي الخُمَيني ليس من زمرة "العلماء الأعلام" فإنه حصل على شهرة، ومحاكمة مثل هذه الشخصيَّة تُعَدّ مخالفة لعادات وأعراف الدَّولة العريقة.

في النِّهاية أذعن الشَّاه لرأي الفئة الثَّانية.

وعلى أثر تَدَخُّل ووساطة بعض الشخصيَّات السِّياسِيَّة والدِّينِيَّة آنذاك، ومنهم الشيخ حسين اللنكراني شريك حزب "توده" القديم، وعلى ما يبدو عميل السوفييت في إيران، قلّد خمسة من العلماء الأعلام والمراجع صاحبة الوجاهة

رُوح الله الخُمَيني لقب "المجتهد" و"المرجِعيَّة"، وبهذا حصل على لقب "آية الله"، وهو لقب ذو أهَمِيَّة آنذاك.

هل يستحق رُوح الله الخُمَيني هذا اللقب بالنظر إلى المعايير والتقاليد؟ وهل كان مؤهَّلًا للمرجِعيَّة؟

ثار جدلٌ موسَّع حول هذه القضيَّة، وما زال يُثار، إذ يعتبره بعض المحقِّقين أمرًا بالغ الأهَمِيَّة.

في الحقيقة سواء أكان رُوح الله الموسوي الخُمَيني يستحق هذا اللقب أم لم يكُن، فقد لُقّب بـ"آية الله" وحصل على مرتبة الاجتهاد بسبب التدخُّلات السِّياسِيَّة وترضية فئة ما، بالإضافة إلى الشعور بالتضامن النوعيّ من بعض المراجع الدِّينِيَّة عندما كان في السجن. لقد منحه هذا اللقب مقامًا وأهَمِيَّة يُبقِيانه بعيدًا عن متناول غضب الحُكُومة والسُّلُطات القضائيَّة.

أقدم أشخاص آخَرون، أو مَن سعوا لمنحه درجة الاجتهاد أنفسهم، على التوسُّط لإخلاء سبيله، ومنهم مُظَفَّر بقائي الكرماني، الرجل الثَّاني الأسبق في الجبهة الوطنيَّة التي كان يقودها الدكتور مصدَّق، والذي أصبح لاحقًا زميل الجنرال زاهدي، خَلَف مصدَّق. كان مظفَّر بقائي، على الرغم من توجهه اللا ديني التامّ وتظاهره بأنه اشتراكيّ ديمقراطيّ، مقرَّبًا من رجال الدين، ومن المحتمل أنه نفَّذ هذه الوساطة بطلب منهم. واللواء حسن باكروان، رئيس جهاز المخابرات وأمن الدَّولة، الذي حصل -على ما يبدو- في لقاء له مع الخُمَيني على وعد منه بإحسان التصرُّف، كان لديه توجُّه لإطلاق سراح الخُمَيني.

يبدو أنّ سفير بريطانيا العُظمَى أيضًا طلب، أو على الأقلّ اقترح في لقاء له مع اللواء باكروان، أن يطلق سراح الخُمَيني.

في النِّهاية في مارس 1964، وبعد عشرة أشهر أمضاها رُوح الله الموسوي الخُمَيني، الملقَّب حينها بحُجَّة الإسلام، تحت المراقبة ومن ثم في السجن، أُطلِقَ سراحه مع لقبه الجديد "آية الله"، وتَوَجَّه مُباشَرَةً إلى قم.

***

مرّت الأشهُر الأولى من عودة آية الله الجديد إلى قم دون أي ضجَّة أو حادثة، وفي السادس والعشرين من أكتوبر عام 1964، اليوم الذي صادف تاريخ ميلاد محمد رضا شاه البهلوي، صعد الخُمَيني منبر المدرسة الفيضيَّة، وألقى خطبة شديدة اللهجة هاجم فيها اتِّفاقية التعاون العسكريّ التي وُقِّعَت مع الولايات المتَّحدة وأُحيلَت إلى الهيئة التشريعيَّة لإقرارها.

في هذه الاتِّفاقية، التي تشبه جميع المعاهدات والاتِّفاقيَّات الموقَّعة بين الولايات المتَّحدة ودول العالَم الحرّ، أُدرِجَت بنود تحمي الضُبَّاط والجنود الأمْرِيكِيِّين في حال ارتكبوا جنحة أو جريمة في أثناء أدائهم واجبهم، لكن الحُكُومة الإيرانيَّة ألحقت إضافات بهذه الاتِّفاقية مفادها أن هذه الجرائم لا تشمل تلك التي يرتكبها الجنود الأمْرِيكِيُّون على الأراضي الإيرانيَّة، وفي حال حدث ذلك يُحال الأمر إلى المحاكم الإيرانيَّة، حتى إن الحُكُومة الإيرانيَّة أعطت نفسها الحقّ في إلغاء هذه البنود إذ اقتضت المصلحة الوطنيَّة. لم تتمكن أي دولة أُخرى من حلفاء أمريكا من الحصول على مثل هذا الاستثناء، بعبارة أُخرى أُخِذَت جميع الاحتياطات اللازمة في ما يخصّ حماية الحقوق الوطنيَّة والسيادة الإيرانيَّة، وحُصِرَت هذه "الحصانة" في إطار ضيق جدًّا.

هاجم رُوح الله الخُمَيني، بأسلوبه الفَظِّ المعروف، هذه الإجراءات في خطبته في السادس والعشرين من أكتوبر:

"إنا لله وإنا إليه راجعون، لا أستطيع إنكار تأثُّري، أشعر بثقل كبير على صدري، لقد قلّ نومي عند سماعي أخبار إيران في الأيام الماضية، إنني مستاء، أشعر بثقل كبير على صدري، وإنني أعدّ الأيام متسائلًا: متى سيأتي الموت؟ إيران اليوم ليس لها عيد، لقد قلبوا عيد إيران إلى حِدَاد، لقد حوَّلوه إلى حِدَاد وعَلَّقوا الزِّينة ورقصوا جميعًا".

ثمّ أعلن في فتوى أصدرها:

"... هل يعلم الشَّعْب الإيرانيّ ما الذي حدث في المَجلِس هذه الأيام؟ هل يعرفون عن تلك الجرائم التي حدثت بعيدًا عن أنظار الشَّعْب وفي الخفاء؟ لقد

وقَع المَجلِس باقتراحٍ من الحُكُومة وثيقة عُبُودِيَّةِ إيران. لقد أقَرُّوا بأن إيران مستعمَرة، لقد سلّموا أمريكا وثيقة بربريَّةِ الأُمَّة الإسلاميَّة. لقد سوَّدوا صفحات تاريخنا الإسلاميّ والوطنيّ المشرقة".

***

هذه المَرَّة، لم تَرَ الحُكُومة، التي كان يترأَّسها حسن علي منصور، أنه يجب الانتظار، ولم تكُن ترغب في أن يرتكب الخُمَيني مصيبة أُخرَى، أو يفتعل حادثة يكون هو قائدها.

في الرابع من نوفمبر، أُحضِرَ الخُمَيني من مكان إقامته دون أَدْنَى ضَجَّة، ونُقِلَ إلى طَهْرَان مباشرةً.

كان سيف عصار، الملازم في الشُّرطة، من أعضاء الفرقة التي اعتقلت آية الله، وكان هو الذي دخل بيت الخُمَيني مراعيًا الأدب والذوق. كان سيف عصار ينحدر من أسرة مَذهَبِيَّة معروفة وعريقة، كان عَمُّه من أبرز الفقهاء وعلماء الدِّين في ذلك العصر، وبطبيعة الحال كان الخُمَيني يعرفه جيدًا.

أجلسوا آية الله في مركبة عادية، لا تحمل شعار الأجهزة الأمنيَّة، وجلس عصار بجانبه. كانت مجموعة من رجال الأمن والمخابرات يرافقون السيارة، بعد انطلاق المركبات قدَّم عصار نفسه لآية الله. هدأ الخُمَيني الذي كان غاضبًا وبدأ بالتحدُّث ثمّ قال: "سيقتلونني هذه المَرَّة"، وأخذ يبكي بشِدَّة.

بعد الوصول إلى طَهْرَان سجنوه لفترة وجيزة، ثمّ نقلوه إلى منزل مَهِيب للحُكُومة.

حسن علي منصور، رئيس الوزراء الجديد الذي كانت لديه تطلُّعات وآمال كبيرة لإيران، وكان قد بدأ إصلاحات وتغييرات أساسيَّة كثيرة. لم يكُن يريد أن يواجه أيّ اضطرابات وارتباكات تَصرِفه وتبعده عن هدفه الإصلاحي، وكان يوافقه الرَّأيَ اللواء باكروان مدير جهاز المخابرات وأمن الدَّولة والدكتور جواد صدر وزير الدَّولة. بعد مقتل آقا مصطفى والد آية الله، رعى صدر الأشراف والد

الدكتور صدر أيتامه وساعدهم. كان الدكتور صدر على معرفة بهذه العائلة، وربما كان يُكِنّ لهم المحبة. أقنع رئيس الوزراء ووزير الدَّولة واللواء باكروان الشّاه بوجوب إنهاء تحريضات الخُمَيني بهدوء وإبعاده عن إيران. ربما ارتكبوا في هذا القرار خطأً، لكن صدر القرار في النّهاية بنفي آية الله.

بطلب من رئيس الوزراء، ذهب الدكتور محمد نصيري وزير الدَّولة، والصديق السابق المقرَّب من مصدَّق (الذي لم يكُن يُكِنّ احترامًا لرجال الدِّين المتطرِّفين)، للقاء آية الله. كان الدكتور نصيري يعرف كثيرًا من رجال الدِّين وكان يتردَّد عليهم، وكان يعرف كيفيَّة التعامل معهم ومخاطبتهم، فأخذ يتحدث عن بعض المسائل الجانبية ولم يتطرق إلى موقف الخُمَيني. أحضر العامل، الذي بلا شك كان من أفراد رجال الأمن أو الاستخبارات، أحضر الشاي. وعلى طاولة الغرفة التي جرى فيها اللقاء وُضعت أطباق الفاكهة والحلوى بأصنافها المختلفة. فقدَّم آية الله، الذي كان بحكم المضيف، الحلوى للدكتور نصيري، وقال مبتسمًا: "أرجو أن لا يكون مسمومًا". لقد كان يخاف كلَّ شخص وكلَّ شيء. تناول آية الله والدكتور نصيري الحلوى والشاي في أجواء وُدِّيَّة، وفي نهاية الأمر عرض وزير الدَّولة القضيَّة على الخُمَيني وأقنعه أن يوافق على مغادرة إيران دون تحريض على الفَوْضى. وتمَ الاتِّفاق النهائي بينهما. وتَوَجَّه الخُمَيني إلى الخارج دون أيَ ضَجَّة.

في بداية الأمر استقرَّ آية الله في إسلامبول (إسطنبول)، لكنه لم يكُن راضيًا عن حياته فيها. اعترض بعض الصحف التركية على وجوده في بلدهم؛ كانوا يخشون أن يتسبب في بعض الاستفزازات التي قد تضرَ العَلَاقات الأخوية بين البلدين.

وبمساعدة حُكُومة إيران نُقل آية الله من تركيا إلى العراق واستقرّ في النّجف.

مرَت سنوات لم يتذكره فيها أحد، حتى ظهر ثانية على الساحة في أواخر سبعينيات القرن العشرين.

الفصل الرابع

النفـــي إلـــى النَـجـف

النّجف في العراق هي مرقد الإمام عليّ بن أبي طالب، ابن عمّ نبيّ الإسلام، الذي يعتبره الشِّيعَة خليفة له، وفي نظر أهل السُّنَّة هو الخليفة الرابع بين الخلفاء الراشدين.

يعتبر الشِّيعَة النَجفَ مدينة مقدَّسة، فيذهب كثيرون لزيارة مرقد الإمام عليّ بن أبي طالب. وعندما سكن آية الله الخُمَيني هذه المدينة كانت تُعَدّ المركز الأساسيّ لشيعة العالَم الذين يشكِّلون 15-10% من مسلمي العالَم. كانت النّجف في ذلك الزمن المركز الأساسيّ الذي يتجمع فيه طلاب العلوم الشرعيَّة في المدارس، ولا تزال اليوم كذلك.

في أواسط ستينيَّات القرن العشرين كان آية الله العُظْمَى الحاج محسن الحكيم، صاحب الشخصيَّة المعتدلة، الذي كان يؤمن بالتفاوض والتسوية مع القادة السياسيِّين للدول الشِّيعِيَّة، هو الحاكم بلا منازع على النّجف[1]. لم يكُن رُوح الله الموسوي الخُمَيني الذي كان قد لُقِّب حديثًا بـ"آية الله" صاحب منزلة تُمكّنه من إثبات وجوده أمام آية الله العُظْمَى الحكيم.

---

(1) كانت السياسة الإيرانية دائمًا تسعى إلى أن تكون قم أو مشهد هي المركز الأساسي للتشيُّع، عندما كان آية الله البروجردي على قيد الحيا، كانت قم بسبب وجوده أهمّ مركز للشّيعَة، وبعد وفاته حلّ مَحلّه، كما رأينا، عدة مراجع للتقليد، لكن في النجف كان آية الله العظمى الحكيم بلا منازع، وبعد وفاته حلّ مَحلّه آية الله العظمى الحاج أبو القاسم الخوئي (الذي كان من العائلات المحترمة في أذربيجان). اليوم يُعَدّ آية الله العظمى السيستاني، الذي يُعتبر إيرانيُّ الأصل ويحبّ

كان الخُمَيني يعيش في بداية إقامته في النَجف حياة بسيطة، وكان يبدو أنه يواجه مشكلات ماليَّة. كان بعض الأشخاص يرسل إليه أموالًا من إيران، وكان المسؤولون الحُكُوميّون في إيرانَ يعرفون هؤلاء الأشخاص الذين كان عددهم قليلًا، ولم تكُن أسماء مَن كانوا ينقلون هذه الأموال تَخفَى على أحد، لكن الحُكُومة لم تكُن تضايقهم، وكانت ترجّح أن يقتات الخُمَيني من الأموال التي تُرسَل إليه من إيران على أن يقتات من مساعدات الحُكُومة العراقيَّة التي كانت آنذاك تقف إلى جانب العقيد عبد الناصر في مواجهة إيران. لكن هذا الوضع لم يدُم طويلًا.

في النَجف كان آية الله الخُمَيني يعيش في بيت صغير وبسيط نسبيًا يقع في زقاق ترابي، كان الطابق الأرضي هو مكان تحرُّكه وعمله، وكان أفراد عائلته يعيشون في الطابق الثّاني[1]، وكان أولاد الخُمَيني يلعبون في أغلب الأوقات مع أولاد الجيران في الزقاق مُحدِثين ضجيجًا مرتفعًا.

"كانت طباع آية الله الخُمَيني حادَّة لا يمكن تحمُّلها، وكانت لا تليق إلا بالقرون الوُسطَى. في أحد الأيام تشاجر أحد أبنائه مع ابن الجيران، فأصرّ الخُمَيني على أنه يجب إعدام ذلك الولد الذي تشاجر مع ابنه وضربه، لكن المسؤولين في الحُكُومة العراقيَّة لم يُولُوا الموضوع أيّ اهتمام"[2].

***

تَغيَّر وضع آية الله الخُمَيني بعد سنتين أو ثلاث سنوات من استقراره في النّجف، وكان وضعه المالي آخذًا في التحسُّن يومًا بعد يوم.

موطنه الأصلي كثيرًا، أهمّ مرجعية للشِّيعَة في النجف، وربما في العالَم.

(1) انظر خاطرات فريدون زندفرد، آخر سفير لإيران في العراق، الذي حافظ على مركزه بعد الثورة، نشر آبي، طهران، 2005، ص229.

(2) ALEXANDRE DE MARENCHES, op, cit. P.245.

كان إعدام الأطفال والمراهقين في الجمهورية الإسلامية أمرًا طبيعيًا ودارجًا، فعلى سبيل المثال في سبتمبر 1981 أُعدِمَ 150 طفلًا ومراهقًا بأمر من الخميني، Time 21-9-1981.

يبدو أنّ أولى المساعدات الماليّة المُجزية التي حصل عليها كانت من الجنرال تيمور بختيار، الرئيس المقتدر الأسبق لجهاز الاستخبارات وأمن الدّولة (سافاك)، الذي أصبح من مخالفي الشّاه وكان يحوك المؤامرات ضدّه وضدّ الحُكُومة الإيرانيَّة. لكنّ الشّاه أقاله من منصبه على أثر زيارة طويلة منه للولايات المتَّحدة استقبله خلالها الرئيس كينيدي في البيت الأبيض بشكل علنيّ ورسميّ"[1].

بعد إقالته من منصبه قصد الجنرال بختيار سويسرا، وأقام فيها مدة، ثمّ ذهب إلى لبنان، وحدثت خلافات بينه وبين المسؤولين القضائيّين فيها. سافر بختيار هنا وهناك لجذب المساعدة للتغلُّب على الشّاه والحُكُومة الإيرانيَّة. وفي النّهاية استقرَ في العراق، وهناك تحالف مع الأشخاص الذين كان يحاربهم بلا رحمة منذ مدَّة وجيزة، وهم بضعة أفراد من مؤيّدي مصدّق، وخصوصًا حزب "توده"[2].

في بدايات العقد السابع من القرن العشرين تَحدَّثَت مصادر موثوق بها عن استعدادات تجري لمؤامرة تُحاك في العراق لإسقاط النِّظَام في إيران، وأنّ المراجع الدِّينِيَّة مشاركة فيها، وأوردت معلومات مُهِمَّة بهذا الخصوص: "لقد أصبحت المواجهة بين الشرق والغرب هنا في العراق بديلًا لمواجهات 1970-1965 التي حدثت في أطراف قناة السويس. عمليات تحريض متعددة يمكن رصدها. ألمانيا الشرقية على رأسها، وهي تتصرف كوسيط للاتّحاد السوفييتي. لقد درجت العادة لدى موسكو على أن لا تتدخل مباشرة، ولكنها تستخدم حلفاءها وسيطًا وعميلًا، لكي لا يُعترض على تصرُّفاتها. يجب أن لا يبقى ما يحدث في العراق طَيَّ الكتمان"[3].

(1) كان هذا اللقاء غير طبيعيّ واستثنائيًا على أي حال، فلم تكُن العادة أن يَستقبل الرئيس الأمريكي، أو رئيس أي دولة أخرى، بشكل علنيّ ورسميّ رئيسَ جهاز المخابرات لدولة أخرى، ولو كانت من الدول الحليفة.

(2) قُتل بختيار في إحدى رحلات الصيد، وهو الترفيه الذي كان يحبه كثيرًا، على يد عملاء الجهاز الذي كان في أحد الأيام رئيسًا له.

(3) Bulletin du Centre Europeen d'Information (C.E.I) 5Janvier 1971.

في هذه الدراسة قُدّمت معلومات دقيقة حول جميع المنظمات التي لعبت في ما بعد دورًا في "الثورة الإسلامية": "لم يملك هؤلاء العملاء أموالًا وفيرة فحسب، بل وإمكانات كبيرة لنشر الفوضى وإسقاط إيران".

في العقد التالي، أي بعد انتصار الثَّورة الإسلاميَّة في إيران، صحيفة "لوموند" الباريسية، التي كان لها دور كبير في اختلاق سيرة حياة الخُمَيني ونشرها في أرجاء العالَم وصناعة شخصيته المكذوبة، أشارت إلى هذه القضايا: "تواصل جهاز المخابرات والتجسُّس السوفييتي (K.G.B) في هذه الأثناء مع أحد معارضي الشَّاه الذين ما كان أحد ليتنبأ بالمستقبَل المشرق الذي ينتظره، يعني آية الله الخُمَيني الذي كان لاجئًا في النَّجف، أمر حيدر عليُوف الجنرال بناهيان، وهو أحد ضباط P.D.A.I، بالتواصل مع آية الله الخُمَيني عن طريق الجنرال تيمور بختيار.

كان الجنرال بختيار يرأس جهاز «سافاك» لسنوات، وبعد إقالته من منصبه، كما رأينا، التحق بصفوف معارضي الشَّاه، وفي النِّهاية استقرَّ في العراق، وكان يعرف الخُمَيني جيدًا. أثمرت جهود السوفييت، وأسرع حزب «توده» وعملاء موسكو لمساعدة آية الله، ولأول مرة سجَّل حزب «توده» شريطًا محرِّضًا لآية الله الخُمَيني في لايبزيغ (ألمانيا الشرقية) ومهّد لنشره في إيران[1]. (بعد قتل بختيار) أخذ مكانه آية الله خوئيني ها، فكان خوئيني ها، نائب رئيس مَجلِس النُّوَّاب الحالي في إيران، يتحرك بين النّجف ولايبزيغ باستمرار"[2].

لقد كان لأجهزة المخابرات والتجسُّس السوفييتية باستمرار "عَلَاقات خاصَّة" بالمؤسَّسة الدِّينِيَّة في إيران، أُشيرَ إليها في كثير من الكتب والدراسات، وقد أشار باجانيف، سكرتير ستالين الخاصّ، في السَّنَوات الماضية في مذكِّراته إلى هذه المسائل بالتفصيل[3].

---

(1) كان نشر هذه الأشرطة في البداية محدودًا، لأن حزب «توده» المنحلّ والممنوع لم يكُن يملك التجهيزات المناسبة. (المترجم).

(2) Le Monde 11 decembre 1984.

حول دور حُجَّة الإسلام خوئيني ها (الذي لا تزال له سمعة كبيرة في إيرانَ وكان رئيس مجموعة خطف رهائن السفارة الأمريكيَّة في طهران) انظر: Suzanne Labin, Penetration Sovietique eu Iran. Nouvelliste et feuille ol' Avis du Vallais, 10-11 dec.1983.

كذلك وردت معلومات مفصلة في: Express, 6-12 Juillet 1984 حول علاقة آية الله الخُمينيّ بموسكو.

(3) ذكريات Bajanov منقولة عن: Dr. Clifford A. Kiracofe. The Kremlin and History, Manchester Union Leader, July-10-1980.

بعد سنوات، أعلن الكولونيل ميشيل كلنيوسكي[1] المشهور بـ"رمانف"[2]، الرجل الثَّاني في برنامج التجسُّس السوفييتي -البولندي المشترك[3]، الذي لجأ إلى الغرب عام 1961، أنّ "آية الله الخُمَيني هو أحد عملائنا الخمسة من بين سلسلة المراجع الشِّيعِيَّة"[4].

لا يمكن لهذه المعلومة، على الأقل بهذا الشكل، أن تكون مؤكَّدة، من خلال دراستنا لجميع ما كتبه آية الله الخُمَيني وكذلك حواراتنا مع كثيرٍ مِمَّن عرفوه، لا أتصور شخصيًّا أنه كان عميلًا للسوفييت بشكل مباشر، فقد كان الخُمَيني إنسانًا محدود الفكر، ومن المؤكَّد أنه لم يكُن يبحث عن المصالح الماليَّة، وهذا أمر لا يشمل أغلب أعضاء عائلته، لكنه كان محدود الثقافة أو معدومها، وكان شديد

ترجم عنايت الله رضا مذكّرات باجانيف إلى الفارسية، لكن للأسف لم أستطِع الحصول على هذا الكتاب، ولا أعرف هل هي كاملة أم حُذفت منها أجزاء.

(1) Col. Michel Golnievsky.

(2) Romanov.

(3) التي كانت آنذاك إحدى دول الكتلة الشرقية. (المترجم).

(4) Bulletin du C.E.I, XXXIX annee, no 3-mars 2000.

السيد Piiiiierre F.de Villemarest رئيس C.E.I ونائب رئيس نادي (ضباط وكالات المخابرات الفرنسية السابقين) المتوفَّى عام 2008، قابل الكولونيل كلنيوسكي شخصيًّا، وسأله أسئلة مفصَّلة. لجأ الكولونيل كلنيوسكي في الخامس والعشرين من ديسمبر 1960 إلى قنصلية الولايات المتَّحِدة الأمريكيَّة في برلين الغربية آنذاك، وفي الثالث عشر من يناير 1961 نُقل إلى واشنطن على متن طائرة خاصَّة، ومنذ ذلك الحين اعتُبِر اللاجئَ الرسمي الذي «اختار الحرية». أسكنته وكالة المخابرات الأمريكيَّة في مبنى أمني في Mc Lean (ولاية فرجينيا)، بالقرب من مقرّ الوكالة، في البداية أجرى معه الوكلاء والمتخصصون الأمريكيّون تحقيقات مفصَّلة، ثمّ بدأ خبراء وكالات المخابرات الغربية، ومنها بريطانيا وفرنسا، التحقيق معه، واستمرّ هذا الأمر حتى عام 1964. أدّت هذه المعلومات إلى الكشف عن عشرات الجواسيس السوفييتيين في وكالات المخابرات الغربية، وكان بعضهم يتقلد مناصب مرموقة. في السابع والعشرين من مايو 1963 شهد كليونسكي أمام لجنة مختصَّة بالقضايا الأمنية في مجلس النواب الأمريكيّ، بعد هذه الشهادة وبناءً على توصية من اللجنة وتقديرًا لخدماته المهمَّة التي قدّمها للأمن الأمريكيّ مُنح جواز السفر الأمريكيّ (قرار رقم 5507).

لهذه الحادثة اليوم بُعد تاريخيّ، وحتى قصصي، لكنها آنذاك أثارت جلبة كبرى، أُعطِيَ الكولونيل كلنيوسكي راتبَ تقاعد يعادل راتب مَن هو على رتبة عقيد أمريكيّ، وحتى نهاية حياته كان يتمتّع بحماية خاصَّة في بيت آمن (أرشيف C.E.I الذي أُدمِجَ اليوم مع الأرشيف التاريخي لوزارة الدفاع الفرنسية)، كان الهدف من هذه التوضيحات إظهار عدم إمكانية تجاهل ما قاله كليونسكي.

التعصُّب ومُحِبًّا للانتقام، لم يكُن لحبه لِلجَاهِ حدود، لهذا كان يمكن بسهولة جعله ألعوبة، وهو أمر كانت تتقنه وكالات المخابرات والتجسُّس السوفييتية.

بلا شك يمكن القول إن آية الله الخُمَيني كان ألعوبة في يد أجهزة المخابرات الشرقية والغربيَّة لسنوات طويلة، وربما في المرحلة الأخيرة كان كلا الطرفين يتلاعب به. لكنه عندما وصل إلى السُّلْطة أخذ هو يتلاعب بهما، وربما كان إبداعه الأكبر هو قدرته على هذا التغيُّر، فقد كان ألعوبة ثمّ أصبح لاعبًا. بعد السوفييت انتبه الأمريكِيُّون وسائر أجهزة المخابرات الغربيَّة لوضع الخُمَيني.

في سنوات العقد السابع ظهر تيَّاران، يمكن اعتبارهما متوازيَيْن، كانا هما المؤشّر للوضع الداخليّ والمؤشّر للموقع والموقف السياسيّ والدُّوَليّ لإيران:

في السَّنَوات الأخيرة للعَقْد السابق، كان الاقتصاد الإيرانيّ آخذًا في التوسُّع بشكل معتدل وبلا أيّ مشكلات أساسيَّة، وبلغ الأمر ببعض دول العالَم الثالث أن يحسد إيران على ذلك، وتَلقَّاها البعض نموذجًا، كيف لا وقد أطلق عليها أحد الخبراء الاقتصاديُّون آنذاك لقب "دولة المساجد الزرقاء والنُّمُوّ بلا تَضخُّم"[1].

بعد المصيبة التي أصبح الخُمَيني يرأسها، والتي كانت محصورة في بضع مدن كُبْرَى ومجموعات صغيرة من الناس، نجح أمير أسَد الله عَلَم في تحقيق الاستقرار بسرعة، واستُؤنِفَت النشاطات الاقتصاديَّة المزدهرة.

في مارس 1964 حلّ حسن علي منصور، السياسيّ ذو الأربعة والأربعين عامًا الذي كانت له أهداف وآمال كبيرة لإيران، خلفًا لعَلَم، وتَسلَّم زمام شؤون الدَّولة، وبجهوده بدأ تطبيق مشروعات إصلاحية اقتصاديَّة واجتماعيَّة ضخمة في الدَّولة، فقد كان يقول إنه يجب أن تُثمِر الثَّورة البيضاء، نتيجة لذلك ازدهر الاقتصاد الإيرانيّ، وعلى أثر ذلك أصبح تَحَسُّن الأوضاع العامَّة محسوسًا ومشهودًا. كلّ المؤشّرات كانت تشير إلى أنّ القدرة الشرائية للناس ومستوى المعيشة آخذ في التحسّن. كان منصور شديد الحساسية تجاه مراعاة

---

(1) Andre Piettre عضو المعهد الفرنسي لعلوم الأخلاق والسياسة.

الوزراء والمسؤولين رفيعي الدرجة الدِقَّة والتقوى والإتقان، ولم يكُن يقبل أدْنَى انحراف. لقد قارن كثيرون في هذا المجال بينه وبين حُكُومة الدكتور مصدَّق، وكانوا يمتدحونه.

كان الجنرال حسن باكروان، رئيسًا لوكالة المخابرات وأمن الدَّولة، كان رجلًا صادقًا ودقيقًا ومراعيًا لاحترام القوانين، وكان يَحُول دون سوء استخدام هذه الوكالة صلاحيَّاتها، مِمَّا أدَّى إلى تَحسُّن السمعة السيئة التي كان جهاز "السافاك" اكتسبها، وأصبح الناس يؤمنون بهذا الجهاز ويحترمونه.

كان الجنرال تيمور بختيار، الرئيس السابق لـ"السافاك" وخريج مدرسة سان سير العسكريَّة[1]، كما ذكرنا، رجلاً مثقَّفًا وذكيًّا، لكن حياته الخاصَّة وتصرُّفاته جعلته سيِّئ السمعة أمام الناس، وكانت أساليب "السافاك" تثير انتقادات كثيرة.

كان الجنرال باكروان صادقًا وصاحب فهم: لقد كان في الاتِّجاه المغاير للجنرال بختيار في كثير من الجوانب.

في عهد حُكُومة منصور حدث بعض التوتُّرات بين الشَّاه ورئيس الوزراء، لم يكُن منصور يطمح بعد مثل قوام[2] ومصدَّق[3] وزاهدي[4] إلى فكرة أن الحُكُومة هي التي يجب أن تحكم وأن الشَّاه يجب أن يكتفي بالملكيَّة، أو أن

---

(1) Saint Cyr كانت ولا تزال إحدى المدارس العسكرية المعروفة في العالَم. (المترجم).

(2) رئيس وزراء إيران (14 فبراير 1945-28 ديسمبر 1947)، رجل الدولة الذي تَغلَّب على ستالين، وأنقذ أذربيجان (الإيرانية) وأجزاءً من كردستان من سلطة السوفييتيين، وقضى على الحكومات الانفصالية التي ظهرت في تلك المناطق.

(3) رئيس وزراء إيران (2 مايو 13-1951 أغسطس 1953، باستثناء استراحة لِمُدَّة خمسة أيام) الذي أنهى هيمنة بريطانيا العظمى السياسيَّة على إيران، وأمَّم صناعة النِّفْط، يُعتبر في إيرانَ أحد رموز الاشتراكية الجديدة.

(4) وزير الداخلية، وخليفة مصدِّق، كان رئيسًا لوزراء إيران في الفترة 13 أغسطس 19-1953 أبريل 1955)، أعاد الشاه إلى إيران، وأجلسه على العرش ثانيةً، لكن بسبب الخلافات السياسيَّة أُجبِرَ على الاستقالة ومغادرة إيران، قارنه المؤرِّخون بالجنرال جورج مونك (George Monk) رفيق أوليفر كرومول الشهير، الذي أعاد الملكية إلى بريطانيا بعد موت كرومول.

هذه الفكرة لم تكُن تبلورت لديه بعد. مع هذا كان يريد أن يتمتَّع بسلطات تنفيذية أوسع. وكان يقاوم أمام توقُّعات وتدخلات وتحريضات البلاط، وحتى بعض أفراد العائلة المالكة.

بعد مقتل حسن علي منصور في يناير 1965، عُيِّن أمير عباس هويدا، الذي كان وزيرًا للمالية في حُكُومة منصور، رئيسًا للوزراء، وبقي متصدرًا السُّلْطة حتى أغسطس 1977، أي ما يقارب ثلاثة عشر عامًا.

في السَّنَوات الأولى لحُكُومة هويدا بقي الاقتصاد الإيرانيّ مزدهرًا كما كان، ولم تظهر أيّ مشكلة سياسيَّة أو اجتماعيَّة كبيرة في الدَّولة. في تلك السَّنَوات وبمبادرة من الشَّاه، ودعم وموافقة الملك فيصل ملك السُّعُوديَّة الذي قُتل بشكل غامض عام 1975، استطاعت إيران أن ترفع أسعار النِّفْط الخام في الأسواق العالَميَّة مرتين، وقد دفع الشَّاه لاحقًا ثمن هذا التعدِّي على مصالح شركات النِّفْط العالَميَّة والدُّوَل الصناعيَّة المتقدِّمة. أدَت العوائد الماليَّة الناتجة عن ارتفاع سعر النِّفْط في فترة وجيزة إلى ثراء الدَّولة. وأصبحت الخزانة تحتوي على أموال طائلة، لكن للأسف لم تنجح السياسات التنفيذية في استخدام هذه المصادر الماليَّة الضخمة بالشكل الصحيح. فظهرت ضغوط كثيرة بسبب التضخُّم مِمَّا أدَّى إلى بروز توتُّرات سياسيَّة واجتماعيَّة جِدِّيَّة.

كان أمير عباس هويدا إنسانًا صادقًا ومثقَّفًا وكثير القراءة، كان يُتقِن عدة لغات بشكل كامل، لكن لم يكُن يملك النظرة المستقبَليَّة والآمال البعيدة لإيران التي كانت لدى منصور، كان يستمتع باللُّعْبة السِّياسِيَّة قصيرة المدى، كان يريد أن ينال كلُّ ما يفعله استحسانَ الشَّاه والمِلِكة والعائلة المالكة وحاشيتهم، لم يكُن دقيقًا ولا مقتصدًا في إنفاق المال العامّ، بل كان مبذِّرًا، كان يشتري معارضيه، وكان يمنح هذا وذاك امتيازات قانونيَّة أو غير قانونيَّة لإسكاتهم أو ليجعل منهم مؤيِّدين له.

في حين كانت مشكلات الدَّولة تزداد يومًا بعد يوم، بنى هويدا، الذي لم يعُد قادرًا على رفض مطالب أصحاب السُّلْطة والنُّفُوذ، جدارًا حول الشَّاه، مِمَّا

جعله بالتدريج مغيَّبًا عن حقيقة أوضاع الدَّولة. لقد كان يشغل الشَّاه بآماله الوطنيَّة والدنيوية الكبيرة حول تَعاظُم قدرة ونفوذ إيران والتقسيم العادل لثروات العالَم. ونتيجة لذلك كان جهل محمد رضا شاه بما يجري حوله يزداد أولًا بأول. أو على الأقلّ كان يظنّ أنّ كلّ شيء يسير وَفْق المراد.

في أواسط السبعينيَّات تسلّم الشَّاه بعض التقارير الموثَّقة[1] التي كانت تُعتبر آنذاك جريئة بالنظر إلى الفضاء السياسيّ. لفتت هذه التقارير المدروسة نظر الشَّاه إلى أخطاءٍ متنوعة. منها المصيبة التي نتجت عن نشاطات شبكة كانت تُسَمَّى "غرفة التجارة" (التي كانت من أفكار المشير نعمت الله نصيري رئيس الوزراء ورئيس جهاز المخابرات وأمن الدَّولة[2]) والتي أثارت خلال مدة وجيزة السُّوقَ وأصحاب الحِرَف والصناعات والطبقة البرجوازية المتدنية والمتوسطة ضِدّ الحُكُومة. بالإضافة إلى تطاول "السافاك" وارتكابه أخطاءً عديدةً. وانعدام المشاركة السِّياسِيَّة الحقيقيَّة للناس في اتِّخاذ القرار بخصوص الشؤون العامَّة.

لم تؤدِّ هذه التقارير والتحذيرات إلى نتيجة. كان مستقبَل إيران في تلك الأعوام. في الظاهر، مُشرِقًا ومليئًا بالأمل: لقد كانت إيران دولة مقتدرة ومزدهرة، كان لها احترام في العالَم، حتى إن كثيرين كانوا يخافونها. كان محمد رضا شاه البهلوي ينظر إلى المستقبَل البعيد، كان رئيس وزرائه ورئيس جهاز مخابراته يطمْئِنانه أن الأمور تسير على ما يرام، وكلّ شيء في تحسُّن مستمرّ، والجميع راضٍ. كان رئيس "السافاك" نَسِيَ وظيفة جهازه الأساسيَّة وهي توقُّع وتحليل القضايا، وظنّ أنّ حلّ المشكلات يكون فقط عن طريق العنف. كان رئيس الوزراء وبعض المقرَّبين يعتقدون أنه لا يجب "أن يُشغَلَ ذهنُ الشَّاه الميمون"، بل يجب أن يبقى ذهنه مستريحًا، ليتمكن من حلّ القضايا التي

(1) عن طريق مجموعة من المثقفين والأكاديميين، معروفة بـ"مجموعة التحقيق في شؤون إيران"، وأيضًا عن طريق القائد العامّ للقوات المسلَّحة الملكية.

(2) لا يوجد أي صلة قرابة بين المشير نصيري الذي كان من مدينة سمنان، والدكتور محمد نصيري الذي كان من مدينة أصفهان، وأُشيرَ إليه في عدة مواطن من هذا الكتاب.

تليق بمكانته، أي القضايا النِّفطيَّة والعسكريَّة والدَّوْليَّة. والحقيقة أن محمد رضا البهلوي كان بارعًا في هذه القضايا، لكنه كان غافلًا عما يجري في "الجبهة الخلفية"، أو بالأحرى جَرَى تغفيله.

ظهرت، على ما يبدو، في عام 1974 أولى علامات مرضه الشديد الذي ابتُلِيَ به، كان نوعًا من أنواع السرطان، لكنهم لم يخبروه عنه حتى عام 1976، وبقي أمر المرض مُخفًى عن الجميع، وعلى ما يبدو ترك هذا المرض أثرًا غير مرغوب فيه على تصرُّفاته، بخاصَّة في سنوات حكمه الأخيرة.

وعلى هذا النحو تَهَيَّأَت كل الظروف للفاجعة التي تَعَرَّضَت لها إيران، على الساحة الداخليَّة.

***

في تلك السَّنَوات كان محمد رضا شاه يسعى جاهدًا لتخليص إيران من قيود التبعية للغرب، بخاصَّة للولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة.

كانت السِّياسة النِّفْطيَّة أوَّل مظاهر إرادة الشَّاه، وربما قلقه. لقد أدَّى رفع أسعار النِّفط في السُّوق العالَمِيَّة، وهي المبادرة التي نفَّذها الشَّاه والملك فيصل، إلى توجيه ضربة قوية إلى اقتصاد العالَم الغربيّ الذي نما لسنوات عِدَّة بسبب امتلاكه النِّفط رخيص الثمن. في البداية ربما كانت الولايات المتَّحدة موافقة على رفع أسعار النِّفط الخام بشكل محدود ومتوازن، لكن الشَّاه والملك فيصل تجاوزا هذا الحدّ. بعد مقتل الملك فيصل نجح الأمْرِيكِيُّون في هداية السُّعُوديَّة إلى "الطريق المستقيم"، لكن محمد رضا البهلوي لم يكُن ليرضخ، ولم يرضخ، وكان يعلن أنّه يجب إنهاء التعاون مع الشركات النِّفْطيَّة الكُبْرَى متعدِّدة الجنسيَّات بالتدريج، وأن تتولَّى إيران جميع مراحل استغلال الثَّرْوة النِّفْطيَّة، ابتداءً من استخراجه حتى مرحلة تصفيته وتوزيعه في أرجاء العالَم، وحدَّد نهاية عام 1979 تاريخًا نهائيًّا لتحقيق هذا الهدف بشكل

كامل[1]. لقد أصبحت المواجهات والأزمة بين الدَّولة والشركات النِفْطيَّة متعددة الجنسيَّات علنيَّة.

بعد الملك فيصل دفع محمد رضا شاه أيضًا الثمن غاليًا. لكن إيران لم تكُن كالسُّعُوديَّة التي تعتمد فقط على النِفْط[2]. فقد كانت -ولا تزال- دولة بعمر آلاف من السنين المشرقة، وتصل جذور ثقافتها وحضارتها إلى نقطة بداية المجتمَعات البشرية، وكانت على مرّ قرون طويلة إحدى القوى العُظْمَى في العالَم، وكان الإيرانيّون -ولا يزالون- يفتخرون بهذا التَّاريخ.

لم يكُن سيناريو المسرحية الذي كُتب لإيران مشابهًا لسيناريو السُّعُوديَّة.

***

منذ أواخر ستينيَّات القرن العشرين أدَّت التوجُّهات السِّياسِيَّة لإيران على الصعيد الدوليّ إلى تصاعد القلق في واشنطن.

في أبريل من عام 1974 بعثت سِفَارة الولايات المتَّحدة في طَهْرَانَ تقريرًا إلى وزارة الخارجيَّة الأمْرِيكِيَّة تذكر فيه أن إيران تريد تقديم مساعداتها للدول النامية. ويمكن لهذا التوجُّه أن يكون مخالفًا لأهداف الولايات المتَّحدة السِّياسِيَّة[3].

في يوليو من نفس العام أبدت سِفَارة أمريكا في طَهْرَانَ قلقها إزاء رغبة إيران في أن تعتمد فقط على قدرتها العسكريَّة والصناعيَّة[4].

(1) منها خطاب الشاه أمام المؤتمر الذي أقيم تخليدًا لذكرى الثَّوْرة البيضاء العاشرة بتاريخ 23 ديسمبر 1973، وكذلك خطابه في إحدى الجلسات بحضور خبراء النِّفْط الدوليين، وأيضًا خطابه بتاريخ 19 مارس 1973 في أثناء افتتاح مجمَّع صهر الصلب في أصفهان، الذي كان يعارض إنشاءه بشدة كل من البنك الدولي للإنشاء والتعمير I.B.R.D، وصندوق النقد الدولي M.I.F.
هنا أتقدم بالشكر الجزيل للسيد نور محمد عسكري، المؤرِّخ والمحقِّق الإيراني المقيم في السويد، الذي زوّدني بنصوص هذه الخطابات والشريط الصوتي لها.

(2) Petro-Monarchie.

(3) تقرير سفارة أمريكا في طهران المرسل إلى وزارة خارجية أمريكا، وثائق سفارة أمريكا في طهران (وثائق وكر التَّجَسُّس)، الجزء الثامن، ص2.

(4) المرجع السابق، ص103.

تحليل آخر بتاريخ 24 يونيو 1974 تناول "تعاظم القدرة الإيرانيَّة"، كان من نتائجه أنه يجب عدم السماح لإيران بفعل ما تشاء[1].

في السابع والعشرين من مايو 1976، أرسل ريتشارد هولمز[2]، الرئيس السابق لـ"سي آي إيه" الذي عُيِّنَ سفيرًا في طَهْرَانَ، تقريرًا إلى حكومته يفيد فيه بأن الشَّاه والحُكُومة الإيرانيَّة لم يعودوا يَثِقُون، كما كانوا، بقدرة أمريكا على تزويدها بالأسلحة التي تحتاج إليها بلادهم[3].

لم تكُن الحقيقة مغايرة لذلك، فمنذ أوائل السبعينيَّات بدأت إيران، بالتدريج وبهدوء كامل، تنوِّعُ المصادر التي تزوّدها بالأسلحة والعتاد الذي يحتاج إليه الجيش. فعقدت في البداية اتِّفاقيَّات عِدَّة مع بضع دول غربيَّة كفرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربيَّة وبريطانيا العُظْمَى وإسرائيل، كما وقَّعَت معاهدات مع الاتِّحاد السوفييتي لتزويدها بالأسلحة الخفيفة[4]، وفي عام 1978 جرَت اتّصالات جادَّة بهذا الخصوص مع الجانب التشيكوسلوفاكي، وكانت على وشك أن تؤتي ثمارها.

بالتزامن مع هذا التغيُّر التدريجيّ، وبمبادرة من الشَّاه، أقدمت إيران وعلى وجه السرعة على تأسيس صناعة عسكريَّة وطنيَّة، لا تقتصر على الأسلحة الخفيفة كالبنادق والرشاشات، بل تتعداها إلى الأسلحة المتطوِّرة عالية الدِّقَّة. كان يُقال في العلن إن إيران يجب أن تصل في هذه الأسلحة إلى مستوى إسرائيل، بل وأن تتفوق عليها، على هذا النحو في أواسط سبعينيَّات القرن الماضي، عندما تَغَيَّرَت السِّياسة الأمْرِيكِيَّة تجاه إيران، فقدت أمريكا احتكارها لتوريد الأسلحة التي يحتاج إليها الجيش الإيرانيّ، وعلى هذا الأساس كانت سوقًا مهمَّة، بل وأداة نفوذ إلى بلدنا (إيران) على وشك أن تفلت من يدها.

لقد كانت قدرات الدَّولة الماليَّة وكفاءة المهندسين والخبراء، تجعل تحقيق

---

(1) نفسه، ص136-146.

(2) Richard Helms.

(3) المرجع السابق، ص150.

(4) من ضمنها أسلحة لقوات الدرك. (المترجم).

هذه الطموحات والآمال أمرًا سهلًا. لقد كان هدف إيران الوصول إلى مرحلة متقدمة في هذا المجال وبالسرعة الممكنة. لم يكُن هذا الهدف غيرعاديّ وغير منطقيّ. بل كان يتناغم مع القُدُرَات الماليَّة والبشرية والحضور على الصعيد الدوليّ والتَّاريخي لإيران. لكن وكالة المخابرات الأمْرِيكِيَّة كانت ترى فيه علامة على "جنون العظمة والطُّمُوح الخارج عن حدود الشَّاه. وعُقْدته تجاه الدَّوْر الثانوي الذي أُعطي لبلده. أو عقدته تجاه ماضيه وأنه من عائلة عادية"[1]. وبلغ الأمر بوليام سايمون[2] وزير الخزانة الأمْرِيكِيّ. أن يدعو الشَّاه بشكل علني ورسمي بـ"المجنون"[3].

"لقد كانت الثَّورة الإيرانيَّة في الحقيقة انتقام الغرب من الشَّاه وطموحه". حتى إنّ بني صدر[4] أقرّ بأن السّياسة الأمْرِيكِيَّة كانت تسعى للتخلُّص من الشَّاه[5].

في هذه البُرْهة من الزمان "لم تعد مصالح الشَّاه ومصالح أمريكا واحدة. كان الشَّاه يعتقد أنه محتاج إلى الأمْرِيكِيّين بقدرما الأمْرِيكِيُّون يحتاجون إليه"[6].

"لم يكُن الأمْرِيكِيُّون يريدون حليفًا. كانوا يريدون دولة عميلة. لم تكُن إيران كجمهوريَّات أمريكا المركزية العميلة. كانت إيران دولة عريقة. مرَّت في تاريخها بتقلُّبات كثيرة. لقد وجدت إيران استقلالها وكبرياءها ثانيةً. من هنا بدأ التباعد السياسيّ بين البلدين"[7].

كان لنيقولا نصر. وهو أستاذ لبناني معروف في العلوم السِّياسِيَّة والاجتماعيَّة.

---

(1) انظر: تقرير وكالة المخابرات الأمريكيَّة الذي نُشر محتواه في يوليو 1975 في بعض الصحف الأمريكيَّة. انظر: Le Monde, 20-8-1980.

(2) William Simon.

(3) وردت هذه الحادثة بالتفصيل في كتاب William Shawcross بعنوان: Le Shah, exil et mort d'un personage encombrant, Paris, Stock, 1988, PP. 197- 198. ونحن استندنا إلى الترجمة الفرنسية للكتاب.

(4) أبو الحسن بني صدر، أول رئيس للجمهورية الإسلاميَّة. (المترجم).

(5) IMPACT, GENEVE, Mars 1985.

(6) Mohammad H. Heykal, Khomeyniet sa revolution, op. cit, P. 20.

(7) Gholam Reza Pahlavi, Mon Pere, mon frere, les Shahs d' Iran, Ed. Norman, 2004, PP. 255-256.

تحليل اقتصاديّ لهذه الأحداث: "إن تطبيق الأحكام القرآنية يمنع دول العالَم الإسلاميّ من التنمية والتقدُّم والتجديد، وبقاء هذه الدُّوَل في حالة من التخلُّف أمر يصبّ في مصلحة الرأسماليَّة الأمْرِيكِيَّة والرأسماليَّة الغربيَّة، التي تريد أن تبقى هذه الدُّوَل أسواقًا ابتدائية مستهلِكة لمنتجاتها"[1].

كذلك كتب أحد المتخصصين الفرنسيين في العلوم السِّياسِيَّة: "من وجهة نظر أمريكا، على الدُّوَل المنتجة للموادّ الخام أن تبقى ضعيفة من الناحية الاقتصاديَّة ومطيعة من الناحية السِّياسِيَّة، لا أن تمتلك قدرة اقتصاديَّة وصناعيَّة وعسكريَّة وفنّيَّة، الهدف هو أن تبقى هذه الدُّوَل سوقًا استهلاكيَّة، وأن لا تتخلَّى عن تبعيتها السِّياسِيَّة والعسكريَّة لأمريكا والغرب.

على الرغم من أن إيران كانت مَمْلَكَة ضِدّ الشيوعيَّة، فإن استقلالها السياسيّ والاقتصاديّ والعسكريّ المتزايد، كان يجعلها تخرج عن ربقة سلطة الأجهزة الأمْرِيكِيَّة. لذا قرَّر الأمْرِيكِيُّون أن يمسكوا بزمام حالة السخط التي ظهرت في إيران، والتي كان يقودها ائتلاف متشكِّل من الشيوعيِّين وجناح من المؤسَّسة الدِّينِيَّة الشِّيعِيَّة، وأصبح رُوح الله أداة هذه اللُّعْبة، مرَّةً أُخرى استغلّ الأمْرِيكِيُّون أداة الدِّين لبلوغ أهدافهم السِّياسِيَّة"[2].

في أثناء هذه الحرب الباردة، شاعت "نظريَّة" احتلَّت أهَمِّيَّة خاصَّة بين بعض الخبراء السياسيّين وفي الأوساط الغربيَّة، بخاصَّة الأمْرِيكِيَّة، هي إقامة "حزام أخضر" على الحدود الجنوبية للإمبراطورية السوفييتية، ومن خلاله يستطيعون وقف التوسُّع الشيوعيّ في الدُّوَل الإسلاميَّة، وكذلك استغلال أداة الدِّين لإثارة الفَوْضَى في الجمهوريَّات الإسلاميَّة التابعة للاتِّحاد السوفييتي الاشتراكيّ[3].

(1) Nicolas Nasr, Le suicide americain, Dar-El- Amal, Beyrouth, 1983, P. 314.

(2) Alexandre del valle, Islamisme et Etats- Unis, L'Age d' Hommw, Lausanne, 1988, P.130.

(3) «حزام أخضر يعتمد على إيران والعراق وسوريا التي لها علاقات وديّة مع تركيا... من وجهة نظر الأمريكيّين كان باستطاعة هذه المجموعة أن تقف في وجه الاتحاد السوفييتي، وتَحُول دون تَوَغُّله في المنطقة بشكل أفضل وأسرع من إرسال قوات عسكرية»، منقول عن مقال لوليام سوليفان William Sullivan سفير الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة في إيرانَ في زمن الثَّوْرة (Baltimor

يمكن تصوُّر كيف كانت فكرة إسقاط الشَّاه وإدخال إيران في فَوْضَى تتشكَّل في أمريكا في سبعينيَّات القرن الماضي، وجاءت هذه النظريَّة بالإضافة إلى اعتبارات أُخرَى، خصوصًا القلق من صعود القُوَّة الإيرانيَّة وطموحات الشَّاه، لتساعد في تبرير سياسة واشنطن الرَّسْميَّة.

***

أسهم بعض مواقف سياسة طَهْرَان الخارجيَّة، التي كانت تُسَمَّى بشكل رسمي "السِّياسة القوميَّة المستقلَّة"، في استياء الأمْرِيكِيِّين من إيران وتأييدهم سياسة إسقاط الشَّاه فيها. أحد هذه المواقف كان التحالُف الإقليمي الأمنيَ للخليج العربيّ والمحيط الهنديّ، الذي على أساسه كان يتوجَّب على جميع القُوَّات العسكريَّة للدول "التي لا تنتمي إلى المنطقة"، أي الدُّوَل التي لا تمتلك سواحل على الخليج العربيّ أو المحيط الهنديّ، مغادرة المنطقة، وأن تتولى دول المنطقة حماية أمنها، وكان المقصودَ من هذا الولاياتُ المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة، وبريطانيا العُظْمَى، والسوفييت، والفرنسيون. كان الشَّاه يعتقد أن إيران تستطيع أن تكون قائدًا للمنطقة والقاعدةَ الأساسيَّة لهذا التحالُف، بالنظر إلى القُوَّة والنُّفُوذ اللذين كانت قد اكتسبتهما. بَرْهن النجاح الذي حقَّقته القُوَّات المسلَّحة الإيرانيَّة في قمع المتمرِّدين الشيوعيِّين في عُمان، المدعومين من الصين، على القُدُرَات التي تتمتَّع بها هذه الدَّولة، بخاصَّة بعد الخسارة الفاضحة التي مُنِيَت بها قُوَّات بريطانيا العسكريَّة هناك. لقد فوجئ كثيرون من انتصار إيران في هذه الأحداث وأثنوا عليها، وأصاب القلق آخرين من أن تنوي إيران التدخُّل العسكريّ في نقاط أُخرَى من دول المنطقة.

(Sun 1981)، أُدرِجَت هذه المقالة بالإضافة إلى وثائق جديرة بالاهتمام في الكتاب التالي: NAZIR FANSA, Teheran, destin del' Occident, Pierre Seusrt, e'diteur, Paris, 1987.

عاش مؤلِّف هذا الكتاب، الذي هو حقوقيّ وسياسيّ وصحفيّ سوريّ، في إيران 23 عامًا، وشارك في مهامّ سياسيَّة غير رسمية أو سريَّة في الدول العربية. يشتمل كتابه الذي ألَّفه عن الثَّوْرة في إيرانَ على بعض الآراء الجديرة بالاهتمام في هذا المجال، يتميَّز تحليله لدور ونصيب الولايات المتَّحِدة في الثَّوْرة بالدِّقَّة والتوثيق.

كانت دعوات إيران المتكررة لخلع السلاح النَّوَوِيّ من المنطقة ومنع صناعته واقتنائه، سببًا آخر لقلق أمريكا وحلفائها، فقد كان المقصود من هذه الدعوات بطبيعة الحال إسرائيل.

بعد أن اشترت إيران عشرة في المئة من رأسمال الشركة الفرنسيَّة "أوروديف"[1] وبدأت بناء أربعة مراكز كبيرة لتوليد الطاقة النَّوَوِيَّة، برزت المخاوف في بعض الأوساط من أن ينوي الشَّاه بعد ذلك الحصول على السلاح النَّوَوِيّ. فالكُلُّ كان يعلم أن إيران تملك القُدُرَات الماليَّة والبشريَّة لذلك: كان محمد رضا البهلوي دائمًا يقول: "إيران هي إيران"، ويقصد من ذلك أنها قادرة على فعل أي شيء بسبب تاريخها العريق وأهدافها الكبيرة. كان لهذا الكلام وقع سيِّئ على كثيرين.

"في عام 1977 قررت الولايات المتَّحدة أن تتخلص من الشَّاه. كانت إيران أصبحت شريكة في رأسمال شركة (أوروديف)، وكان بإمكانها أن تصبح قوة نَوَوِيَّة عُظْمَى غير عسكريَّة خلال بضعة أعوام... لقد حانت ساعة إسقاطه، لذا بدأت في الخفاء الاستعدادات لإسقاط الشَّاه وتحضير خليفته"[2].

كانت حرب أكتوبر[3] هي المسمار الأخير في نعش العَلاَقات الحسنة بين طَهْرَان من ناحية، وواشنطن وتل أبيب من ناحية أُخرى[4].

اعترفت إيران بإسرائيل منذ بداية تأسيسها، وكانت العَلَاقات بين البلدين وُدِّيَّة وعلى مستوى استثنائيّ، وحتى على مستوى التعاون العسكريّ وتبادل المعلومات، كما لعبت إيران دورًا مُهِمًّا في إخراج اليَهُود من العراق، الذين كانت تواجههم مخاطر بعد الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل[5]. كان هذا العمل الإنسانيّ أمرًا طبيعيًّا يتماشى مع التقاليد الوطنيَّة والتَّارِيخيَّة الإيرانيَّة، وكان الإسرائيليُّون يقدِّرون ذلك.

---

(1) Eurodif: شركة لتخصيب اليورانيوم. (المترجم).

(2) Dominique Lorentz, op. cit. 172.

(3) Kipour، وتُسَمَّى عند العرب بحرب رمضان. (المترجم).

(4) Tel- Aviv.

(5) كان محمد ساعد رئيسًا للوزراء آنذاك، وكان الجنرال -الفريق في المستقبَل- فضل الله زاهدي قائدًا للشرطة الإيرانية، وقد وُكِلَت إليه هذه العملية. (المترجم).

وبتحليل الروايات والوثائق التي انتشرت حتى الآن، أصبح قطعيًّا أن الشّاه كان مطَّلِعًا على تفاصيل تجهيزات الهجوم المصري على إسرائيل. ولأول مرة تَمَكَّن المصريون في هجوم مفاجئ من عبور قناة السويس والدخول إلى سيناء. كان هذا هو النجاح العربيّ الوحيد أمام إسرائيل، على الرغم من أنهم تراجعوا لاحقًا. لكنّ الأمر اعتُبر انتصارًا وقُدّم للرّأي العامّ العربيّ على هذا الأساس.

كان الشّاه يعلم بذلك، لكنه لم يخبر حلفاءه الأمْريكِيّين والإسرائيليّين بالتحضيرات التي كانت تتمّ لهذا الهجوم(1).

بالإضافة إلى ذلك، عند بدء الهجوم سمحت إيران لعدد من طائرات الشحن السوفييتية بعبور أجوائها وإيصال كميات كبيرة من الأسلحة إلى سوريا ومصر على وجه التحديد. وبطبيعة الحال علم المسؤولون الأمْريكِيُّون والإسرائيليُّون بهذا الأمر، واحتجُّوا بشِدَّة لدى الحُكُومة الإيرانيَّة. لم يُولِ الشّاه اهتمامًا لذلك في بادئ الأمر منتظرًا أن تصل الأمور إلى نتيجة، لكنه بعدها أصدر أمرًا بمنع عبور الطائرات السوفييتية الأجواء الإيرانيَّة.

بالتزامن مع ذلك أمر الشّاه بمنح مصر مبلغ مليار دولار مساعدات فوريَّة وطارئة، الأمر الذي كان محلًّا للاحترام والتقدير.

بناءً على ذلك لعبت إيران دورًا مُهمًّا في الانتصار الباهت للمصريين على إسرائيل، اعتبر الرَّأي العامّ العربيّ هذه المعركة نصرًا، النصر الأول و"الوحيد" للعرب على الإسرائيليّين.

كان محمد رضا البهلوي يظنّ أن هذا النصر الناقص كافٍ لإعادة الهيبة إلى مصر، القُوَّة الكُبْرَى بين الدُّوَل العربيَّة، فقد سمح لها برفع رأسها والجلوس إلى

---

(1) Houchang Nahavandi, Iran, Le choc des ambitions, Chapitre XII, Houchang Nahavandi, Le Grand mensonge Dossier noir de l'integrisme Islamique, Paris, N.E.D, 1984, Chaopitre IX.

Christian Pahlavan, De l' anour a' la haine 1

L'Iran et Israel, Politique inter nationale, no 19, printeuys 1983.

طاولة المفاوضات مع إسرائيل دون شعور بالانكسار، من أجل تحقيق صلح حقيقيّ في ظروف متعادلة.

ونتيجة لذلك كان للدبلوماسية الإيرانيَّة دور كبير في بداية المفاوضات بين مصر وإسرائيل، التي كان من نتائجها المباشرة لقاء رؤساء الدُوَل المتحاربة في كامب ديفيد[1] والتوافقات التي تمَّت لاحقًا.

يبدو أن الأمْريكِيّين والإسرائيليّين لم يسامحوا الشّاه وإيران إطلاقًا على هذه "الخيانة"، فقد كانوا يتوقعون أن يخبرهم الشّاه بما يعرف، وكذلك كان عليه أن لا يسمح لطائرات الاتِّحاد السوفييتي بعبور أراضيه، ولا أن يضع بعد ذلك مليار دولار تحت تَصَرُّف مصر.

***

أصبحت فكرة إيجاد اضطرابات في إيرانَ والسَّعْي لإحداث تغيير أساسيّ فيها تتبلور بالتدريج في الولايات المتَّحدة الأمْريكِيَّة، وكانت أسباب استياء الأمْريكِيّين من الموقف السياسيّ لإيران تزداد يومًا بعد يوم.

برز هذا الاستياء في أواخر حُكُومة الجمهوريّين برئاسة جيرالد فورد[2]، وأشرنا في هذا الكتاب إلى بعض من دراسات متعددة، وكثير من الوثائق التي يمكن الوصول إليها اليوم، التي توضّح هذا الأمر. فمنذ عام 2008 حين أصبح الوصول إلى هذه الوثائق مُمكِنًا، لم يعُد شَكٌّ في أن التحضيرات لـ"ثورة إسلاميَّة" وصناعة شخصيَّة "قائد" عظيم لها، يعني آية الله الموسوي الخُمَيني، وإبرازه على السَّاحة، قد بدأت في هذا الوقت.

بطبيعة الحال فإن الاستياء المتصاعد على الصعيد الداخليّ وأخطاء مسؤولي الحُكُومة في طَهْرَانَ في إدارة شؤون الدَّولة، استُغِلَّت بمهارة فائقة، وفي كثير من الحالات كانت تُثار الفَوْضَى لتسريع الأحداث.

---

(1) Camp David.

(2) Gerald Ford.

على هذا النحو يجب القول إن العوامل الداخليَّة والخارجيَّة للثَّوْرة الإسلاميَّة تضافرت، بل وأُدمِجَت معًا.

في أغسطس 1974 قال هنري كيسنجر في اجتماع لِمَجلِس الأمن القوميّ الأمْرِيكِيّ: "إن استمر الشَّاه في سياساته النِّفْطيَّة في إطار منظَّمة (أوبك)، فمن الممكن أن يظنّ أن نفوذه في المنطقة في توسُّع مستمرّ. سيأتي اليوم الذي نمتحن فيه الشَّاه شخصيًّا. لا شك أنه في الوقت الحالي ينتهج سياسة تمكّنه من تعريضنا لضغوطٍ يومًا ما، عندها يجب أن نعتبره معارضًا لمصالحنا. من السهل أن نظنّ عكس ذلك.

الشَّاه يطمح إلى أن يحول بلده إلى قوة عُظْمَى، وذلك ليس بمساعدتنا والاعتماد علينا، بل باستغلال الإمكانيَّات والعوامل التي يزوِّده بها جيرانه الرّوس. يوجد هنا بين الحاضرين من يعتقد بوجوب أن يغيّر الشَّاه من نفسه، أو أن يُغَيَّر"[1].

هذا التحليل الذي يشبه أسلوب حديث الرئيس الأسبق للدبلوماسية الأمْرِيكِيَّة ومَجلِس الأمن القوميّ في ذلك البلد، يلخِّص ويفسِّر سياسة الولايات المتَّحدة خلال السبعينيَّات، سواء في عهد الجمهوريّين أو في عهد الديمقراطيّين.

لم يغيّر الشَّاه من نفسه، كان عليه اتِّخاذ تدابير سياسيَّة داخليَّة أُخرى من أجل مقاومة ضغوط الأمْرِيكِيّين وحلفائهم، وأن يبدأ بإجراء إصلاحات سياسيَّة جدِّيَّة من منطلَق السُلْطة التي يملكها، لكنه لم يفعل ذلك. اتبعت واشنطن في المقابل سياسة مختلفة، هي "الثَّورة الإسلاميَّة".

في صيف عام 1977 حذَّر اثنان من المسؤولين الأتراك رفيعي الدرجة، عن طريق سفير إيران الأسبق لدى تركيا الذي كانت تربطهما به عَلَاقات صداقة وكان يقضي عطلته هناك، الشَّاه من أن واشنطن بصدد اتِّخاذ سياسة إثارة الفَوْضَى في إيران، ومن أجل ذلك ستستغل "العنصر الدينيّ" و"عليه في المقابل أن يتعامل مع الأمْرِيكِيّين بحيطة وأن يحذر منهم"[2].

---

(1) أرشيف ومركز وثائق C.E.I. آخر جملة في هذا التحليل الطويل نسبيًا «يتوجب على الشاه أن يغير نفسه أو أن يُستبدل به - "Le Shah do it changer ou onu do it le changer"، غالبًا ما تَرِدُ وحدها مجتزَأة من خطاب كيسنجر، في المقالات والدراسات المتعلقة بالثَّوْرة الإسلاميَّة.

(2) روى المرحوم جمشيد قريب، سفير إيران الأسبق لدى تركيا، هذه القِصَّة لي باختصار بعد عودته من تركيا، كذلك أطْلَعَ عليها صهره الدكتور داريوش شيرواني، نائب رئيس جامعة طهران

إن لشهادة الكونت ألكساندر دو مارانش[1] التي نُشرت بعد سنوات، أهَمِّيَّةً كبيرة، ولها بعد تعليمي:

"ذات يومٍ ذكرْتُ للشَّاه أسماء الأشخاص الذين وُكِّلَت إليهم مَهَمَّة البحث في كيفيَّة عزله، وإيجاد خليفة له، حتى إنني شخصيًّا قد اشتركت في جلسة كان موضوعها يدور حول كيفيَّة إجبار الشَّاه على ترك الحكم والعثور على شخص يمكن جعله خليفة له. لم يهتمّ الشَّاه كثيرًا بكلامي وقال: (أنا أصدِّق كلّ ما تقول ما عدا هذه). أجبته: (يا جلالة الملك، لماذا تصدِّق كلّ ما أقول ما عدا هذه المسألة؟). قال: (لأن الاستبدال بي عمل في غاية الحمق؛ أنا أفضل مُحامٍ عن الغرب في هذه البقعة من العالَم، هذا الكلام غير معقول لدرجة أنني لا أستطيع تصديقه)"[2].

استنتج ألكساندر دو مارانش أنّ "الحقيقة هي أنّ الأمْرِيكِيِّين كانوا قد اتّخذوا قرارهم"[3].

***

آنذاك، حاول جمشيد قريب أن يقابل الشاه، في البداية لم يُسمح له لأنه كان سفيرًا متقاعدًا، وفي النهاية نجح في الوصول إلى الشاه، وروى له القِصَّة ذاكرًا اسم الشخصيتين التركيتين، فرَدّ عليه الشاه بحِدَّة: «لا تُعِرِ ثرثرات المآدب هذه اهتمامًا»، وأضاف: «قل لنهاوندي وشيرواني أيضًا إن تَكرار مثل هذه المسائل غير مسموح به».

(1) Le Conte Alexandre de Marenches رئيس وكالة المخابرات الفرنسية (D.G.S.E) وأحد المقرَّبين من الشاه، كان صاحب نفوذ كبير في الأوساط المخابراتية والأمنية في (العالَم الحُرّ)، لا يمكن اعتبار شهادته خاطئة لأنها تتطابق مع جميع الروايات والقرائن الأخرى، وهو لم يكُن حكواتيًا. (المترجم).

(2) Alexandre de Marenches, Pp. 364- 365.

(3) المرجع نفسه.

التغيُّر في الأوضاع الدوليَّة، بخاصَّة التغيُّر الذي حدث في موقف الأمْرِيكِيّين والغربيين من إيران، أدَّى بالتدريج إلى تغيُّر موقف وظروف حياة ونشاطات آية الله الخُمَيني في النّجف.

قلّما انتبه كاتبو سيرته إلى هذه النقطة[1]، وهي أنّ خروج الخُمَيني من خلف الستار، أو بالأحرى عندما أخرجوه من النِّسْيان الذي كان فيه، كان في عامَي 1977 و1978.

في بدايات نفيه إلى النَجف كان يعيش منزويًا. ولم يكُن يملك إلا قليلًا من الموارد الماليَّة، إضافة إلى ذلك كان حضور آية الله العُظْمَى الحكيم، وسيطرته على حوزة النَجف، يحول دون ألاعيبه. لا بدّ أنه كان يعاني من هذا الوضع. فقد كان رجلًا متكبرًا ومغرورًا ومُبتلًى بجنون العظمة.

هل صحيح ما ذُكر مِن أنه في السَّنَوات الأولى من نفيه إلى النّجف حاول أن يهادن الحُكُومة والشَّاه في طَهْرَانَ، وأن يحصل على موافقتهم للرجوع إلى إيران؟ لا يمكن تجاهل هذه الفرضية، وقد أشار إليها مهدي بيراسته، الذي كان سفيرًا لطَهْرَان لدى العراق، إبان السَّنَوات الثلاث الأولى من إقامة الخُمَيني فيها[2]. لا شك أنَ أجهزة المخابرات الإيرانيَّة كانت تراقب أفعاله وأقواله، ولكن الحقيقة أنه كان قد نُسي تقريبًا.

كما ذكرنا، تَغيَّر وضعه قليلًا في نهايات الستينيَّات وبدايات السبعينيَّات، وحدث ذلك عندما اعتنى به عملاء موسكو، فتحسَّنَت أوضاعه الماديَّة، لكنّ السوفييت كانوا حذرين في ذلك الوقت من إثارة غضب إيران، لأن عَلَاقاتهم بها كانت عَلَاقات وديَّة، وفي الوقت نفسه كانت الحُكُومة الإيرانيَّة مقتدرة ومسيطرة على الأوضاع.

---

(1) من هذه الكتب: سيرة الحياة (الرسمية) المليئة بالتملُّق بعنوان «تاريخ نهضت روحانيت إيران، علي دواني، نشر بنياد فرهنكي امام رضا، الجزء السابع» والكتاب الانتقادي لكن الموثَّق لمهدي شمشيري، أو كتاب الصحفي المعروف أمير طاهري الذي تُرجم إلى الفرنسية والإنجليزية وكُتِبَ بتَحَفُّظ.

(2) مهدي بيراسته، مرجع سابق، صص406-407.

كانت الجَلَبة التي تُحدِثها الجماعات اليسارية المتشددة المحدودة الحجم[1] التابعة لحزب "توده" وجماعة الخُمَيني الدِّينِيَّة في النَّجف تمثِّل أوراقًا بيد السوفييت في اللُّعْبة السِّياسِيَّة مع طَهْرَان، يلعبون بها عند الحاجة، ويحصلون في المقابل على امتيازات من الشَّاه وحُكُومة إيران، وهي لُعْبة متعارَف عليها في العَلَاقات بين الدول.

لقد كان لتغيُّر الموقف الغربيّ تجاه إيران ولتلك النظريَّات الجِدِّيَّة حول دور الإسلام السياسيّ في السِّياسة الخارجيَّة لأمريكا دورٌ في تحوُّل الأنظار تدريجيًّا صوب آية الله الخُمَيني الذي كان لا يزال صالحًا للاستغلال. لا نبعد عن الحقيقة إن تصوَّرنا أنّ الشرق والغرب اجتمعا في "اتِّفاق ضمني" و"على غير المعتاد" من أجل إثارة الاضطرابات في إيران، وكان لكلّ منهم أسبابه في الرغبة في تغيير النِّظَام السياسيّ في إيران، "كانوا يريدون أن يبعدوا الشَّاه عن العرش، فقد كان يقف سدًّا أمام تحريضاتهم، وكان مقتدرًا ومدافعًا عن مصالح بلده القوميَّة، ومن ثمّ يتفقون دون أخذ مصالح إيران بعين الاعتبار"[2].

"كانت أوروبا وأمريكا من جهة تساعدان الشَّاه، ومن جهة أُخرَى تسعيان لعزله وتدمير ما أُنجِزَ في إيران، لم يكونوا يحتملون أو يقبلون أن تتمكن دولة مثل إيران من تغيير النِّظَام الذي أوجدوه في المنطقة وأن يتعرّض أمن الغرب للخطر من حيث الوصول إلى منابع النِّفْط"[3].

في تلك الأثناء ظهر إلى جانب مؤيِّدي آية الله الخُمَيني عدد من أعضاء وقياديي "اتِّحاد الطلاب الإيرانيّ"، وهي مجموعة صغيرة متطرِّفة، كانت الولايات المتَّحدة بطبيعة الحال تموِّل نشاطاتها[4]، كما انضمّ إليه ناشطو منظَّمة التحرير الفلسطينية

---

(1) لا شك في أنها إشارة إلى «مجاهدي خلق» و«فدائيي خلق». (المترجم).

(2) Daniele Martin, Monde et Vie, 17 movenleu 1979.

(3) Thierry P. Milleman, La face cache du monde occeitental Paris, 2005, P. 149.

كان مؤلِّف الكتاب، الذي كان على ما يبدو أمريكيًّا-فرنسيًّا، يتعاون مع وزارة الدفاع الأمريكيَّة (البنتاغون) مستشارًا لسنوات طويلة.

(4) انظر: Alexandre de Marenches (مرجع سابق)، بخاصَّة التحليل الدقيق لريتشارد لابيفير Richard Labeviere، المرجع السابق، ص232.

وحزب الأمل اللبناني. لقد أصبح قرار واشنطن القاضي بإسقاط الشّاه قطعيًّا، وكان آية الله الخُمَيني الذي عُيِّن حاملًا للواء هذا المخطَّط. يحتاج إلى المساعدة والقُوَّة التنفيذية.

منذ ذلك الوقت أصبحت مقابلات وكتابات وإجراءات معارضي الحُكُومة الجديين السِّياسِيَّة، مثل المؤيّدين لمصدَّق، القائد القوميّ، أو المتشددين مثل أتباع آية الله الخُمَيني، الذين كان يجب عليهم أن يشهروه للجميع ويجعلوه قطبًا، تتمتَّع بقدرة خاصَّة واستثنائيَّة في مطبوعات ووسائل الإعلام الغربيَّة. في تلك الأثناء بدأت إذاعة "بي بي سي" اللندنية التي كان لبرامجها الفارسيَّة مستمعون كثر، "تبثّ أشرطة آية الله الخُمَيني التي كان يدعو فيها الشَّعْب الإيرانيّ بشكل علنيّ إلى الشغب وإسقاط الحُكُومة"[1]. وأخذ هذا البرنامج يُسَمَّى "صوت الثَّورة".

نتذكر أن حياة الخُمَيني كانت محدودة في أثناء إقامته في النّجف، وأسهمت المساعدات التي وصلت من موسكو لاحقًا في تحسين إمكانيَّاته، لكن حياته العائلية والخُصُوصيَّة بقيت بسيطة وتافهة. أما إمكانيَّاته وإمكانيَات الأشخاص الذين كانوا يحيطون به فكانت آخذة في الازدياد. لقد ثبت اليوم أن هذه الإمكانيَّات كانت تأتي من أمريكا، وكان الهدف منها هو التمهيد لنجاح الثَّورة الإسلاميَّة في إيران[2].

منذ أواخر عام 1976 خرج الخُمَيني من عالَم النِّسْيان ودخل المسرح السياسيّ بعد نشر عدد من أخباره ومقالاته ومقابلاته في الصحف الغربيَّة، وتوزيع أشرطته "النارِيَّة" في إيران، مع أن انتشارها كان محدودًا. لقد سمح الفضاء السياسيّ المفتوح، الذي بدأ محمد رضا البهلوي بتطبيقه في مملكته، لبعض الشخصيَّات السِّياسِيَّة والدِّينِيَّة، مثل مهدي بازركان، رفيق وزميل مصدَّق السابق، بأن تصرّح بوقوفها إلى جانب الخُمَيني، بل وأن تتطرق إلى ذكر اسمه.

***

(1) Thierry Desjardins, Le Figaro, 1 er fevrier 1999.

(2) انظر الفصول التالية للكتاب.

في خريف نفس العام، وبشكل أدقَ في الحادي والعشرين من أكتوبر، توُفّي مصطفى، ابن آية الله الخُمَيني الأكبر، في النَجف على أثر سكتة قلبية تَسبَّب فيها مرض السكريّ والوزن الزائد[1].

لم يكُن رُوح الله الخُمَيني أصبح شخصيَّة مُهمَّة بعد. لذا سمح المسؤولون الحُكُوميّون دون اختلاق أي مشكلة، وبعد دعوات من هاشمي بازركان، بإجراء مراسم بهذه المناسبة في مسجد أرك في طَهْرَانَ، حيث المدخل الرئيسي لسوق العاصمة الكبيرة، وحسب ما ذكره أحد المقرَّبين من آية الله الخُمَيني[2]، فقد حضر ما يقارب ألفًا وخمسمئة شخص مَجلِس العزاء ذاك، وحسب تقديرات الجهات الأمنيَّة كان عدد الحضور ألف شخص، وهو لم يكُن قَطّ رقمًا صغيرًا، ولكن ليس في مدينة تجاوز عدد سكانها ثلاثة ملايين شخص.

شاع تدريجيًا أن "السافاك" قتلوا مصطفى الخُمَيني.

عندما دخل آية الله الخُمَيني إلى فرنسا، وأنزلوه بعد مُدَّة في نوفل لوشاتو، كتبت كل الصحف الغربيَّة أنّ مصطفى الخُمَيني قُتل انتقامًا بأمر من محمد رضا البهلوي، وبهذا أصبح آية الله ابنًا لشهيد وأبًا لشهيد آخَر.

---

(1) حسبما نقل مهدي بيراسته الذي كان يعرفه جيدًا، فقد بلغ وزنه 120كغ، المرجع السابق، ص408.

(2) في اليوم التالي روى لي الدكتور محمد مفتح قصة مجلس العزاء، كان الدكتور محمد مفتح أستاذًا مساعدًا في كلية الشريعة والعلوم الإسلاميّة في جامعة طهران (وهو بذلك يكون زميلنا في الجامعة)، وأصبح لاحقًا عضوًا في المجلس الثوري وحصل على لقب «حُجَّة الإسلام». قُتل في عام 1979 بشكل غامض.

كذبة كُبْرَى ثانية

بخلاف ما ذُكر في الصحف الغربيَّة، لم يُتَوَفَّ مصطفى، ابن آية الله رُوح الله الخُمَيني، في عام 1978، و"لم يقُل الخُمَيني قطعًا إنّ ابنه قُتل"[1]. وفي مقابلة له مع صحيفة "لوموند" التي كانت من مؤيِّديه ومادحيه قال إنه "لا يستطيع أن يؤكِّد مثل هذا القول مطلقًا"، يقصد قتلَ ابنه[2].

محمد حسنين هيكل، السياسيّ والصحفي المصري المشهور الذي كان من مستشاري ومقرَّبي آية الله، سأل الخُمَيني نفس السؤال، فأجاب: "ليس لهذه القِصَّة أيّ مصداقية"[3].

أحد الصحفيين الفرنسيين، له تحليل دقيق حول هذا الموضوع، ووصل إلى نتيجة مشابهة: "لقد أثبتت الشهادات والروايات التي جمعناها من المقرَّبين من الخُمَيني أن مصطفى مات على أثر سكتة قلبية، وقد كتب وصيةً قبل موته ببضعة أشهر، وهي اليوم مفقودة"[4].

رغم كلّ هذه التفصيلات، أعلن آية الله الخُمَيني بعد وصوله إلى السُّلْطة في إيران، يوم حداد وطني إحياءً لذكرى استشهاد ابنه، وبأمر منه تَغيَّر اسم شارع سيروس في طَهْرَانَ وأصبح شارع "الشهيد مصطفى الخُمَيني".

ولا تزال سير حياة آية الله الخُمَيني الرَّسْميَّة في إيران، وكتابات اليساريين الغربيين الذين لا يزالون يروّجون له، تتناقل قصة "استشهاد" ابنه.

***

(1) Edouard Sablier, Iran, la poudriere... op-P.61.

(2) Le Monde, 6 mai 1978.

(3) Mohammad H. Heykal, The Retusn of the Ayatollah, Andre Deutch, London, 1981, P. 134.

(4) Gerard Beaufils, Tous o'tages de Khomeyni, op- cit P. 81.

انتهت إقامة آية الله الخُمَيني في العراق بمصيبة، تُعَدّ نقطة تحوُّل في الثَّورة الإسلاميَّة، والجميع يعرف اليوم أنه كان المسؤول المباشر عن هذه المصيبة، وهي إحراق سينما "ركس" في مدينة آبادان.

بعد ظهر يوم الخميس الموافق 19 أغسطس من عام 1978، شبّ حريق في سينما "ركس" في مدينة آبادان، عاصمة صناعة النِّفْط في إيران. في عصر ذلك اليوم الذي يسبق عطلة نهاية الأسبوع، عادة ما كانت تُعرَض أفلام خاصَّة بالأطفال والمراهقين، وغالبًا ما كانوا يذهبون إلى دار السينما برفقة أمهاتهم.

كانت جميع أبواب السينما قد أُوصِدَت مِن قَبْل، حتى لا يتمكن أحد من الهروب، احترق في هذه الحادثة ما يقارب أربعمئة وسبعة وسبعين شخصًا، أكثرهم من النِّسَاء والأطفال، وهم أحياء، أو ماتوا اختناقًا، كانت جريمة لا يمكن وصفها. أشارت التحقيقات الأولية إلى أن الحادثة كانت مفتعَلة، فقد اشعلوا النيران، وأغلقوا الأبواب قبل ذلك ليرتفع عدد الضحايا قدر الإمكان.

تعامل مسؤولو الحُكُومة مع هذه الحادثة باستخفاف وبشكل لا يليق، كأنها حادثة من ضمن الحوادث الأُخرَى، لم تتوجه أي شخصيَّة رسميَّة، أو حُكُوميَّة، ولا حتى أحد أعضاء العائلة المالكة، إلى آبادان(1). يتضح من روايات المِلكة فرح وشاهبور غلام رضا، اللذين ذُكرت روايتاهما في حاشية الكتاب، أن البلاط والحُكُومة ورئيس الوزراء هم المسؤولون عن التقصير، كما أنه بعد مُدَّة وجيزة طُلب من جمشيد آموزكار أن يقدّم استقالته، مِمَّا يعني عمليًّا أنه عُزِل.

كان من الواجب أن يُعلَن الحدادُ العامّ، وهو ما لم يحدث، طُلب من المطبوعات أو تمّ تكليفها بأن لا تُولِي الحادثة أي اهتمام، فكان مثل هذا التعامل سببًا في استياء الناس الشديد، في زمن كانت فيه أوضاع الدَّولة غير مستقرَّة.

---

(1) كتبت المِلكة فرح في مذكّراتها بعد سنوات أنها كانت تنوي السفر إلى آبادان، لكن رئيس الوزراء الدكتور جمشيد آموزكار أقنعها بالعدول عن ذلك.

.Farah Pahlavi, Memories, XO editons, Paris, 2003, P. 277

ذهب شقيق الشاه، شاهبور غلام رضا، إلى أبعد من ذلك وكتب في مذكّراته: «لقد أظهرت الحكومة تقصيرًا عجيبًا في هذه الحادثة يدلّ على «تبييت النِّيّة»، المرجع السابق ص264.

كيف يمكن تبرير تَصَرُّف مسؤولي الحُكُومة العجيب وغير اللائق في هذه الحادثة؟ الحقيقة أنه في اليوم التالي للحادثة، أي العشرين من أغسطس، كان مِن المقرَّر إقامة احتفال مهيب بالذكرى الخامسة والعشرين لانقلاب الثَّامن عشر من أغسطس، ذكرى سقوط مصدَّق وعودة الملكيَّة إلى إيران، اتُّخِذَت التدابير في طَهْرَانَ والمدن الكُبْرَى لإقامة احتفالات مختلفة، في وسط طَهْرَان اجتمع بضعة آلاف من الأشخاص في ميدان مخبر الدَّولة بهذه المناسبة، وألقى رئيس الوزراء خطبة مفصَّلة بلحنه الشاعري الذي كان يحبّه.

لم يَعِ أحد بَعدُ أبعاد الفاجعة الحقيقيَّة وعدد الضحايا، كان يوم جمعة، وهو يوم عطلة رسميَّة، لم تكُن الصحف قد صدرت بعد، نشرت الإذاعة الخبر باختصار وبلا لهفة.

في المساء أقامت الملِكة الأم، تاج الملوك، حفلها المسائي السنويّ الفاخر بهذه المناسبة، وشارك فيه ما يقارب ألفًا من شخصيَّات العاصمة السّياسِيَّة والثقافيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة مع زوجاتهم، وبينهم كان جميع سفراء الدُّوَل الأجنبيَّة في البلاط المَلَكِيّ وزوجاتهم، كانت عادة الملِكة الأُمّ أن تدعو إلى هذا الحفل مجموعة من أقرانها، وبعض الشعراء والفنانين الذين لم يعُد أحد يتذكرهم، وحتى بعض بقايا رجال الدَّولة القاجارية، لكي تضفي عليه رونقًا جذّابًا وطابعًا خاصًّا.

استقبل الشَّاه، قبل أن يحضر بين المدعوين، خمسة أو ستة أفراد من ضمنهم رئيس الوزراء ووزير البلاط في صالة صغيرة في قصر الملِكة الأم[1]، كان الشَّاه عادة ما يتحدث وهو مسيطر على كلامه وتصرُّفه، لكنه لم يستطِع أن يُخفِيَ اضطرابه وغضبه، وفجأة تَوَجَّه بحديثه إلى الحضور وقال: "من يجرؤ على ارتكاب مثل هذه الجريمة الفظيعة؟"، وكرر بعدها مَرَّات عدة: "حقًّا إنه عمل رهيب!"، وكان هذا في زمن لم يكُن يعرف فيه أحد عدد الضحايا، ثمّ تَبادَلُوا الحديث في مسائل أُخرى، وخرج بعدها الشّاه بين الحضور في هدوء تامّ وأخذ

---

(1) كان كاتب هذه السطور من بين الحضور.

يتفقّد هذا وذاك وهو مسيطر تمامًا على نفسه، وتجاذب أطراف الحديث مع عدد من الحضور.

في نهاية هذا العشاء المهيب الباذخ، أُجرِيَ عرض للألعاب النارية، كان يمكن مشاهدته من جميع مناطق المدينة أو على الأقلّ من أجزاء منها. المؤكّد أن أحدًا لم يكُن يدرك حتى تلك اللحظة حجم المصيبة وأعداد الضحايا في آبادان، لكن في اليوم التالي أو الذي تلاه عندما تَكشَّفَت الحقيقة عن أبعاد هذه الفاجعة، تركت النتائج السِّياسِيَّة والنفسيَّة لهذا الإهمال غير المتعمَّد أثرًا سلبيًّا في الرَّأي العامّ، تَحدَّثَ معارضو النِّظّام المتشددون قائلين إنه في حين كانت إحدى المدن في حداد، كان البلاط يقيم احتفالًا، ويقدِّم استعراض ألعاب نارية.

للأسف كان ظاهر الأمر يُعطِي الحقّ لهؤلاء، كان لا يمكن الدِّفاع عن تصرُّف المسؤولين إزاء هذه المصيبة، فهم لم يكونوا يرغبون أن تُلغَى مراسم الاحتفال بمناسبة الثَّامن عشر من أغسطس، وأن ينضمُّوا إلى الحداد العامّ، لكنهم ارتكبوا خطأ سياسيًّا فادحًا.

بعد ساعات من انتشار خبر الحادثة، أخذ آية الله الخُمَيني، الذي لم يكُن أحد قد اتّهمه بشيء، يدافع عن نفسه، وأعلن أنهم لا بدّ وأن ينسبوا هذا الفعل غير الإنسانيّ والمنافي لقوانين الإسلام إلى معارضي الشّاه، وأنه يكذِّب مُسبَقًا مثل هذه التهمة[1].

في الأيام التالية أشارت تحقيقات المسؤولين القضائيِّين والشُّرطة إلى أنّ مصدر اتِّخاذ هذا القرار نابع من النّجف من منزل آية الله الخُمَيني، أليس موقف آية الله من تكذيب تورُّطه في هذه الجريمة، في حين لم يكُن قد اتهمه أحد بعد، دليلًا على أنه كان على علم أو أنه هو من أعطى الأوامر بارتكاب هذه الجريمة؟ لا يوجد لدينا دليل قاطع حول هذا الأمر، لكننا نعلم جيدًا، وثبت واتّضح لجميع الإيرانيِّين والرَّأي العامّ العالَمي، حتى ابنه أذعن بأن آية الله لا يقيم أي اعتبار

---

(1) ورد النّصُّ الكامل لبيان آية الله الخُمينيّ في كتاب حُجّة الإسلام على دواني «تاريخ نهضت روحانيت»، نُشر بنياد امام رضا، طهران، الجزء السابع، ص225.

لحياة البشر. لذا فمقبول كليًّا أنه على الأقلّ كان على علم بهذه الجريمة النكراء ولم يُقدِم على وقفها.

في هذه الأثناء استقالت أو أُقيلَت حُكُومة آموزكار، وحلّ جعفر شريف إمامي خلفًا له في رئاسة الحُكُومة. قرَّر شريف إمامي، الذي كان يميل إلى التهدئة مع معارضي الحُكُومة المتشددين، أن ينشر تفاصيل ملفّ الحادثة. فهل كان هذا القرار بموافقة من الشَّاه؟ لا نعلم. لكن رئيس الوزراء طلب أن يطّلعوا "مراجع التقليد" في قم على محتوى الملفّ. وهذا ما فعله مبعوثوه. ذلك لكي يعلم "الآيات العظام" ما الذي يمكن لـ"زميلهم" ارتكابه من جرائم. يبدو أن مراجع التقليد الثلاثة المقيمين في قم أبدوا أسفهم وتأثُّرهم الشديد، حتى إنّ آية الله العُظْمَى شريعتمداري أخذ يبكي بشِدَّة. لكنهم لم يُبدُوا أي ردّ فعل بالنظر إلى حيرة وسكوت الحُكُومة.

على أي حال، وتَحسُّبًا، فقد سُلّمت نسخة من الملفّ للدكتور محمد رضا عاملي وزير المخابرات، حتى تُتّخذ الإجراءات اللازمة في حال قررت الحُكُومة كشف الحقائق[1]. كان منفِّذو هذه الجريمة أربعة أشخاص، أحدهم يُسَمَّى "عاشور". وهو اسم مستعار على ما يبدو، وثلاثة آخرون من المتعاونين معه. وفي منزل آية الله الخُمَيني في النَّجف خُطِّط لذلك.

أُعطِيَ لكلّ واحد من الأربعة مبلغ ألف ومئة دولار أمْرِيكِيّ وخمسمئة دينار عراقيّ، وأمّن لهم شخص اسمه فواد كريمي الموادّ المشتعلة في نفس مدينة آبادان، وكان المشرفون على هذه العمَليَّة هم: أحمد ابن آية الله الثَّاني، وشخصين آخَرَين أصبحا لاحقًا من رجال الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة المهمّين، هما هادي غفاري[2] ومدرّسي.

قبل أسبوع من وقوع الحادثة، طبعت مطبعة صغيرة في خرمشهر (مدينة

---

(1) انظر المذكّرات السياسيّة للسفير الأسبق الدكتور برويز بيشين بعنوان «خانه ما در فيشرآباد»، نشر شركت كتاب (لوس انجلوس)، 2004، صص48-43. لحسن الحظّ أُخرِجَ هذا الملفّ من إيران، وهو بحوزة بعض الأشخاص في الولايات المتّحدة.

(2) الشخص الذي افتخر لاحقًا أنه هو من قتل أمير عباس هويدا في رواق السجن.

مجاورة لآبادان) بيانات تتّهم فيها الحُكُومة والشّاه شخصيًّا بارتكاب هذه الجريمة. كان صاحب المطبعة شخصًا يُدعَى "حصيري"، اعترف لاحقًا بأنه فعل هذا لقاء مبلغ سبعين ألف تومان (ما يعادل عشرة آلاف دولار آنذاك).

لقد فقد الدكتور محمد رضا عاملي حياته بسبب اطِّلاعه على تفاصيل هذا الملفّ. ففي أثناء اضطرابات العاصمة هاجم المشاغبون وزارة المخابرات (الوزارة الوحيدة التي هُوجِمَت) وأحرقوا مكاتبها. لا شك في أن قادة الثَّورة كانوا يعلمون بالقضيَّة، وكانوا يريدون أن يُتلِفُوا وثائق الجريمة. لكن لحسن الحظ لم يكُن الملفّ موجودًا هناك.

بعد انتصار الثَّورة الإسلاميَّة، اعتُقل الدكتور محمد رضا عاملي، وعُذِّبَ في السجن بوحشية، ثمّ حُكم عليه بالسجن عشر سنوات. وبعد انتهاء جلسة "المحكمة" أطلق آية الله صادق خلخالي شخصيًّا النَّار عليه من مسدّسه وقتله.

عندما أخبر خلخالي الدكتور محمد رضا عاملي بأنه ينوي قتله، طلب منه عاملي ملتمسًا أن يمنحه بضع ساعات أُخرى حتى يشاهد مرة أُخرى "شروق الشمس على إيران". فأجابه خلخالي: "أنت تعرف الكثير". وأطلق عليه النار، وقد روى الشهود تفاصيل هذا المشهد لاحقًا[1].

بعد مدَّة أُعلِنَ في الصحف أنّ الدكتور محمد رضا عاملي حُكم عليه بالإعدام ونُفّذ الحكم[2].

بعد ثلاث سنوات أعلن محسن رضائي، الذي كان قائدًا للحرس الثوريّ، ولا يزال أحد الشخصيَّات المهمَّة في الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة. في أحد المنشورات الرَّسْميَّة، مسؤوليته عن جميع عمليات التخريب والحرق التي وقعت قبل الثَّورة بأسابيع (منها إحراق خمسين دار سينما)، وقال مذكِّرًا بأن وجود "مراكز الفساد" التي تُعتبر من مظاهر "الحضارة الغربيَّة المتعفّنة"، كدور السينما ومتاجر

(1) انظر مذكَّرات الدكتور برويز عدل التي نقلت هذه الروايات ومنابعها.

(2) في أواخر عام 1979 حُوكِمَ وأُعدِمَ عشرة أفراد من بينهم مالك سينما «ركس» بتهمة أنهم مسبِّبو الحادثة.

المشروبات الكحولية، هو أمر مُنافٍ للنهضة الإسلاميَّة، وكان تخريبها وإحراقها من إجراءات وأهداف الثَّورة الضروريَّة[1].

بعد هذه الجريمة لجأ المتشددون الإسلاميُّون في الجزائر ومصر وأفغانستان وباكستان ولبنان إلى هذه "التقنيات الثوريَّة"، ولكن يجب القول إنّ براءة اختراع أول "جريمة جماعية" مسجَّلةٌ باسم آية الله رُوح الله الموسوي الخُمَيني عندما كان يقيم في النّجف.

بالنظر إلى عدم إظهار الحُكُومة الإيرانيَّة أدْنَى ردّ فعل، كتب بعض الصحف الأجنبيَّة أن هذه الجريمة يمكن أن تكون من صنع "السافاك"، ولم يذكر أحد قطعًا الفائدة التي سيحصل عليها "السافاك" من هذه الجريمة في حين كانت وظيفته حماية النِّظَام. ثمّ أخذت هذه "الفرضية" وهذا "الاحتمال" بُعدًا رَسْمِيًّا، وكان الجميع يرجعون إليها، ولم يتمكّن أحد من إنكارها.

كانوا يريدون "أن يحوّلوا الشَّاه ونظامه إلى شيطان رجيم بناء على كذبة كُبْرَى"[2]. الشَّاه بدوره لم يجرؤ على إظهار الحقائق مع أنه كان يعلم الحقيقة ومطلعًا على تفاصيل القضيَّة، فقد كان يعرف أنّ أحدًا لن يصدق، وكتب في مذكِّراته "بعد مصيبة آبادان ظهرت إشاعة مروعة في الصحف، فقد نسبوا ارتكاب هذه الجريمة إلى الحُكُومة. كان عليهم التظاهر بأن الحُكُومة مسؤولة عنها"[3].

عندما ظهرت الحقيقة على الملاء وأُثبِتّت أخيرًا، وارتكب الإسلاميُّون المتشددون جرائم مشابهة في الدُّوَل الإسلاميَّة وحتى غير الإسلاميَّة (في نيويورك، وباريس وفي مدريد...)، وبعد إجراء بعض التحليلات وحتى مشاهدة بعض الأشرطة الموثَّقة، أقرّ أصحاب الرَّأي والمحلِّلين بأن جريمة آبادن ارتكبها عملاء الخُمَيني.

---

(1) محسن رضايي، تاكتيكها وتكنيكهاي انقلاب، انتشارات رسمي سپاه پاسداران انقلاب اسلامى، 6 فبراير، 1982، طهران، ص51.

(2) Vladinir Volkoff, Petite histoirs de la disinformation, Du cheval de Troie a Internet, Rocher, Paris, Monaco, 1999, P. 150.

(3) Reponse a l'Histoire, P. 225.

وهي الحقيقة التي كان مؤيّدوه قد أعلنوها بشكل رسمي منذ سنوات، مفتخرين بها. كان الحادي عشر من سبتمبر، ضربة لن ينساها الأمْرِيكِيُّون إطلاقًا، وهي استمرارية منطقيَّة لا يمكن اجتنابها لفاجعة آبادان. لقد بدأت اللُّعْبة الشيطانية للأصولية الإسلاميَّة المتطرّفة مع "ثورة الخُمَيني".

***

لقد كان إحراق سينما "ركس" في آبادان، وبعد ذلك إحراق سوق الخضار الرئيسيَّة في العاصمة[1] نقطة بداية مرحلة عنيفة ودامية للثَّوْرة الإسلاميَّة.

هدوء وضعف الدَّولة والموقف غير المفهوم والمتناقض لِمَن كانوا في رأس النِّظَام مَهَّد الطريق أمام تطبيق المرحلة النهائية للثَّوْرة.

أصبح يتوجب على الخُمَيني الخروج من النَّجف، حتى يُضْفُوا عليه سمة "القائد العظيم".

(1) إشارة إلى حريق سوق أمين السلطان في 23 أغسطس 1978. (المترجم).

الفصل الخامس

في طَهْرَان.. ضعف الحكومة وارتباكها

في هذه الأسابيع والأشهر، كان التوتر السياسيّ والاستياء العامّ في إيرانَ آخذًا في الازدياد، كان الرَّأي العامّ يتطلع نحو إصلاحات سياسيَّة أساسيَّة، بخاصَّة ضرورة إبعاد مجموعة معروفة وصغيرة من حاشية الشَّاه وأمير عباس هويدا رئيس الوزراء ووزير البلاط لاحقًا، كانت متَّهَمَة بالفساد. كانت هذه التغييرات قد بدأت، لكنها كانت تتقدم ببطء.

بالتزامن مع هذه الأوضاع، ومع تولّي كارتر السُّلْطة في أمريكا (20 يناير 1977) تحوّلت سياسة عدم الاطمئنان وسوء الظنّ الأمْرِيكِيّ تجاه سياسات إيران وموقف الشَّاه، إلى معارضة تكاد تكون علنيَّة.

لم يكُن هذا التحوُّل في السّياسة، في العاصمة الأمْرِيكِيَّة، يخفى على المقامات العُلْيا في طَهْرَانَ. كان أردشير زاهدي، "سفير إيران العظيم الذي لا يُنسى"[1]، يحاول بكلّ ما أتيح له من إمكانيَّات، مستفيدًا من عَلَاقاته الشخصيَّة، أن يحارب معارضي بلده وأعداء الشَّاه المتزايدين، وأن يغيِّر الصُّورة الموجودة عن الوضع الإيرانيّ. المِلكة فرح أيضًا زارت أمريكا مرتين، وفي إحداهما تحدثت إلى الرئيس كارتر في لقاء طويل.

---

(1) وهو ما وصفه به William Shawcross في مرجع سابق.

كانت عادة رؤساء أكثر دول "العالَم الحرّ" آنذاك أن يذهبوا للقاء الرئيس الأمْريكيّ الجديد، وهذا ما فعله الملك والملِكة وبرفقتهما وزير الخارجيّة[1]، الذين توجهوا إلى الولايات المتّحدة الأمْريكيّة في نوفمبر من عام 1977، وعلى الرغم من الابتسامات المصطنَعة التي رُسمت على وجوه الشّاه وكارتر وزوجتيهما، فإنّ هذه الزيارة لم تنتهِ بسلام، وكان في مجرياتها رسالة واضحة وصريحة للقادة الإيرانيّين بأنه "لم تُعطَ أيّ أوامر لقوات الأمن والحماية لتأمين الشّاه والملِكة، وجعلوهما، عمليًّا، وبلا أي حماية، عُرضةً لمعارضيهما شديدي العنف"[2]. كان اتّحاد الطلبة الإيرانيّين هو مَن بادر بالمظاهرات التي جرت أمام أدراج البيت الأبيض، وهم جماعة صغيرة، وكما رأينا كانت لهم توجُّهات يسارية متطرّفة، لكن مع ذلك فقد كانت تكاليف نشاطاتهم تؤمَّن من مصادر أمْريكيّة، ومع أنّ بعض المحلّلين لم يُخفِ استغرابه من هذا الوضع العجيب[3] فإنه في المُجمَل لم يُولَ هذا الأمر أيَّ اهتمام، وفي الوقت الذي كانت فيه مظاهرات مخالفي الشّاه العنيفة تجري أمام أدراج البيت الأبيض، اجتمع مئات الإيرانيّين بالقُرْب من ذلك المكان ليُعلِنُوا وقوفهم إلى جانب الشّاه، لكن الشُّرطة الأمْريكيّة تعاملت معهم بعنف شديد وفرّقَتهم، وأشار محمد رضا البهلوي لاحقًا إلى هذه الحادثة:

"نزلنا في إحدى الليالي في وليامزبورغ[4]، فتجمَّع بعض الطلبة الإيرانيّين لإبداء تعاطفهم ومحبتهم تجاهي، ذهبت إليهم وبدأت بالتحدُّث معهم، وغير بعيدٍ اجتمعَت مجموعة صغيرة تضع الأقنعة حول علم أحمر ممسكين بالمناجل والمطارق، وبدؤوا بالشتم! ما الذي جعلهم يضعون الأقنعة؟ كتبَت صحف اليوم التالي أنهم كانوا يضعون الأقنعة خوفًا من ("السافاك"). أنا شخصيًّا أتوقَّع أن أكثرهم لم يكُن إيرانيّ الأصل، وبذلك كانوا يريدون إخفاء هُويَّتهم الحقيقيّة، وهناك احتمال كبير أنهم كانوا مجموعة محترفة من مثيري الشغب، جاؤوا هناك،

---

(1) الدكتور عباس خلعتبري. (المترجم).

(2) Thierry P. Milleman, 149. مرجع سابق.

(3) Pierre F. de Villemarest, L'ayatollah et la conpiration soviet-americaine, Monde et Vie, 29 decembre 1978.

(4) Williams burg.

مقابل مبلغ من المال لإثارة الفَوْضَى. في الحقيقة كان عدد الطلبة والشباب المؤيِّدين لي يقارب خمسمئة، بينما كان عدد الشَّاتمين خمسين شخصًا. في اليوم التالي عكَسَ بعض الصحف هذه الأرقام، كما اجتمع في واشنطن آلاف الأشخاص المقيمين في الولايات المتَّحدة لاستقبالنا. ومرة أُخرى ظهرت زُمرة معروفة ملثَّمة تحمل العِصِيّ والسلاسل وهاجموا أبناء وطني. العجيب أن الصحف الأمْرِيكِيَّة هاجمت أبناء وطني الذين كانوا يؤيِّدونني، ودافعت عن المهاجمين، حتى إن إحدى الصحف بدأت مقالها بعنوان (مَن الذي أمّن تكاليف سفر مؤيِّدي الشَّاه؟). ولم يسأل أحد نفسه مَن كان مثيرو الشغب؟ ومن أين جاؤوا؟"[1].

مع هذا فقد دعا الشَّاه والمِلِكة كارتر وزوجته للسفر إلى إيران في زيارة رسميَّة، وعلى الفور قُبلت هذه الدعوة وأُعلِن عنها.

***

في الحادي والثلاثين من ديسمبر 1977، وبعد ساعات من وصوله إلى طَهْرَان، قال الرئيس كارتر مخاطبًا الشَّاه:

"بسبب أسلوب جلالته الاستثنائيّ في القيادة، أصبحت إيران جزيرة للاستقرار والهدوء، في أكثر مناطق العالَم اضطرابًا". ثمّ تحدّث عن "احترام ورضا وحب الشَّعب الإيرانيّ لملكه". وأضاف: "ليس في العالَم دولة قريبة منا في مجال تحقيق برامج التعاون العسكريّ والأمنيّ المتقابل، كإيران. ليس في العالَم قائد أُبدِي له شعوري بالامتنان وأعتبره صديقًا شخصيًّا لي، كجلالته"[2].

لم يكُن بين ما قاله كارتر وسياسة حكومته الرامية إلى إشعال الفَوْضَى في إيرانَ وإسقاط الحُكُومة فيها من خلال إجراء تغييرات أساسيَّة، تناغُمٌ، ولم يكُن ما قاله يتطابق آنذاك مع ما كان يُقال على الصعيد الرَّسْميّ وغير الرَّسْميّ داخل المحافل الأمْرِيكِيَّة، كما أن هذه العبارات لم تكُن قد أُدرِجَت في النَّص الرَّسْميّ

---

(1) M. R. Pahlavi, Reponse a'l' Histoire, op, cit. P. 210-211.

(2) نص هذا الخطاب الكامل ورد في صحيفة Le Monde بتاريخ 22 فبراير 1979.

الذي وُزّع على الصحف مُسبَقًا، أووُزّع على الحضور. يبدو أن جيمي كارتر هو من أضاف هذه العبارات إلى خطابه في اللحظات الأخيرة، فماذا كان السبب؟

هل كان محمد رضا البهلوي، الذي كان متقدمًا بمراحل كبيرة في ثقافته السِّياسِيَّة وتجاربه في الحكم على جيمي كارتر الذي "كان عمومًا يعرف فقط أين تقع إيران على خريطة العالَم لا أكثر"[1] هو السبب وراء انبهار كارتر الشديد لدرجة أنه أضاف هذه العبارات إلى خطابه؟

هل كانت هذه خدعة نفّذها رئيس الولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة ليُشبع غرور الشَّاه بهذه المدائح المُبالَغ فيها، ومِن ثَمّ يخدعه بفكرة أنّه ما زال بإمكانه الاعتماد على أمريكا؟

هل كان كارتر يريد على هذا الأساس أن يُبقِي الأبواب مفتوحة أمام اتِّفاق محتمَل قادم مع الشَّاه في حال نجح الأخير في إفشال المؤامرة التي ترمي إلى إسقاطه، وأُجبِرَت الولايات المتَّحدة على التعامل معه مجددًا؟

لا تتناقض بالضرورة هذه المبررات معًا[2]. ويوافقنا في هذا الرَّأي أردشير زاهدي سفير إيران لدى الولايات المتَّحدة، الذي كان له دور بارز في التمهيد لهذا السّفر والمفاوضات التي تلتها[3].

في حقيقة الأمر "لقد تَعجَّبَ، بما تحمله الكلمة من معنى، الدبلوماسيون الأمْرِيكِيُّون الحاضرون في المأْدُبة من هذه العبارات، وحقّ لهم أن يتعجّبوا"[4].

---

(1) Alexandre de Marenches, Dans le secret de s Princes op. cit. P. 248.

(2) حول هذا العشاء الرسمي، وأطراف الحديث المتجاذبة وأهميّتها كنقطة تحوُّل في العلاقات الإيرانية الأمريكيّة، انظر:

Pierie Salinger, Otages, les negociations secretes de Tehran, Buchet Chastel, Paris 1981, Pp. 11- 17.

(3) كان (بيار) سالينجر شخصيًا حاضرًا في هذه المأدبة، انظر كذلك:

.William Sullivan, Mission to Iran, Norton and co. New-York London, 1981, Pp. 115-121

في حوار شخصي مع كاتب هذه السطور.

(4) Pierie Salinger، مرجع سابق، 247-9.

كان مِن المقرَّر أن يسافر جيمي كارتر وزوجته إلى الهند مباشرة بعد هذه الضيافة الرَّسْميَّة، وأن يقضيا لحظة رأس السَّنَة الميلاديَّة في الطائرة الرئاسية Air Force One، لكن البرنامج تَغَيَّر فجأة. وتَقرَّر أن يقضي ضيوف الشَّاه ليلة رأس السَّنَة الميلاديَّة في طَهْرَانَ، وبسرعة اتُّخِذَت الإجراءات اللازمة لهذا الأمر. وعند لحظة تحويل السَّنَة (منتصف الليل) قبّل الشَّاه خدّ زوجة كارتر. مع أن هذا النوع من كَشْف الخُصُوصيَّة كان غير مُستحسَن. ودعا كارتر المِلِكة إلى الرقص، وبطبيعة الحال فقد التُقِطَت صور متنوعة لهذه المراسم. وبعد بضع دقائق غادر الشَّاه وكارتر قاعة الرقص. فاجأ الشَّاه رئيس الولايات المتَّحدة. فقد كان دعا الملك حسين، ملك المَمْلَكَة الأردنية الهاشمية، وطلب منه أن يأتي إلى إيران خُفْيةً، من أجل إجراء محادثات سياسيَّة (أو في الحقيقة مؤتمر ثلاثي) حول الأوضاع في الشرقين الأَدْنَى والأوسط. وفي أثناء حفل الضيافة والعشاء الرَّسْميّ. كان الملك حسين في طَهْرَانَ، وفي قصر نيافاران بالتحديد استغرقت المحادثات السِّياسِيَّة الثلاثية بين الشَّاه والملك حسين وكارتر ساعة ونصفًا. ثمّ حضر الرؤساء الثلاثة الحفل الراقص للسنة الجديدة في نهاياته. وترك الحضور قصر نيافاران في حدود الساعة الثَّانية بعد منتصف الليل. وبعد استراحة قصيرة غادر كارتر وزوجته ومرافقوه طَهْرَان متوجهًا إلى نيودلهي في صباح الأول من يناير من عام 1979.

صدرت الأوامر إلى مطبوعات طَهْرَان بأن لا تنشر أي صور لمراسم حفل رأس السَّنَة الميلاديَّة. وهذا ما تمّ بالفعل، لكن صور هذه المراسم التي كانت قد نُشرت في الصحف العالَميَّة سرعان ما وصلت إلى إيران، وأحدثت استياءً كبيرًا، بخاصَّة صورة جيمي كارتر وهو يراقص المِلِكة فرح. عندما شاهد آية الله العُظْمَى شريعتمداري هذه الصور أبلغ مباشرةً البلاط -خصوصًا المِلِكة- باستيائه[1].

بعد أسبوع واحد فقط من سفر جيمي كارتر وزوجته إلى إيران، وقراءته تلك

---

(1) نقلتُ هذه الرواية بالتفصيل في كتابي «آخرين روزها، بايان سلطنت ودركذشت شاه»، ترجمة مريم سيحون وبهروز صوراسرافيل، انتشارات شركت كتاب. انظر على وجه الخصوص الطبعةَ الثانية.

العبارات المادحة التي أدَّت إلى ظهور سرور عظيم في المحافل السِّياسِيَّة الرَّسْميَّة في طَهْرَانَ. وبعد ثلاثة أيام من إبراز آية الله العُظْمَى شريعتمداري استياءه من صور كارتر والمَلِكة، وقعت حادثة في عاصمة إيران يكاد يُجمِع المؤرِّخُون والمحلِّلُون على أنها نقطة بداية الثَّورة الإسلاميَّة، أو على الأقلّ بداية المرحلة التنفيذية لها، بخاصَّة حضور آية الله الخُمَيني في الساحة، الذي كان شرارةً أشعلت النار.

***

أشاع سفر كارتر إلى إيران وعباراته التي مدح فيها محمد رضا شاه إشاعات كثيرة على المستوى الضيِّق للوسط السياسيَ في طَهْرَانَ. لكنّ شيئًا لم يتغيَر بالنسبة إلى الوضع الداخليّ للدَّوْلة، واتساع رقعة الاستياء بين الناس تجاه سياسة الحُكُومة.

بالطبع كان توسُّع الفضاء السياسيّ المفتوح محسوسًا منذ فترة، وأصبح معارضو الحُكُومة يُبْدُون آراءهم بحُرِّيَّة أكبر، وتدريجيًّا برز على الساحة آية الله العُظْمَى شريعتمداري الذي كان رجلًا معتدلًا وأثبت سابقًا وطنيَّته[1]، كأَهَمّ متحدث باسم المعارضين الإصلاحيين، وهو دور لعبه رجال الدِّين مَرَّاتٍ عدَّةً في الماضي القريب والماضي البعيد.

كان الشَّاه شخصًا مؤمنًا، مع أنه لم يكُن يتّبع آداب وطُقُوس الدِّين المعتادة، كان ينظر إلى رجال الدِّين نظرة احتقار معتبرًا إياهم سَدًّا في طريق التغيير والتجديد في المجتمَع الإيرانيّ، وفي الأسابيع التالية عندما أُجبِرَ على خوض المفاوضات مع آية الله العُظْمَى شريعتمداري، كان الأوان قد فات، ولم يكُن حتى شريعتمداري يسيطر على الأحداث. قبل هذا بمدة، وفي السادس من أغسطس 1977 ومن أجل أن تظهر بعض علامات التغيير للشَّعْب، وربما للأمْرِيكِيِّين أيضًا، عُزل أمير عباس هويدا رئيس الوزراء الذي كان رئيسًا للحُكُومة لثلاثة عشر عامًا، وعُيِّنَ جمشيد

(1) حول حياة وموت آية الله العظمى شريعتمداري انظر أسبوعية Aspects de la France. تشبه حياة رجل الدين هذا ومصيره، حياة Cardinal Mindeszenti الهنغاري.

آموزكار خليفة له[1]. كان جمشيد آموزكار تكنوقراطيًّا معروفًا باستقامته، لكن لم تُعرَف عنه الحنكة في السِّياسة. أتمَّ دراسته في الهندسة في جامعة كورنيل[2] الأمْريكِيَّة المعروفة والعريقة، ونال درجة الدكتوراه. كان يُقال إن الأمْريكِيِّين، خصوصًا الديمقراطيِّين، كانوا يؤيدونه. ربما كانت هذه المقولة صحيحة، لكن بعض الإجراءات الحَذِرة والمتحفظة لحكومته لم تكُن لتؤثِّر في الرَّأي العامّ. فكان لا بدّ من اختيار شخص آخر أكثر حنكة وقدرة، واتِّخاذ قرارات أكثر أهَمِّيَّة، لمواجهة العاصفة التي كانت تثور، وللوقوف في وجه التحريضات الأجنبيَّة.

لم يكُن الشَّاه قد أدرك بَعدُ وَخامة الأوضاع، وكان كثير من حاشيته لأسباب مختلفة يحاولون إبقاءه على هذه الحال، ومع ذلك فقد كان مسيطرًا تمام السيطرة على الأمور، وكان متمكِّنًا من جميع الأسباب التي من شأنها إحداث تغيير أساسيّ في قيادة شؤون الدَّولة.

قبل ذلك ببضعة أشهر كانت الألسنة بدأت تتناقل اسم رُوح الله الموسوي الخُمَيني، الذي كان منسيًّا إلى حدّ ما، كانت أشرطة خُطَبِه تُوَزَّع دخل إيران، بخاصَّة قم وطَهْرَان، كان الشَّاه شخصيًّا هدف هجومه الحادّ، ومع هذا لم يكُن محمد رضا البهلوي الذي كان في أوج غروره يحتمل مثل هذه الخُطَب المحرِّضة، وسمح للمقرَّبين منه بارتكاب خطأ سياسيّ فاحش.

في الثَّامن من يناير عام 1979، نشرت صحيفة "إطلاعات"، وهي واحدة من صحيفتين مسائيتين مهمّتين في طَهْرَانَ، مقالة شديدة اللهجة ضِدّ آية الله الخُمَيني، الذي قلّما كان أحد يخاطبه بـ"آية الله العُظْمَى".

اتهمه كاتب المقال بأنه هنديّ الأصل، وهو أمر صحيح. وكتب أنه كان لوطيًّا في صغره، وهو أمر ليس عليه دليل مؤكَّد، وعلى أي حال فقد كان أمرًا خصوصيًّا، ولم تدرج العادة في إيرانَ على الإشارة إلى مثل هذه الجزئيات التي تتناول الحياة

---

(1) لا بدّ أن نذكر بأن أمير عباس هويدا عُيِّنَ وزيرًا للبلاط خلفًا لأمير أسد الله، فقد كان علم مريضًا بشدة، ويُمضي أيام عمره الأخيرة خارج الدولة. (المترجم).

(2) Cornell.

الخُصُوصيَّة للشخصيَّات المعروفة. ولم يكُن عملًا صحيحًا. وكتب في مقاله أنّ الخُمَيني رجل غير مثقَّف حتى ذلك الزمان. وحتى عندما وصل إلى السُّلْطة بعد ذلك بعامين. لم يكُن أحد قد قرأ أو عرف شيئًا من خلاصات فكره وكتاباته. واتهمه كذلك بعمالته لأجهزة المخابرات الأجنبيَّة. حتى إنه كتب في مقالته أن زوجة الخُمَيني كانت فتاة غير متزنة. وأنها كانت راقصة متجولة في شبابها. وهو بالتأكيد غير صحيح. فقد كانت زوجة الخُمَيني من عائلة محترَمة ولم تكُن راقصة متجولة. ولم يشكِّك أحد قطعًا في حسن أخلاقها وعِفَّتها. بشكل عامّ كان هذا المقال مزيجًا من المعلومات الصحيحة وغير الصحيحة.

اليوم كشفت الدراسات المعمَّقة لذلك المقال وكذلك مقارنة الروايات والشهادات المختلفة. بما لا يدع مجالا للشكّ. عن كيفيَّة ظهور فكرة كتابة ذلك المقال ونشره في صحيفة "إطلاعات". نعرف كيف ظهرت هذه الفكرة وكيف نُشر هذا المقال.

لقد فُرِضَ هذا المقال. الذي يحمل الاسم المستعار "أحمد رشيدي مطلق". على صحيفة "إطلاعات". لكن كيف؟ ولماذا؟

عرض أمير عباس هويدا وزير البلاط. فكرة كتابة مثل هذا المقال على الشَّاه. فقد كان أول شخص يقابل الشَّاه في كلّ صباح بالنظر إلى منصبه. وفي أحد الأيام عندما لاحظ انزعاج الشَّاه وتكدُّر خاطره بسبب انتشار أشرطة الخُمَيني ومحتواها. قال له: "لماذا لا نردّ عليه ونفضح حقيقة ماضيه للملأ؟". ويبدو أنّ الشَّاه لم يُجِبْ بالنفي. وقال "ولِمَ لا؟". وهي عبارة كان يستخدمها عادة لتأييد اقتراح أو رأي.

فورًا أُخِذَ جواب الشَّاه على أنه أمر. فأحال هويدا أمر تدوين المقال إلى كاتب وصحفي معروف من المقرَّبين منه[1]. لم تُعطَ أوامر واضحة لهذا الشخص.

---

(1) بعد انتصار الثَّورة قُبِضَ على أحد العاملين في مؤسَّسة الإذاعة والتليفزيون الإيرانية بسبب تشابه الأسماء بينه وبين كاتب المقال. بأمر من مسؤولي النِّظام الجديد (ومن المحتمَل شخص الخُميني). وأُعدم رميًا بالرصاص.

ويبدو أنهم لو يوضّحوا له الهدف الأصلي من كتابة هذا المقال، وهو بدوره لم يُعِر المقال الذي كُلّف بكتابته اهتمامًا كبيرًا، وخطّ على الورقة دون دِقّة ما كان يُقال هنا وهناك من إشاعات حول آية الله الخُمَيني.

أُرسِلَ المقال بعد كتابته إلى داريوش همايون وزير المخابرات، الذي كان صحفيًّا مشهورًا قبل وصوله إلى هذا المنصب. وأُبلِغَ أنَّ المقال يجب أن يُنشر في "صحيفة مُهِمَّة".

يعتقد فريدون هويدا، شقيق وزير البلاط المَلَكِيّ الأصغر، الذي رأى في المقال الشرارة التي أشعلت النار[1]، أن وزير المخابرات فرض المقال على صحيفة طَهْرَان المسائية المهمَّة. لقد ردّ داريوش همايون مَرَّات عِدَّة وبالتفصيل على كثير من الأسئلة والانتقادات الموجَّهة إليه. بدايةً كذَّب التُّهَم الموجَّهة إليه على أنه كاتب المقال، ثمَ اتَّهم الشَّاه بأنه مَصدر الإلهام والأمر بكتابة ونشر المقال، واعتبر كذلك المقرَّبين من أمير عباس هويدا هم المسؤولين عن تجهيز وتدوين المقال، لكنه قبِل بأنه تَسَلَّم المقال من وزارة البلاط وأرسله دون النظر في محتواه إلى الصحيفة المذكورة[2].

حقيقة الأمر أن وزير المخابرات، سواء أقرأ أم لم يقرأ المقال شخصيًّا، عرض مسألة الصحيفة التي يجب أن تنشر المقال على وزارة المخابرات والمقامات الحُكُوميَّة العُلْيا. استُثْنِيَت صحيفتا طَهْرَان الصباحيتان المهمتان مباشرةً، كانت الأولى صحيفة "رستاخيز"، الصحيفة الرَّسْميَّة لحزب "رستاخيز" (النهضة)، وهي بذلك تكون صحيفة رسميَّة، بينما كان داريوش همايون نفسه رئيس تحرير الصحيفة الثَّانية "آيندكان" (الأجيال القادمة)، لكنه عندما وصل إلى منصب وزير المخابرات شُطِبَ اسمه من الصحيفة، لكنه بقي يكتب افتتاحياتها التي كان يدلّ أسلوب كتابتها على كاتبها بشكل واضح. لقد كان نشر المقال في صحيفة "آيندكان" يُضفِي عليه الطابع الرَّسْميّ، لذا استُثْنِيَت أيضًا.

---

(1) Fereydoun Hoveyda, La Chute du Shah, Buchet chastel, Paris, 1980, P. 21.

(2) داريوش همايون، ديروز وفردا، مطبوع في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، 1981، ص92.

لهذا كان لا بدّ من اختيار واحدة من صحيفتَي طَهْرَان المسائيتين المهمَّتين والأكثر انتشارًا. كان السيناتور مصطفى مصباح زاده رئيس تحرير الصحيفة الأولى "كيهان" (العالَم) ومديرها. وكان رجلًا صاحب نفوذ يمكّنه من التواصل مع الشّاه بسرعة، وقد يقنعه بالعدول عن نشر المقال، أو على الأقلّ يسأله عن طبيعة الأوامر التي أصدرها، عندها سيتّضح أنّه في حقيقة الأمر لم تصدر أيّ أوامر.

في النّهاية استقرّ الأمر على صحيفة "إطلاعات"، أقدم صحف العاصمة طَهْرَان، التي أسَّسَها قبل ذلك الوقت بنصف قرن عائلة المسعودي. كان رئيس تحريرها من مدة قريبة عباس مسعودي النائب الأول لرئيس مَجلِس الشُّيُوخ، وكان شخصًا صاحب نفوذ. وبعد موته تَوَلَّت زوجته السيدة قدسي مسعودي وابنه فرهاد إدارة "مجموعة إطلاعات". كان رئيس التحرير ومدير التحرير الرَّسْميّ هو فرهاد المسعودي. الذي لم تكُن له خبرة في العمل الصحفي ولم يكُن ذا نفوذ سياسيّ مهمّ، لدرجة أنه بعد موت عباس مسعودي كان أمير عباس هويدا هو من يعيّن محرِّري الصحيفة ويفرضهم عليه. قاوم فرهاد مسعودي مطالب "السُّلْطات العُلْيا" لثمانٍ وأربعين ساعة، وفي خضمّ ذلك علم "السافاك" بالأمر. أُخبِرَ الفريق نصيري، رئيس "السافاك" بأن أوامر نشر المقال من الشَّاه مباشرةً، وهي مسألة كانت إلى حدّ ما صحيحة وغير صحيحة، فقد كان باستطاعته أن يرفع هذا الأمر إلى الشّاه أو إلى رئيسه القانوني المباشر، رئيس الوزراء، وأن يبدي رأيه في المسألة بصراحة، إن كان معارضًا لهذا الأمر ولا يجد فيه مصلحة، أو على الأقلّ أن يتأكد من أن أمرًا قد صدر. لكن يبدو أنه لم يُظهِر ردّ فعل. كان نصيري رجل الطاعة العمياء لأوامر الشّاه، لا رجل مناقشتها وإبداء الرَّأي فيها، ربما لم يبد اهتمامًا لمسألة بهذه البساطة، ولم يرَفعها سببًا يزعج به الشَّاه، يبدو أنّ بعض المقرَّبين منه قالوا له إن نشر هذا المقال أمرٌ غير صحيح وقد يكون له تبعات غير محمودة، وفرضًا أن هذا الأمر كان صحيحًا، فهو لم يَلْقَ اهتمامًا من الفريق نصيري.

في نهاية الأمر حاول فرهاد مسعودي عن طريق والدته التي كانت من المقرَّبين من المِلِكة الأُمّ أن تُطلِع الأخيرةُ الشّاه على القضيَّة، وأن تنقل إليه قلقه، لكنه لم ينجح، واضطُرّ إلى الاستسلام.

يبدو أن رئيس الوزراء لم يكُن على علم بأي شيء، والمؤكّد أنّ الشّاه أيضًا لم يقرأ نص المقال، وكلاهما علم بذلك بعد فوات الأوان، بعد أن نُشر المقال في صحيفة "إطلاعات".

على هذا النحو بدأت عمَليَّة إبرازرُوح الله الخُمَيني: أخرجوه من النِّسْيان النِّسبِيّ، وحوّلوه إلى معارض وهدف أصليّ للحُكُومة، ومهَّدُوا له الطريق.

لا أعلم هل كان عملًا خاطئًا، أم خطأً متعمّدًا، أم نوعًا من المؤامرة. كلّ هذه الافتراضات قيلت وتُقال عن هذه الحادثة، لكن اليقين هو أن شخصًا أو أشخاصًا بين المقامات العُلْيا، بشكل متعمَّد أو غير متعمّد، بدؤوا حادثةً لم يستطِع أحدٌ في ما بعد أن يكبح جماحها.

بعد تلك التمهيدات التي شاهدناها، بدأت الثَّورة الإسلاميَّة في هذا اليوم، وظهر الخُمَيني في الساحة لقيادتها، واستمرَّت الأخطاء...

***

في اليوم التالي لنشر المقال، وحسب المؤرّخ الرَّسْميّ للجُمهُوريَّة الإسلاميَّة، خرج ثلاثة آلاف شخص(1) في قم احتجاجًا على محتوى المقال، لكن هذا الرقم الذي ذكره بعد اعتلاء الخُمَيني للسُّلْطة كاتب يوميات النِّظَام الإسلاميّ الرَّسْميّ، مُبالَغ فيه، وهو في جميع الأحوال يشير إلى قِلَّة مؤيّديه. على أثر هذه المظاهرات حصل اشتباك بين المحتجّين ورجال الأمن، مِمَّا أدَّى إلى موت أحد المحتجّين متأثرًا بجراحه.

كانت الحُكُومة ومؤيّدوها لا يزالون قادرين على حشد الجموع، ففي السادس

---

(1) علي دواني، مرجع سابق، الجزء السابع، ص24.

والعشرين من يناير نظّمت نقابات العمّال، وأعضاء الشركات التعاونيّة الريفيّة، ومجموعة من نقابات السُّوق، مظاهرات حاشدة بدعوة من حزب "رستاخيز"، للاحتفال بذكرى ثورة الشّاه والشّعب. أعلنت الأجهزة الأمنيّة أنّ عدد المتظاهرين بلغ مليون شخص، وهو أيضًا لا يبدو واقعيًا، على أي حال كانوا مئات الآلاف، كان مؤيّدو الشّاه وسياساتِه كُثرًا، وكانت عندهم الجرأة على التجمُّع، كان بإمكان الحُكُومة أن تستغلّ هذه المظاهرات الحاشدة، لكنها لم تفعل.

بعد مرور بضعة أيام على ذلك، في التاسع من فبراير 1978، وبدعوة من آية الله العُظْمَى شريعتمداري، أُقيمت في قم وبضعة أماكن أُخرى مراسم أربعينية الشخص الذي قُتل في التاسع من يناير، وكان رجال الدِّين ينادون بصوت واحد مطالبين بـ"إصلاحات" و"تغييرات سياسيّة". ماذا كانت طبيعة هذه التغييرات؟ لم يكُن أحد يشير إلى ذلك، وربما لم يكُن أحد يعرف، لم تكُن المؤسَّسة الدِّينِيَّة قد تجيّشت ضِدّ الشّاه والنِّظَام المَلَكِيّ بعد، وبشكل عامٍّ كان يبدو أن التغييرات المنادَى بها تشمل تطبيق الدستور بشكل دقيق في ما يخصّ تقييد صلاحيّات الشّاه.

اتُّخِذَت المظاهرات التي قامت في تبريز، موطن شريعتمداري، بهذه المناسبة منحًى عنيفًا، وتَوَقَّفَ أكثر من نصف متاجر سوق المدينة الكبيرة عن العمل، وبعد انتهاء المظاهرات هاجم مجموعة من مثيري الشغب مقرّ حزب "رستاخيز" وبعض فروع البنوك المختلفة وأحرقوها. كانت الأوامر المتناقضة الصادرة لقوات الأمن من العاصمة (أعطى "السافاك" أوامرَ، وأعطت قيادة الشُّرطة أوامرَ أُخرى) توحي بأن الحُكُومة لا تعرف ماذا تريد ولا ماذا تفعل.

في جوابه لأحد نُوَّاب البرلمان في إحدى الجلسات العلنيّة، قال وزير الدَّولة نائب رئيس الوزراء للشؤون البرلمانيّة هولاكو رامبد، أنّ مثيري الشغب جاؤوا من "وراء الحدود"، فأخذ معارضو الدَّولة يستهزئون به، كان الرَّأي العامّ في حالة شكّ وترديد، ومع هذا يجب القول إنّ هولاكو رامبد كان مُحِقًّا، ففي تبريز اعتُقِل بعض الإيرانيّين العائدين مؤخَّرًا من أمريكا، الذين كانوا من الأعضاء المعروفين للمنظّمات اليسارية المتطرّفة، وكذلك مجموعة ممن كانوا يتلقون تدريبات في

المخيمات الفلسطينية في لبنان وغيرها، بالإضافة إلى أشخاص غير إيرانيّين لم يكُن لوجود أي منهم في تبريز مبرّر. فلم يكونوا سيَّاحًا، ومع ذلك أُطلِقَ سراحهم دون أي سؤال بأوامر من الحُكُومة، وكانت الغاية تجنُّب "المشكلات". لكن أيَ مشكلات؟

كان حضور أعداد كبيرة من الأجانب العرب في تبريز، الذين كان من الواضح أنهم لم يأتوا للتنزه ولم يكونوا سُيَّاحًا، يجذب الانتباه، كانوا يترَدَّدون في شوارع المدينة، وكانوا يقيمون في الفنادق بجوازات سفر عربيَّة مختلفة. وكانوا يعرِّفون عن أنفسهم على أنهم فلسطينيون. لم تُبدِ الأجهزة الأمنيَّة أي ردّ فعل تجاه هذه الظاهرة غير العادية، وحتى عندما أُلقِيَ القبض على بعضهم في المظاهرات العنيفة وهم مسلَّحون بالأسلحة البيضاء، أطلق رجال الأمن سراحهم فورًا[1].

منذ ذلك الوقت كان حضور أعداد من "الفلسطينيين" في طَهْرَانَ ملموسًا. كان كثير منهم يهاجمون البيوت ليلًا وينهبونها، وأثاروا بذلك الهلع بين الناس. لم تبد الأجهزة الأمنيَّة أدْنَى ردّ فعل بناءً على أوامر من "القيادة العُلْيا". فمَن الذي أو الذين كانوا يُصدِرون هذه الأوامر؟ ما لا شكّ فيه أنّ هؤلاء "الفلسطينيين" كان لهم دور كبير في اضطرابات المدن والعنف المتزايد.

لم تكُن الحُكُومة تُدلِي بأي معلومات حول هذه الحوادث أمام الرَّأي العامّ، لذا كانت الإشاعات تتزاحم، والكل كان ينشر ما يحلوله. كان الشَّاه ساكتًا، ولم تكُن لدى الحُكُومة أيَ إجراءات، وبدا أنها غير موجودة.

على الرغم من ذلك، بدا في السابع من أبريل أنّ حزب "رستاخيز" سيُبدي ردّ فعل، أو على الأقلّ سيُظهِر وجوده، فنُظّمت مظاهرات حاشدة في تبريز، شارك فيها ما يقارب ثلاثمئة ألف شخص، وألقى جمشيد آموزكار رئيس الوزراء خطبة حماسية أمام الجموع، لكنه لم يترجّل من سيارته في الطريق من المطار إلى مركز

---

(1) انظر المذكّرات السياسيّة للسيناتور الأسبق حسين موسوي تحت عنوان «يادنامهها»، كولن، 2004، ص419. تعتبر مذكّرات حسين موسوي، المحامي الشهير وسيناتور تبريز والرجل الثاني في حزب رستاخيز، وثيقة شديدة الأهَمِّيَة حول أحداث هذه الفترة.

المدينة ومن مركز المدينة إلى المطار، ولم يتحدث إلى الناس ولو ببضع كلمات[1]، فقد كان انطوائيًّا بطبعه، ولم يكُن يحبّ مثل هذه المظاهرات.

في هذه الآونة شارك الشّاه في مراسم يوم "حُرِّيَّة النِّسَاء". وقال في خطابه مشيرًا إلى الضَّجَّة التي أحدثتها مجموعة من رجال الدين: "القمر ينشر نوره والكلاب تعوي". أغضبت هذه الكلمات كثيرًا من رجال الدِّين بشِدَّة. كان من الممكن استثمار هذه التصريحات كإشارة إلى هيبة الدولة، ولكن هذا لم يحدث.

كان على الحُكُومة أن تتفاوض مع كبار رجال الدِّين من منطلق القوَّة: قدّم قسم تحليل شؤون إيران تقريرًا دقيقًا للشّاه بعنوان "الحوار والصلح والتوافق مع قم"، مؤكِّدًا فيه أهَمِّيَّة المسألة والطريق الذي يجب سلوكه. لكن "السافاك" وهويدا وزير البلاط، خَطَّأا هذا التقرير، ولم يُلقِ رئيس الوزراء له بالًا، وفي نهاية الأمر لم يُتَّخَذْ أيُّ قرار. كانت أشرطة آية الله الخُمَيني (التي أخذت تدعوه أكثر من قبل بآية الله العُظْمَى) تُوَزَّع في طَهْرَانَ وقم والمدن الأُخرى بشكل علنيّ، لقد أصبح يُعتبر قائد الجناح المتطرِّف للمعارضة، كان عليهم إبعاد رجال الدِّين المعتدلين عنه، لكنهم لم يفعلوا... بعد أشهُر حاولت الحُكُومة والبلاط فعل ذلك، لكن الأوان كان قد فات.

الحقيقة أن البلاط والحُكُومة كانوا آنذاك يعلمون كلّ شيء، لكنهم كانوا يتصرّفون كأن الوضع طبيعيّ بالكامل، كانت أخبار المظاهرات والاضطرابات قد خُفِّضت إلى حدّها الأدْنَى، وكان البلاط والحُكُومة و"السافاك" لا يزالون يعتقدون أنهم لا يجب أن يُقلِقوا "خاطر جلالته"، بل يجب أن يُبْقُوه "مرتاحًا"، لم يكونوا يريدون أن يفقد الشّاه "معنوياته القَوِيَّة" التي كانوا يفترضون أنه يملكها، لكن زمان استيقاظه قد اقترب. بشكل عامّ كان الجميع مغترِّين بقدرة وسيطرة الحُكُومة.

لم تَجْرِ أي عمَليَّة إصلاح سياسيّ مهمَّة، كان أكثر الناس لا يزالون أوفياء للشّاه، لكنّ الاستياء كان آخذًا في الازدياد، وكان يمهِّد الأرضيَّة لأي تحريض ومؤامرة.

---

(1) حسين موسوي، المرجع السابق، ص427. كان السيناتور موسوي هو المنظِّم الأساسي لهذه المظاهرات التي كانت تجري في مسقط رأسه وفي دائرته الانتخابية، وبطبيعة الحال كان حاضرًا إلى جانب رئيس الوزراء.

بالتزامن مع هذا الوضع، كانت المؤامرة التي تدور في الخارج لقلبِ إيران، وتوجيه ضربة قاضية للنِّظام فيها وتغييره، تتشكّلُ أولًا بأوّل.

***

بالنظر إلى العَلَاقات مع الدولتين الأنغلوساكسونيتين، بدت عبارات كارتر المادحة للشّاه ذكرى بعيدة ليس أكثر. فقد تَغَيَّرَت الأوضاع الآن.

في واشنطن كانت المواقف والعبارات الحادّة حول الشّاه تزداد يومًا بعد يوم، فقد اعتبره السيناتور إدوارد كينيدي في خطاب له "أحد أكثر القادة عنفًا في التّاريخ البشري". وقال: "لقد أنشأ النِّظَامُ المَلَكِيُّ في جميع أنحاء الدَّولة حُكُومةَ الخوف. وسحق تحت أقدامه حقوق البشر في أحلك الظروف"[1].

حضر جورج بال[2]، الشخصيَّة صاحبة النُّفُوذ في السّياسة الأمْرِيكِيَّة وأحد واضعي الخطوط العريضة للدبلوماسية الأمْرِيكِيَّة. إلى طَهْرَان لتحليل الأوضاع السِّياسِيَّة في إيران، والتقى الشّاه وعددًا من شخصيَّات المَمْلَكَة. والعجيب أنه جعل مكتب عمله في مقرّ الإذاعة (التليفزيون الوطنيّ الإيرانيّ) لا سِفَارة الولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة. وقد زاره هناك تقريبًا جميع معارضي الشّاه المعروفين أو الأقلّ شهرة، أو أنه من كان يدعوهم لمقابلته. شجّعهم بال ودعاهم إلى تصعيد معارضتهم للشّاه، رئيس الدَّولة الذي كان لا يزال بشكل رسمي صديقًا وحليفًا لأمريكا. سَرَت شائعة هذه اللقاءات في المدينة، وتناوَلَها الحديثُ في الضيافات الرَّسْميَّة والعلنيَّة للسفارات، لكنّ الدَّولة لم تُبدِ أدْنَى ردّ فعل، رسميّ أو غير رسميّ، في حين كان هذا الإجراء في الحقيقة تدخُّلًا علنيًّا في شؤون إيران الداخليَّة.

في أواخر ربيع 1978 عُلِّق التعاون العسكريّ والأمنيّ بين إيران والولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة عمليًّا، وبدأت الشركات الأمْرِيكِيَّة الكُبْرَى في إيرانَ وقف نشاطاتها ودعوة مُوَظَّفِيها للعودة إلى الولايات المتَّحدة، وكانوا يعلنون ذلك

---

(1) وردت هذه العبارات في أسبوعية Figaro-Magazine، العدد الرابع والعشرين، يوليو، 1999.

(2) George Ball.

رَسْمِيًّا وبشكل واضح من أن تعليق التعاون بين البلدين ساهم في تزايد القلق حول وضع إيران.

بدأ بعض الدبلوماسيين الأمْرِيكِيّين في طَهْرَانَ بتشجيع وتحريض معارضي النِّظَام بشكل عليّ ودون اتِّخاذ أدْنَى درجات الحَذَر أو مراعاة الأعراف السِّياسِيَّة كعدم التدخُّل في الشؤون الداخليَّة لدولة أُخرَى، وليست أيّ دولة، فهي دولة كانت لا تزال رَسْمِيًّا صديقة وحليفة لأمريكا[1].

حَسَبَ وثائق السِّفَارة الأمْرِيكِيَّة في طَهْرَانَ، المعروفة بوثائق "وكر التجسُّس"، كان مقهى فندق "كاسبين"[2] أحد مُلتَقَيَات مُوَظَّفي السِّفَارة مع المعارضة بالقُرْب من سِفَارة أمريكا[3].

منذ سنوات طويلة لم تتواجه قوات الأمن الإيرانيَّة مع مظاهرات الشوارع والثَّوَرَات السِّياسِيَّة، لهذا لم يكُن لديها المُعَدَّات أو الجاهزية والتدريب اللازم في هذا المجال، وقد امتنعت الولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة وبريطانيا العُظْمَى وإسرائيل عن بيع هذه المُعَدَّات لإيران بحُجَّة "احترام حقوق الإنسان"[4].

أعلن ديفيد آرون[5] المستشار الأول لوولتر موندبل[6] مساعد الرئيس الأمْرِيكِيّ، أنّ "حُكُومة كارتر تختلف عن الإدارة السابقة لأمريكا، إن كان الشَّاه يظنّ أن بإمكانه الحصول على ما يريد من مُعَدَّات عسكريَّة وعتاد فهو مخطئ"[7].

---

(1) أشار الشاه بعبارات مِلْؤها التعجب إلى تصرف George Lambrakis الأمين السياسّي لسفارة أمريكا الكبرى: Reponse a'l' Historie, P. 245.

(2) شارع «تخت جمشيد» تقريبًا مقابل مَقَرّ السفارة. (المترجم).

(3) وثائق السفارة الأمريكية في طهران (وكر التجسُّس)، الجزء 20.

(4) «المُعَدَّات التي طُلبت من بريطانيا على وجه السرعة، وصلت بعد الثَّوْرة وسُلّمت للنِّظام الجديد»:

Christian Delannoy et jean Pierre Pichard, Khomeyni, la Revolution trahle. P. 129.

(5) David Aaron.

(6) Walter amaondale.

(7) In Richard Sale, Carter in Iran, from idealism to disaster, Washington Quarterly, Automne 1980.

كانت مَحَطَّات الإذاعة الكُبْرَى في الغرب تزيد حِدَّة انتقادها للشَّاه والنِّظَام من خلال برامجها التي كانت تُبَثُّ بالفارسيَّة، سواء "صوت أمريكا" و"صوت إسرائيل". وكانت تُتابَع في إيرانَ بشغف. لكن "بي بي سي" كان لها دور خاصّ: "بدأت هذه الإذاعة منذ عام 1978 بالهجوم الشديد على النِّظَام في برامجها الفارسيَّة. كأنها قائد أوركسترا غير مرئيّ أعطى أوامره فجأة"[1].

"لقد بثّت (بي بي سي)، إذاعة السيد كالاهان رئيس الوزراء البريطانيّ. في برامجها على مرّ شهور أشرطة آية الله الخُمَيني التي كانت تدعو الشَّعب الإيرانيّ إلى الثَّوْرة"[2].

***

في الرابع عشر من يونيو 1978، عُزِل الفريق نعمت الله نصيري رئيس "السافاك" وعُيِّن خلفًا له الجنرال ناصر مقدّم رئيس الإدارة الثَّانية لهيئة الأركان المشتركة. لم يكُن الفريق نصيري رجلًا حسن السمعة. وكان كثيرون يعتقدون أنّ هذه التغييرات ضروريَّة بالتأكيد. لكنّها جاءت متأخرة[3].

بالتزامن مع هذه الظروف أدّى اعتقال عدد من قادة الاضطرابات في طَهْرَانَ وتبريز وقم والمدن الأُخرَى. وكذلك ارتفاع درجات الحرارة في الصيف وعطلة الجامعات والمدارس، إلى هدوء نسبيّ في البلد.

كان الشَّاه يتحدث أحيانًا عن توسيع هامش الديمقراطيَّة والحريَّات. وكان

(1) محمد رضا البهلويّ: Responsea I' Histoire, P. 211

(2) Le Figaro LER Fevrier 1999.

(3) عُيّن الفريق نصيري سفيرًا لإيران في باكستان، وأُرسِلَ إلى هناك على وجه السرعة، في الأيام الأولى من حكومة الفريق أزهاري استُعدِيَ إلى طهران، يقينًا بأمر من الشاه والملكة، واتُّخِذ القرار باعتقاله، قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة أخبره أصدقاءه في طهران بأنه سيذهب من المطار إلى السجن مباشرةً، كان بإمكانه أن يبقى في إسلام آباد ولا يعود، فقال لأصدقائه إن عدم طاعة الأوامر دون منزلته، فعاد واعتُقِل. أراد بعض أصدقائه تهريبه من السجن لكنه لم يقبل ثانيةً، ووقع في أيدي أفراد الثَّوْرة الإسلاميَّة، الذين عذّبوه بشدة. حقّق معه يزدي على شاشات التليفزيون، ولكنه لم ينطق بكلمة ضدّ الشاه، فأطلقوا الرصاص على ما تَبَقَّى من جسده، فوق سطح مكان إقامة الخُمينيّ. (المترجم).

أحيانًا يُدين بشِدَّة، من منطلق القُوَّة، مثيري الشغب والمعتدين على القانون والأمن، ولكن لم يكُن الهدف من إبداء هذه الآراء المتناقضة واضحًا.

في تلك الآونة قرّر الشَّاه أن يجدِّد علاقته بالمراجع العُلْيا في قم، بخاصَّة أن التواصل بدأ مع آية الله العُظْمَى شريعتمداري الذي كان لا يزال الناطق باسم معارضي الوضع القائم، واستمرَّت هذه الاتصالات إلى قبل مغادرة الشَّاه إيران بيوم أو يومين، لكن لم ينتج عنها أي نفع، وفي نهاية الأمر لم يُتوصَّل إلى نتيجة.

في الحادي عشر من أغسطس 1978، أقدم بضع مئات من الأفراد على تنظيم مظاهرات عنيفة في أصفهان، مركز جذب السياح والمسافرين الأجانب، بحُجَّة بداية شهر رمضان: لقد أصبح الأسلوب مكشوفًا. أقدم المتظاهرون على إحراق بعض المراكز الثقافيَّة وفروع البنوك وكسر الواجهات الزجاجية لبعض المتاجر! كان عنف هذه المظاهرات غير مسبوق، بخاصَّة أن كثيرًا ممَّن هُوجِموا في البنوك والمراكز ضُربوا وجُرحوا، بعبارة أُخرَى، لقد أخذت النيران تلتهم أصفهان.

كان الهدف واضحًا، فكما فعل المتشدِّدون الإسلاميُّون، لاحقًا، في دول كمصر وإندونيسيا وتونس وغيرها، كانوا يريدون توجيه ضربة إلى مراكز جذب السيَّاح في أثناء وجودهم، لأنهم كانوا يؤمنون بأن هذه المراكز مخالفة للشرع، ومن جهة أُخرَى كانوا يرمون إلى التأثير في السيَّاح الذين يأتون إلى أصفهان، لكي ينقلوا صورة إلى الخارج مفادها أنَ إيران مضطربة وغير آمنة.

لمواجهة هذه الأوضاع، أعلنت الحُكُومة، بقرار من الهيئة التشريعيَّة، الأحكام العُرفِيَّة في مدينة أصفهان. استقرّت الشاحنات المليئة بالجنود أمام المراكز الثقافيَّة والأماكن التَّاريخيَّة المهمَّة لتوفير الراحة للسيَّاح، لكن مشاهدة اضطرابات الحادي عشر من أغسطس الدامية جعلتهم جميعًا تقريبًا يغادرون أصفهان. كان الجنرال ناجي قائد الحامية العسكريَّة في أصفهان يتجوَّل بشكل دائم في الأزقَّة والشوارع متحدثًا إلى التُّجَّار ومطمئنًا على أحوالهم، كان يريد أن

يُعلِمَهم بحضوره ويهدِّئ من خواطرهم التي كانت حقيقة قلِقة. لم يُتّخذ أي إجراء آخر ولم يُفِد إعلان الأحكام العُرفِيَّة بشيء[1].

كانت حوادث أصفهان مُقلِقة للحُكُومة. أمر الشَّاه أن تزداد الاتصالات مع قم[2]. لقد أصبح تردُّد مبعوثيه ومبعوثي الدَّولة وحزب "رستاخيز" والشخصيَّات السِّياسِيَّة على المراجع المقيمة في تلك المدينة ورجال الدِّين المهمِّين في الأماكن الأُخرَى أمرًا عاديًّا وعلنيًّا، لكن لم تُجْنَ أيّ ثمار سياسيَّة له.

بعد بضعة أسابيع، حدثت فاجعة آبادان، التي كانت في الحقيقة بداية المرحلة الدموية للثَّوْرة الإسلاميَّة[3]. خلال هذه الأسابيع التي عمّ فيها الهدوء النِّسبِيّ في الدَّولة، أبدت الحُكُومة تَردُّدًا وضَعْفًا كبيرًا، وهي فرصة أُخرَى ذهبَت هدرًا.

ذهب الشَّاه والملِكة وأفراد العائلة المالكة إلى نوشهر على سواحل بحر قزوين لقضاء العطلة الصيفية. بالطبع كان الشَّاه، ونوعًا ما الملِكة، يتابعان الأوضاع، لكن بشكل عامّ لم يكُن لديهم قلق في ضوء ما كانوا يستنتجونه من المعطيات. بدا أنهم لم يأخذوا القضيَّة على محمل الجدّ بعد.

---

(1) الجنرال ناجي، الذي كان شديد التديُّن، كان أحد القادة العسكريين الأربعة للجيش الملكي، الذين قُتِلُوا بأمر من آية الله فوق سطح مكان إقامته، في الدقائق الأخيرة من عمره طلب من الله المغفرة لقاتليه على قتلهم إنسانًا بريئًا، وكانت صحف طهران تتناقل هذا الخبر باستهزاء. (المترجم).

(2) كان كاتب هذه السطور هو الواسطة الأساسية بين الشاه وآية الله العظمى شريعتمداري، والرابط الأخير بينهما في الأسابيع الأخيرة، وردت تفاصيل ذلك في: Carnets secrets، الطبعة الثانية. تُرجم هذا الكتاب أيضًا إلى الإنجليزية والبولندية، انتشرت نسخته الفارسية تحت عنوان «آخرين روزها، بايان سلطنت ودركذشت شاه» عن طريق شركت كتاب في لوس أنجلوس، نقل السياسيّ البريطاني المعروف Sir Eldon Griffiths تفاصيل هذه الاتصالات من أقوال المقرّبين من آية الله العظمى في كتابه: Turbulent Iran, Recollection, Revelations and a Plan for Peace. Seven locks press, Santa Ana (California U.S.A) 2006, Pp. 92-94.

السيناتور حسين موسوي المنتخب عن مدينة تبريز وابن محافظة شريعتمداري، ذهب مبعوثًا من رئيس الوزراء آنذاك الدكتور جمشيد آموزكار، للقاء آية الله العظمى، وسلّم تقارير حول هذا اللقاء لرئيس الوزراء، يعتقد السناتور موسوي أنّ هذه التقارير لم تصل إلى الشاه. (انظر مذكّراته، مرجع سابق)

(3) انظر الصفحات السابقة لهذا الكتاب.

بعد مرور أربعة أيام على فاجعة آبادان، أي في الثالث والعشرين من أغسطس 1978، هاجم آية الله الخُمَيني الملكيَّة للمرة الأولى في شريط صوتي سُجّل وانتشر في إيران، وتَحَدَّث عن "الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة".

في السابع والعشرين من أغسطس وبأمر من الشَّاه، قدّم الدكتور جمشيد جعفري استقالته من منصب رئيس الوزراء، وابتعد عن عالَم السِّياسة.

***

بعد بضع سنوات من حادثة الثَّورة الإسلاميَّة، كتب الكونت ألكساندر دو مارانش حول ذلك يقول: "لقد استغرقني التفكير كثيرًا حول هذه الحادثة المؤلمة. أجد رغبة كبيرة في أن يكتب مؤرّخ مقتدر كتابًا يقارن فيه بين المصير المحزن للويس السادس عشر، ونيكولاس الثَّاني آخر قيصر لروسيا، ومحمد رضا شاه البهلوي: لقد هُزم ثلاثتهم بسبب ضعفهم. لو كان لدى هؤلاء الملوك الثلاثة أي اطّلاع دقيق على الأوضاع لكانوا سلكوا طريقًا مختلفًا ولاختاروا أسلوبًا مغايرًا، وهو طريق الحزم المتزامن مع الحنكة، ولو فعلوا ذلك لتَغيَّر مسار التَّاريخ في الحالات الثلاث"[1].

***

الحوادث التي حصلت في إيرانَ خلال عام 1978، تشبه إلى حدّ كبير الاعتصامات والاغتيالات وقتل الناس والاضطرابات التي حصلت في روسيا على نطاق أوسع وأكثر أهَمِيَّة عام 1905. كان وضع روسيا في عام 1905 أكثر وخامة من وضع إيران عام 1978، لأنه في الحالة الإيرانيَّة كان التدخُّل، والتسيير التامّ للأحداث في النِّهاية، بيد الأجانب، مِمَّا أعطى القضيَّة بُعدًا مختلفًا. لكن في روسيا ثار جزء من الجيش في الحادثة المعروفة بتمرُّد البارجة بوتمكين[2]، وحدث أول عصيان في قلعة كرنشتات[3].

---

(1) Alexandre de Marenches, op. cit, P. 255.

(2) Potemkine.

(3) Krondstadt: قلعة ومقرّ عسكري بالقرب من عاصمة روسيا السابقة. (المترجم).

بقي الجيش وفيًا للدستور الأساسيّ وللشَّاه الذي كان القائد الأعلى القانوني للقوات المسلَّحة حتى الدقيقة الأخيرة، حتى حين غادر إيران. في روسيا ثار كثير من الفلاحين في القرى، في حين كانت جميع القرى في إيرانَ تعيش بهدوء وفي منأًى عن الاضطرابات.

في إيران، عندما أُجبِرَ الدكتور آموزكار، الرجل الصادق ولكن غير المؤثّر وغير الحازم، على الاستقالة بعد فاجعة آبادان، كان لا بدّ من أن يترأَّس الحُكُومة رجل مثل ستوليبين[1] لقيادة وتسيير أمور الدَّولة. سواء عسكريّ أو غير عسكريّ. وقد كان بعض الأشخاص من هذا النوع موجودين على الساحة.

اختار محمد رضا شاه، السبعيني جعفر شريف إمامي رئيس مَجلِس الشُّيُوخ رئيسًا للوزراء، وتَبَيَّن سريعًا -وقبل الشَّاه بذلك أيضًا- أنه أقدم على الاختيار الأسوأ.

***

كان رئيس الوزراء الجديد رئيسًا لِمَجلِس الشُّيُوخ لخمسة عشر عامًا مضَت، وكان مديرًا لمؤسَّسة البهلوي[2]، وبنك تنمية الصناعة والتعدين الإيرانيّ، وعشرات شركات الصناعة والتعدين والتجارة الأُخرَى. وكان "أستاذ المحفل الماسوني الأعظم". الجميع في طَهْرَانَ كانوا يعلمون أن حصوله على المنصب الأخير جاء

---

(1) Peter Arkadievitch Stolypine: عُيِنّ رئيسًا للوزراء في عام 1906 بأمر من نيكولاس الثاني، ونجح في إبعاد الخطر عن بلده، وأن يُمدّ في عمر النِّظَام، من جهة قمع المعترضين العنيفين المتمردين بقوة وبلا رحمة، ومن جهة أخرى بدأ إصلاحات اقتصادية واجتماعيَّة واسعة، كانت جماعة من المقرّبين من القيصر تعتبره إصلاحيًا متطرِّفًا، وكان معارضوه المتشددون ينادونه بـ"الرجعيّ"، لأن إصلاحاته كانت سدًا في وجه دعاياتهم وأعمالهم التخريبية. قُتل ستوليبين عام 1911 في مدينة كييف على يد أحد المعارضين للنِّظَام، الذي كان أيضًا أحد عملاء الشرطة السِّرِّيَة الرُّوسيَّة (الأوخرانا)، يُجمِع المؤرّخون اليوم على أن القيصر لم يكُن على علم بعملية الاغتيال هذه، بينما كان بعض المقرَّبين منه على علم بذلك ولم يفعلوا شيئًا، ولم يخبروه. كان ستوليبين هو رجل الدولة المقتدر الأخير في روسيا، من المؤكَّد أنه لا يمكن إعادة كتابة التاريخ، لكن يمكن تصوُّر أنه لو بَقِيَ حيًا في السُّلْطة لَمَا وقعت الثَّوْرة البلشفية.

(2) مؤسَّسة بقانون خاص، لم تكُن حكومية ولا خاصَّة، كانت ترعى نشاطات ثقافيَّة واجتماعيَّة وخيريَّة كثيرة، لكن طريقة الرقابة على أرصدتها لم تكُن واضحة للرأي العامّ، وكانت تثير الانتقادات بين حين وآخر، انتقلت كلّ أملاك مؤسَّسة البهلويّ بعد الثَّورة إلى الجمهوريَّة الإسلاميَّة.

بناءً على تَدخُّل من الشَّاه الذي كان يريد شخصًا وفيًّا ومُطِيعًا يرأس ويراقب الماسونية في إيران.

وسواء عن استحقاق أو بغير استحقاق، فقد كان شريف إمامي سيِّئ السمعة بشكل استثنائيّ، كان كثيرون يلقبّونه بالسيد "5%"[1]. لقد تَجرَّأ الجنرال مقدم، الذي كان قد عُيِّن رئيسًا لـ"السافاك" حديثًا، أن يقول للشَّاه: "هذا أسوأ اختيار ممكن... ستبدأ الانتفاضة الشَّعْبيَّة بعد شهرين"[2].

كان يريد الشَّاه بهذا الاختيار يريد أن ينقذ أمورًا أو أشخاصًا -لكن أيّ أمور وأيّ أشخاص؟- عن طريق تظاهُر رئيس الوزراء بإجراء بعض الإصلاحات الشكليَّة وإصلاح "ما لا يمكن إصلاحه". لكنه فقَدَ كلّ شيء بهذا الاختيار. كتب أخوه شاهبور غلام رضا لاحقًا: "كان هذا اختيارًا سيئًا، كان خطأ فادحًا"[3].

قرّر شريف إمامي، دون الإعلان رَسْمِيًّا وعلنيًّا، ودون قرار من الحُكُومة والمَجلِسَيْن، أن يلغي التقويم الشَّاهنشاهي ويُعيد التقويم الشمسي[4]. مع أنه عندما كان رئيسًا لمَجلِس الشُّيُوخ كان من أشدّ المؤيّدين وأكثرهم تَعَصُّبًا إزاء إلغاء التقويم الهجريّ وإقرار التقويم الشَّاهنشاهي[5].

كان قرار شريف الثَّاني، الذي أُعلِنَ هذه المَرَّة بشكل رسميّ، هو إغلاق جميع الكازينوهات في جميع أرجاء الدَّولة. كان عدد هذه الكازينوهات أقلّ من عشرة، وكانت كلّها لمؤسَّسة البهلوي، التي كان هو رئيسها وهو من قرَّر إنشاءها!

قوبلت هذه الإجراءات التي صدرت من أجل "تنقية الجوّ السياسيّ" باستهزاء وسخرية عامَّة الناس لبضع ساعات، لكن سرعان ما نسيها الجميع. كان الناس ينتظرون إصلاحات من نوع آخر، الأمر الذي لم يكُن شريف إمامي يصلح له.

---

(1) بسبب الرشوة التي كان يتقاضاها من الناس (المترجم عن الفارسية).

(2) انظر: Carnets secrets, Pp. 129-133 مرجع سابق. وأيضًا مذكّرات الملِكة فرح، مرجع سابق، النّصّ الفرنسي، ص278-279.

(3) G.R Pahlavi. Op. cit. p. 268.

(4) 622 ميلاديًا، هو العام الذي هاجر فيه محمد، نبيّ الإسلام، من مكّة إلى المدينة.

(5) الذي كانت بدايته في القرن السادس قبل ميلاد المسيح بالتزامن مع بداية تأسيس الإمبراطورية الإيرانية على يد كورش الكبير.

في السابع من سبتمبر عام 1978، خرج ما يقارب مئة ألف شخص في مسيرة بمناسبة أحد الأعياد الدِّينِيَّة[1] إلى شارع كورش الكبير في طَهْرَانَ (طريق شميران القديمة)، لأداء صلاة العيد، في نهاية الجموع كان بعض الفلسطينيين يحملون صورًا لآية الله، وكانوا يطلقون الشِّعارات ضِدّ الملكيَّة. ومع ذلك فقد كانت صور آية الله العُظْمَى شريعتمداري لا حصر لها، وبشكل عامّ لم تتجاوز شعارات المتظاهرين المطالبة بتطبيق الدستور. كان في مقدّمة جموع المتظاهرين جمع كثير من القادة السياسيّين من ضمنهم قادة الجبة الوطنيَّة، وجمع من رجال دين العاصمة. نقل التليفزيون الإيرانيّ أخبار ومشاهد هذه المظاهرات بصدق وحيادية.

في نفس اليوم، وتقريبًا في نفس الساعة، ذهبت المِلكة فرح بمناسبة "اليوم الوطنيّ للمستشفيات"، دون إشعار مُسبَق، في زيارة تَفقُّديَّة لأحد أكبر مستشفيات جامعة طَهْرَان، مستشفى الدكتور إقبال، ثمّ مؤسَّسة محاربة السرطان.

على الرَّغم من أنّه لم يُعلَن عن هذه الزيارة مُسبَقًا، فسرعان ما انتشر خبر حضور المِلكة إلى المستشفى بين أهالي الأحياء المجاورة، فاجتمع ما يقارب عشرة آلاف شخص أمام المستشفى يصرخون بحماس شديد: "يعيش الشَّاه".

عندما خرجت المِلكة مشيًا على الأقدام من المستشفى وتوجهت نحو مؤسَّسة محاربة السرطان، الواقعة على بُعد بضع مئات من الأمتار، تزايدت أعداد الناس، وكان جَوُّ هذه المظاهرة حماسيًّا بالفعل.

في هذه الأثناء وصل صحفيُّو الإذاعة والتليفزيون الوطنيّ الإيرانيّ، نُقِلَت أخبار هذه الزيارة ومظاهرات الناس الحماسية باقتضاب شديد، لكن رئيس الوزراء أصدر لاحقًا أوامره بعدم بثّ هذه الأخبار، وأن لا يُشار إليها إطلاقًا، قال شريف إمامي: "يجب عدم إغضاب المعارضين".

---

(1) عيد الفطر. (المترجم).

بعد ظُهر نفس اليوم، الخميس الموافق السابع من سبتمبر، تَجمَّع قرابة ثلاثة آلاف شخص، وحسب بعض الروايات خمسة آلاف، من مناصري آية الله الخُمَيني (الذي لم يكُن قد حصل بَعدُ على لقب "العُظْمَى") في ميدان جاله الواقع شرقيّ العاصمة الإيرانيَّة. كانت الشِّعارات قاسية ومتشددة، وكانت تُطلَق صرخات "الموت للشَّاه". في نهاية المظاهرات التي انفضّت دون تَدَخُّل من قوات الأمن، أُعلِنَ أن "مسيرة ضخمة" ستنطلق من ميدان جاله، لكن لم يذكروا إلى أين ستتوجه.

الخميس مساءً، اجتمع مَجلِس الأمن القوميّ الذي كان رئيس الوزراء يترأسه، وتَقرَّر إعلان الأحكام العُرفِيَّة في طَهْرَانَ ابتداءً من صباح اليوم التالي الجمعة الثَّامن من سبتمبر 1978 ميلاديًّا. كان إعلان الأحكام العُرفِيَّة وتطبيقها يتطلب قرارًا من مَجلِس الوزراء وموافقة من المَجلِسَيْن، لذا دُعي الوزراء للقدوم إلى قصر رئاسة الوزراء، ليُنفِذوا في جلسة طارئة اقتراحَ مَجلِس الأمن القوميّ. أيّد مَجلِس الوزراء هذا الاقتراح. وتَقرَّر أن يُتّخذ هذا القرار أيضًا في عدَّة مدن أُخرى على سبيل الاحتياط.

وفي اتصال هاتفي استجلى رئيس الوزراء رأي الشَّاه حول هذه القرارات. في البداية كان الشَّاه غيرراضٍ[1]، لكنه وافق في النِّهاية.

في تلك الجلسة اختير الفريق غلام علي أويسي، قائد القُوَّات البرية، قائدًا عسكريًّا للعاصمة. ولاحقًا اختير أحد معاونيه وهو الجنرال جعفر صانعي مساعدًا للقيادة العسكريَّة لطَهْرَان[2].

---

(1) حسب شهادة أردشير زاهدي، سفير إيران في واشنطن، الذي استُدعِيَ للتشاوُر إلى طهران، فقد كان يتناول العشاء مع الشاه والملِكة عندما أُجرِيَت تلك المكالمة الهاتفية، وكان أردشير زاهدي يسمع أجوبة الشاه، انظر: Intold Secrets, Los Angles, 2002، هذا الكتاب هو مجموعة من حوارات، ومقالات، ومحاضرات، وبعض آراء السيد أردشير زاهدي التي جُمعت ونُشرت باهتمام من السيدة بري أباصلتي، رئيسة تحرير مجلة «راه زندگي».

(2) الجنرال جعفر صادقي المقيم حاليًا في كندا، وَضَعَ تحت تصرُّفي متلطِّفًا مذكَّراته اليوميَّة حول هذه الفترة، أتقدم إليه بجزيل الشكر، وكذلك إلى زميلي القديم وصديقي العزيز نادر ملكي الذي مهّد لهذا الأمر.

كان مِن المقرَّر أن تُطَبَّق الأحكام العُرفِيَّة في العاصمة ابتداءً من الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة الثَّامن من سبتمبر 1978.

الفريق غلام رضا أزهاري الذي حضر جلسة مَجلِس الوزراء بشكل استثنائيّ، طلب بإلحاح وبشكل متكرِّر من رئيس الوزراء الإعلان مباشَرةً عن تطبيق الأحكام العُرفِيَّة في العاصمة عن طريق إذاعة إيران، التي كانت تبثّ برامجها على مدار اليوم، وأيضًا عن طريق القنوات التليفزيونية التي كانت تقدِّم برامجها حتى منتصف الليل.

أصدر رئيس الوزراء أوامره مباشَرةً وبلا تردُّد لمنوشهر آزمون، وزير الدَّولة والنائب التنفيذي لرئيس الوزراء، بإبلاغ رضا قطبي، المدير العام لمؤسَّسة الإذاعة والتليفزيون، بالمسألة لاتِّخاذ الإجراءات لذلك.

على الرَّغم من طلب رئيس هيئة الأركان شديد الإلحاح والمنطقيَّة، وكذلك أوامر رئيس الوزراء المؤكَّدة لمنوشهر آزمون، فإنَ إعلان تطبيق الأحكام العُرفِيَّة في العاصمة لم يُبَثّ تلك الليلة من الإذاعة والتليفزيون الإيرانيّ، ولم يعلن الخبر للناس إلا في الساعة السادسة صباحًا من يوم الجمعة، أي في اللحظة التي كانت فيها حشود المتظاهرين في الأحياء المختلفة تتجمع للتوجُّه إلى نقطة الالتقاء في ميدان جاله.

مَن كان المسؤول؟

هل تباطأ منوشهر آزمون في تنفيذ أوامر رئيس الوزراء، أم أنّ الإذاعة والتليفزيون تجاهلت الأمر عن قصد، أو لِنَقُل قامت بعمل تخريبي؟ مهما كان السبب، فلا شك في وجود سوء نية، فلو أُعلِنَت الأحكام العُرفِيَّة للناس في الليلة السابقة فمن المؤكَّد أنَ كثيرًا من الناس كان سيتردد في الالتحاق بمجموعات المتظاهرين، ولكانت أعدادهم أقلّ، ولكان في المحصّلة عدد الجرحى والقتلى من العسكريّين والمدنيين أقلّ، ولَتغيَّر الموقف. ومع ذلك لم تُشَكَّل لجنة للتحقيق في هذه النِيَّة الخبيثة المبيَّتة. وجّه منوشهر آزمون أصابع الاتهام إلى رضا قطبي

على أنه السبب الرئيسي، بالطبع يجب القول إن منوشهر لم يكُن يُحسِن الظنّ في مدير مؤسَّسة الإذاعة والتليفزيون الذي لم يكُن بدوره يوليه أَدْنَى اهتمام. لم تناقش السُّلُطات القضيَّة، وكانت حقيقة الأمر تكمن في شيء آخر: لم يكُن في سفينة الحُكُومة قبطان.

في الثَّامن من سبتمبر، ومنذ الساعة السابعة صباحًا، أخذت شاحنات ومركبات الجيش والشُّرطة أماكنها على التقاطعات المحيطة بميدان جاله، وكانت تعلن للناس عن طريق مكبِّرات الصوت عن تطبيق الأحكام العُرفِيَّة محذِّرة في الوقت ذاته من التجمُّع والتوجُّه إلى الميدان.

لم تُجدِ هذه التحذيرات نفعًا، وتَجمَّعَت مجموعة عددها بين خمسة آلاف وثمانية آلاف شخص في ميدان جاله. كان هذا العدد تافهًا مُقارَنةً بمدينة يبلغ عدد سكانها أكثر من ثلاثة ملايين. بدأت المجموعة بالتوجُّه إلى ميدان بهارستان، وكانت المعلومات التي وصلت إلى أجهزة الأمن تُفيد بأنّ هدف المتظاهرين هو قصر بهارستان[1] الذي كانوا ينوُون السيطرة عليه وإعلان الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة منه.

العجيب في هذه المظاهرة، أنها على عكس مظاهرات اليوم السابق، لم يكُن فيها رجل دين أو رجل سياسة واحد معروف! هل كانوا على علم مُسبَق بما كان سيحدث، أم أنهم لم يكونوا يَنوُون التدخُّل في الهجوم والسيطرة على بهارستان "بيت الشَّعْب"؟

لم تُقدَّم أجوبة لهذه الأسئلة، ولم يبادر أحد بالتحقيق في الأمر، كان المحرِّك الأساسيّ لهذا التحرك، والذي يبدو أنه كان قد أصدر فتوى بهذا الخصوص دون أن يملك استحقاق وأهلية ذلك، رجل دين يُسَمَّى آية الله العلامة نوري، الذي كان معروفًا في بعض محافل طَهْرَان، لكن لم تُعرَف عنه معارضته للحُكُومة.

على أي حال، تَوضجَّه المتظاهرون بقيادة وتحريض مجموعة من المنتَقِبين الذين أخفَوا وجوههم كي لا يُعرفوا، إلى قصر بهارستان، حذَّرتهم قوات الأمن بأن

---

(1) مبنى مَجلِس الشَّعْب (المترجم عن الفارسية).

يتوقفوا ويتفرقوا، لكنهم لم يستجيبوا. فبدأ رجال الأمن بإطلاق الأعيرة النارية التحذيرية في الهواء. في تلك الأثناء أُطلِقَت النَّار نحو المتظاهرين ونحو رجال الأمن أيضًا، وكان مصدرها من بين المتظاهرين ومن فوق بعض أسطح المنازل المحيطة وبعض الشقق السكنية الواقعة في طريق حركة الحشود: أبدى رجال الأمن ردّ فعل. وبدأت معركة دامية. تحدث بعض المعارضين وبعض الصحف عن "الجمعة السوداء". لقد أصبحت المواجهة علنيَّة بين جناح المعارضين المتشدِّد (الذين كانوا يُعرَفون بـ"مؤيِّدي آية الله الخُمَيني") والنِظَام. لم يكُن الهدف من خلق هذه الفاجعة الدامية شيئًا غير هذا.

بعد فاجعة آبادان، كان لا بدّ من فاجعة أُخرَى لتحويل جبهة معارضة الحُكُومة إلى حركة عنيفة. أو بعبارة أُخرَى حركة ثوريَّة أو على الأقلّ متمرِّدة. وهو الأمر الذي حصل بعد هذه الحادثة.

كم كان عدد ضحايا هذه الفاجعة الحقيقيّ؟

بعد سنوات على هذه الحادثة صرَّح أحد قادة الحرس الثَّوريّ بأن عدد الضحايا بلغ "ستين ألفًا وأربعة". وهذا العدد بالطبع لا يشمل ضحايا رجال الأمن[1].

وحَسَبَ ما كتبته صحفيَّة فرنسيَّة. "في اليوم التالي. كان في طَهْرَانَ إجماع حول عدد الضحايا، لقد كان العدد أربعة آلاف"[2].

في عام 1986 نقرأ في ثنايا الملفَّات والوثائق[3] التي كانت تنشرها بين الحين والآخر

---

(1) حسين بروجردي، بشت برده هاي انقلاب اسلامى، انتشارات نيما، إسن، ألمانيا، 2002، ص430. كَتب هذا الكتابَ أحد رجال حرس الثَّوْرة بعد هروبه إلى الغرب، ويشتمل على مذكَّرات غير مرتَّبة إلى حدّ ما، يتناول فيها أحداث ما قبل وما بعد الثَّوْرة الإسلاميَّة إلى أواخر ثمانينيات القرن الماضي، ناشر الكتاب مؤسَّسة معروفة ومعتبرة، كثير من المعلومات فيه دقيقة ومطابقة للحقيقة، لذا لا يمكن تجاهله.

(2) Claire Briere, Iran, la Revolution au nom de Dieu, Paris, seuil, 1979, P. 61.
كانت الكاتبة آنذاك مبعوثة صحيفة Liberation الخاصَّة إلى طهران، وهي من أتباع الفيلسوف المشهور ميشيل فوكو، إحدى الـمُعجَبين بآية الله الخُمينيّ والثَّوْرة الإسلاميَّة.

(3) Dossiers et documents.

صحيفة "لوموند" الباريسية، التي كانت آنذاك من المدافعين عن آية الله الخُمَيني، بل ومن مُطلِقي العنان في مدحه، أنّ "عدد الضحايا الرَّسْميّ كان مئة وثمانين، لكن المعارضة تعتقد أنهم يزيدون على ألفين، لهذا اعتُقل وسُجن قادة المعارضة"[1].

بعد أسبوعين، حسب تقارير الطبيب الشرعيّ الدقيقة وتراخيص الدَفن التي أُصدِرَت بإشراف دقيق من السُلُطات القضائيَّة، زُوِّدَت الحُكُومة بأعداد الضحايا. لقد كانوا مئة وواحدًا وعشرين قتيلًا من المتظاهرين، وسبعين قتيلًا من رجال الأمن، أي ما مجموعه مئة وواحد وتسعون. هذه الفاجعة كانت أقرب إلى حرب أهليَّة دامية منها إلى مجزرة أحادية الجانب ارتكبَتها قوات الشُّرطة وأجهزة الأمن.

كانت الأعيرَة الناريَّة قد أُطلِقَت من جانب المتظاهرين نحو قوات الشُّرطة، كما أُطلِقَت أعيرَة أُخرى من فوق أسطح بعض المنازل ومن داخل بعض الشقق السكنية نحو المتظاهرين وقوات الشُّرطة، وأثبت هذا الأمرَ، بما لا يدع مجالًا للشَّكّ، تشريحُ الجثث الذي أجراه الطبّ الشرعيّ. لقد قُتل كثير من المدنيين برصاصات لا تعود إلى أسلحة رجال الشُّرطة.

كان عدد كبير من المرتزقة الفلسطينيين المسلَّحين، الذين لم يشكّ أحد في حضورهم في طَهْرَانَ، موجودين بين المتظاهرين، كان يُقال -ويبدو أنه كلام صحيح- إن هؤلاء الفلسطينيين هم من أطلق النَّار على المتظاهرين وقوات الأمن من فوق الأسطح ومن النوافذ. بعد مُدَّة اعتُقل آية الله نوري[2]، ووُجد في منزله بعد تفتيشه عددٌ من جوازات السَّفَر الصادرة عن عدة دول عربيَّة، كانت على الأغلب تعود إلى هؤلاء المتظاهرين الفلسطينيين -أو العرب- مثيري الشغب، كما عُثِر على وثائق تفيد بأنّ مبلغ أربعين مليون تومان (ما يعادل آنذاك خمسة ملايين وخمسمئة ألف دولار) قد حُوّل إليه من النَّجف. اليوم نعلم مصدر هذه الأموال التي خُصّصَت "لتجهيز للثَّوْرة الإسلاميَّة"[3].

---

(1) Le Monde, Dossiesset Documents, L' Historie au jour le jour le jour, 1974-1985, octobre 1986, P. 134.

(2) انظر مقابلة الفريق غلام علي أويسي مع مجلة «جاشا»، طبع باريس، العدد1، 22 أغسطس 1982.

(3) انظر الفصول التالية للكتاب.

كان العلامة نوري قد أودع مبلغ 18 مليون تومان من هذه الأموال، أي أقل من النصف بقليل، في حسابات أبنائه، وبقي جزء كبير منها في بيته وضُبِط.

هذه الحادثة، التي أطلقوا عليها اسم "الجمعة السوداء"، خُطِّط لها بدقَّة، وأمّن الأجانب ما كان يلزم من أموال لتنفيذها. نُشر بعض الوثائق التي ضُبطت في منزل آية الله العلامة نوري، بشكل متفرق في بعض صحف العاصمة، ثمّ وُقف نشرها بناءً على أوامر من رئيس الوزراء مراعاةً لأصول التهدئة مع المعارضة والمصالحة الوطنيَّة.

كانت النتائج السِّياسِيَّة والنفسيَّة لهذا اليوم الدامي سلبية، بل وكارثية، بالنسبة إلى الحُكُومة والنِّظَام الملكي. لم يكُن الهدف منها شيئًا آخر.

منذ ذلك الحين أصبح النِّظَام المَلَكِيّ ومحمد رضا شاه البهلوي شخصيًّا هدف هجمات المعارضين، واعتُبروا مسؤولين عن هذه المذبحة، في حين كان كل ما يشغل الشَّاه في خِضَمّ هذه الأحداث هو الحيلولة دون إراقة الدماء[1]. في الحقيقة تَأثَّر الشَّاه كثيرًا، وفقد معنوياته، كان يقول لكلّ من قابله: "ما الذي فعلته لهؤلاء؟!"[2].

بعد حوادث ميدان جاله، أمر رئيس الوزراء، على ما يبدو بتأييد من الشَّاه، بأن لا يُراعَى تطبيق الأحكام العُرفِيَّة في العاصمة، "كان قانون الأحكام العُرفِيَّة في الظاهر ساريًا، لكن لم يكُن هناك في الحقيقة أحكام عرفية"[3].

كتب الجنرال صانعي في مذكِّراته أن منوشهر آزمون، وزير الدَّولة والنائب التنفيذي لرئيس الوزراء، كان يهاتفه أحيانًا في اليوم ثلاث مَرَّات ليتأكَّد من عدم تنفيذ قانون الأحكام العُرفِيَّة في العاصمة.

---

(1) في هذه الأثناء قال الشاه للكونت أليكساندر دو مارانش، الذي كان قد جاء للقائه: «عزيزي الكونت، اعلم أنني لن أسمح أبدًا بإطلاق النار على شعبي»: Alexandre de Marenches, op. cit, P. 225.

(2) أنا نفسي سمعت منه هذه العبارة مرات عدّة.

(3) Michael Leadeen et William Lewis, Debacle, l'échec americain en Iran, traductione francaise, Albin Michel, Paris, 1981, P.164.

كانت الأحكام في الظاهر قاسية، لكنها لم تُنَفَّذ إطلاقًا. أُخبِرَ معارضو الحُكُومة والنِّظَام المتطرِّفون أن لا يخشوا تنفيذ الأحكام العُرفِيَّة وأن لا يخافوا من تشديدات الدَّولة، أي إن بإمكانهم فعل ما يحلو لهم دون خوف. لم يكُن هذا القرار يشمل مؤيِّدي الحُكُومة، فبناءً على قرار من الحُكُومة حُلَّت الجمعيَّات النسائية النشطة، بهدف تهدئة المعارضة. وقيل لأنصار الخُمَيني والجماعات المرتبطة بحزب "توده" والجماعات اليسارية المتطرِّفة إنّ الحُكُومة جادَّة في سياسة منحهم حرية أيّ عمل يريدونه.

وعندما دعا السيناتور مصطفى تجدد، أحد المصرفيين من أصحاب النُّفُوذ في الدَّولة[1] وأحد كبار المحفل الماسوني، ما يقرب من خمسين "أخًا" ليجتمعوا في منزله للتشاور حول كيفيَّة الدِّفاع عن النِّظَام وعن الملك شخصيًّا، أبلغهم رئيس الوزراء، الذي كان الأستاذ الأعظم للمحفل الماسوني الإيرانيّ، بأن هذا الاجتماع مخالف لقانون الأحكام العُرفِيَّة. وفي أثناء ذلك ولكسب ثقة المعارضين المتطرِّفين علّق نشاطات الماسونيين دون مراعاة الإجراءات المتَّبَعَة، وأُبلِغَ قراره هذا للمعارضة، بهدف إثبات حسن النِّيَّة.

في الحقيقة حاصرت الحُكُومة نفسها من جميع الاتِّجاهات بإعلان الأحكام العُرفِيَّة، ثمَ باتّخاذ القرار القائل بعدم تنفيذها وإبلاغ ذلك للمعارضة، وأصبحت هي المتَّهَم الرَّسْميّ بأعمال العنف وممارسة القُوَّة أمام الرَّأي العامّ الإيرانيّ والأجنبيّ على وجه الخصوص، لكنها لم تكُن تستخدم القُوَّة، ولم تستخدمها، الأمر الذي لم تتلقَّه المعارضة كتعبير عن حسن النِّيَّة، بل كعلامة على الضعف.

مع هذا كان على المعارضين المتطرِّفين أن يجعلوا إعمال الدَّولة للعنف ولجوأها إلى إراقة الدماء محسوسًا للرأي العامّ الداخليّ وللإعلام الأجنبيّ، وأن يرى الناس الدماء ويشعروا بسفكها[2].

---

(1) مؤسّس، ورئيس مجلس إدارة والرئيس التنفيذي لبنك التجارة الإيراني، أول مؤسّسة بنكية خاصّة في إيران.

(2) هذا الوصف لمحسن رضائي، مرجع سابق، هذه العبارات هي عناوين مقالات الشخص المذكور.

بدأت المرحلة العمَليّة لتقنيات الثّورة: استخدام التوابيت، إحراق مراكز الفساد، استخدام المساجد مقرّات للثّوْرة، استخدام "تشييع جنازة الشهيد" تقنيةً ثوريّة، استخدام لباس الشهداء المغطّى بالدماء، استغلال الحيوانات من أجل تشويه صورة "قادة نظام الطاغية"...

شرح محسن رضائي في كتابه لاحقًا جميع هذه الأساليب، وعبّر عنها بـ"تقنيات الثّورة"، وتولّى محسن رضائي بعد الثّورة قيادة الحرس الثّوريّ لخمسة عشر عامًا، وكان أحد المؤسّسين لأجهزة استخبارات النّظام الجديد[1].

"بعد سنوات، قيل وعُلم أنّ تلك الجنازات التي كانوا يتجولون بها على أنها أجساد للشهداء، لم تكُن في حقيقة الأمر سوى أجساد سرقوها من المقابر أو من قِطاع الطبّ الشرعيّ، ولطّخوها بموادّ سائلة بلون أحمر وأخذوا يعرضونها في الأماكن العامّة وهم يطلقون صرخات الانتقام. كان الشّعب الإيرانيّ يعتقد أنّه يوجَد آلاف الشهداء"[2]. بالطبع كان كثير من الإيرانيّين يعلمون الحقيقة آنذاك، لكن لم يكونوا يستطيعون أو لم يكونوا يريدون أن يقولوها أو يعلنوها. كان المسؤولون الحُكوميّون مطّلعين أيضًا على ما يجري، لكنهم كانوا يلتزمون الصمت متوهّمين أنهم بذلك يهدّؤون المعارضة.

***

بعد مرور خمسة عشر يومًا على تشكيل الحُكُومة وإضاعة الوقت الكثير على بضع جلسات لمَجلِس الوزراء وإعداد برنامج شامل وكامل لم يُلقِ أحدٌ له بالًا، قدّم جعفر شريف إمامي وزراءه للمَجلِس لأخذ الثِّقَة، ونجح في الحصول عليها بعد مفاوضات طويلة وبلا فائدة، لكنه في الوقت الذي حصل فيه على الثِّقَة وحاز

(1) حول دور محسن رضاني في تأسيس هذه الأجهزة (التي تُسَمَّى اليوم «واواك») انظر كتاب Yves Bonnet الرئيس السابق للوكالة الفرنسية لمكافحة التّجَسُّس D.S.T.
.Vevak, au service des ayatollahs, Histoire des services secrets Iraniens, Paris, Timeè, 2009
لُخّص كتاب محسن رضاني، الذي تُعتبر قراءته ضرورية لتحليل الثّوْرة الإسلاميّة، في مقال مفصَّل بقلم Robert Lacontre في أسبوعية Figaro Magazine، انظر أيضًا: H. Nahavandi, le grand .Mensonge Dossier moir de l' inte'grisme islamique, N.E.D. Paris, 1984

(2) Christian Delannoy, Jean Pierre Pichard, op, cit. P. 135.

السُلْطة القانونيَّة التي تسمح له بتنفيذ سياساته. كانت حكومته في حالة احتضار وكان بلده يغرق في الفَوْضَى.

***

في السادسَ عشَرَ من سبتمبر 1978، ضرب زلزال شديد جنوب ولاية خراسان، ودمَر أكثر من سبعين في المئة من مدينة طبس، ومات فيه ثلاثة آلاف شخص، وأوصل المسؤولون الحُكُوميَون، لا سيَّما "جمعية الأسد والشمس الحمراء". المساعدات الأوّلية بسرعة لسكان تلك المدينة، وبشكل عامّ كان ردّ الفعل في التعامل مع هذه الفاجعة سريعًا ومُرضيًا.

الشَّاه، الذي كان قد اتَّعظ من أخطائه وأخطاء العائلة المالكة ومسؤولي الدَّولة في حادثة سينما "ركس" في آبادان، اتجه شخصيًّا بعد يومين إلى مدينة طبس. المضحك في الأمر أنّه قيل في بعض المساجد وشاع بين الناس أن الأمْرِيكِيّين أجروا اختبارًا نوويًّا في تلك المنطقة ولوّثوا جوّ المدينة! استمرّت زيارة الشَّاه التفقُّدية بضع ساعات، كان استقبال الناس فيها حماسيًّا وتقليديًّا، في حين كان بعض المقرَّبين منه -ويبدو أنهم بعض رجالات الحُكُومة- قد حاول ثَنْيَه عن هذه الزيارة، وكانوا يقولون إنهم يخافون أن يتظاهر ضدّه المعارضون.

تَوجّه الشَّاه من طبس، دون إعلان مُسبَق، إلى مشهد، مرقد إمام الشِّيعَة الثَّامن، بالطبع لم ينتشر خبر هذه الزيارة التي كان من المفترض أن تكون غير مُعلَنة، ومع ذلك فقد علم سُكَّان المدينة سريعًا بقدوم الشَّاه إلى مدينتهم، فاجتمعت مجموعة من الناس حول مرقد الإمام الرضا مُظهِرين مشاعرهم تجاه الشَّاه. استقبل الشَّاه في إحدى قاعات متحف "حرم الرضا" عددٌ من رجال الدِّين الذين أظهروا له جميعًا الاحترام والوفاء، ويُقال إنه عندما انطلق في سفره كان قلقًا بعض الشيء، لكنه عندما عاد كان هادئًا، كأنه كان قد تَعجَّب من استقبال الناس الحافل له. كان يمكنه أن يأخذ درسًا من هذه الزيارة وأن يستغلّها سياسيًّا، وأن يدرك أن جزءًا كبيرًا من الشَّعب الإيرانيّ يقفون خلفه، وأنّ بإمكانه فعل شيء ما. لكنّه لم يفعل شيئًا. أيّ شيء.

بعد يومين من سفر الشَّاه إلى طبس، عيَّن رئيس الوزراء، بموافقة من مَجلِس الوزراء، الجنرال حسن عاطفي، المدير السابق المتقاعد للهندسة العسكريَّة، ممثِّلًا مفوَّضًا في منطقة طبس المتضرِّرة، وأصدر إليه الأوامر بإعادة إعمارها. كان الجنرال عاطفي رجلًا حسن السمعة ومتديِّنًا، فتَوجَّه مباشرة إلى طبس واستقرّ هناك، وسرعان ما بدأ أداء واجبه الذي وكلته إليه الحُكُومة.

البدء بأعمال البناء والإعمار والمساعدات الهامَّة التي وصلت إلى المتضررين كان له دور في نشر الهدوء في طبس، وفي هذه الأثناء جاءت مجموعة من المعمَّمين إلى طبس، لم يكُن أحد يعرف مَن هم ولا من أين جاؤوا، وزّعوا قليلًا من الأموال والملابس البالية وبعض الفاكهة والحلوى بين الناس.

بعد مغادرتهم طلب بعض المحرِّضين على اضطرابات طَهْرَان، وبعض الوسطاء، مقابلة رئيس الوزراء آنذاك، وتمّ لهم ذلك. قالوا له: "الآن وقد أبدى رجال الدِّين اهتمامهم بالناس، أليس من الأفضل أن تُوكَل إليهم مهمَّة إعادة إعمار المنطقة؟ سيكون (السَّادة) شاكرين لهذه (اللفتة الكريمة) منكم، وسيكون لهذا العمل أثر في ترضيتهم وتسكين الخواطر وتقليل التوتّر السياسيّ في البلد".

كان ردّ فعل رئيس الوزراء محيِّرًا، فقد وافق على طلب مبعوثي المتطرِّفين دون أخذ موافقة الشَّاه المُسبَقة على ما يبدو، ودون أخذ موافقة مَجلِس الوزراء (الذي أنفذ قرار تعيين الجنرال عاطفي ممثِّلًا مفوَّضًا في المنطقة)، وأمر بأن يحزم عاطفي ومعاونوه حقائبهم ويعودوا إلى العاصمة، ليتسنى "للمقامات الدِّينِيَّة" إنجاز عملهم في إعادة الإعمار على أكمل وجه[1].

بعد استدعاء البعثة من طبس، أخذ المتحدثون باسم المعارضة، وهم مَن قابلوا رئيس الوزراء، يروّجون في كلّ مكان، وتردَّدَت إشاعاتهم في المساجد، بأن "حُكُومة الشَّاه المجرمة" تَخلَّت عن سكان طبس المظلومين والمفجوعين،

(1) بعد عامين على الثَّورة، روى لي المرحوم حسن سراج حجازي تفاصيل هذه الحادثة في باريس بعينين دامعتين، وقد كان آنذاك محافظ خراسان ونائب التوليه لحرم الرضا (نائب التوليه: هي تسمية تُطلَق على مدير الأملاك الوقفية)، وكان رجلًا حسن السمعة وحكيمًا.

ولكن لحسن الحظ، وصل مبعوثو آية الله العُظمَى الخُمَيني (كان الجميع آنذاك ينادونه بآية الله العُظمَى، لكن لم يكُن قد حصل بعدُ على لقب إمام) إلى المكان وأنقذوا الناس.

كان ظاهر الأمر يشير إلى أنّ الحقّ معهم، ولم يُبدِ رئيس الوزراء أي ردّ فعل!

***

في جوّ الفَوْضَى السِّياسِيَّة المهيمنة على الدَّولة، وعجز وحيرة الحُكُومة المتزايدة، حان الوقت للعب آخر ورقة في حادثة الثَّورة الإسلاميَّة، خلال عام واحد خُلِقَت شخصيَّة مشهورة نسبيًّا من رجل دين منسيٍّ تقريبًا، وآن الأوان لتمهيد الطريق أمام وصوله إلى السُّلْطة.

الفصل السادس

السّفر

"كان لا بدّ من إخراج الخُمَيني من العراق في سبيل إظهاره للعالَم كقائد ثوريّ، لم يكُن من الممكن أن يتوجه من العراق إلى طَهْرَان مباشرة، ولأنّ الأمْريكِيّين والفرنسيين كانوا يدًا واحدة في ذلك، قرَّر الأمريكان إرساله إلى باريس... لكن قبل توجُّهه إلى باريس كان لا بدّ من تشديد الأزمة الداخليَّة في إيرانَ ليتسنَّى للخُمَيني لعب دور الناطق والقائد لشعب غاضب، وليتوهَّم الإيرانيّون أنه الشخص الذي يجب اتّباعه"[1].

في السادس من أكتوبر عام 1978، وصل آية الله رُوح الله الخُمَيني إلى باريس قادمًا من بغداد، وأقام ما يقارب اثنتين وسبعين ساعة في شقّة أبو الحسن بني صدر، الواقعة في بلدة كاشان[2] جنوبيّ العاصمة باريس. ثمّ أنزلوه في نوفل لوشاتو، وهناك كان كلّ شيء قد أُعِدّ مُسبَقًا لإقامته.

---

(1) Domimique Lorentz, une guerre, Editions des Arènes, Paris, 1997, Pp. 172-173.

كاتب المقال محقّق وصحفي مشهور، ولا يمكن اتهامه بأنه معارض متشدّد للخمينيّ أو الثّوْرة الإسلاميّة. فقد كان أحد المتعاونين مع صحيفة Liberation التي كان لها دور كبير في إبراز وشهْر الخُمينيّ. جدير بالاهتمام أنّ كتابه بعد انتشاره بمُدّة أصبح نادرًا، ويبدو أنه جُمِعَ، لكنّ الكاتب في سنوات لاحقة أشار إلى نفس القضية في كتب ومقالات أخرى. يُعتبر كتابه، الذي لا يدور حول الثّوْرة الإسلاميّة فقط، كتابًا موثّقًا ودقيقًا. (المترجم).

(2) Cachan.

كان يرافقه من بغداد شخص أمْرِيكِيّ الجنسية إيرانيّ الأصل باسم إبراهيم يـزدي، قُـدّم رَسْـمِيًّا للجهات الرَّسْـميَّة والصِّحافـة على أنـه "الناطق باسـمه ومترجمـه"[1]. لكنه في حقيقة الأمر، كما سـنرى لاحقًا، كان خلال الأيام المئة والاثنَي عَشَـرَ من الإقامة في نوفل لوشـاتو، اللاعب الأساسيّ "في اللُّعْبـة التي حصلت نتيجةً لاتِّفاق بين الشرق والغرب، ولولا هذا الاتِّفاق لَمّا كان بالإمكان حتى تَخَيُّل هذه التمثيلية وما نتج عنها"[2]. منذ ذلك الحين أصبح إبراهيم يزدي، الذي كان يُصَوَّر، بل وقُدِّم مرارًا وتَكرارًا على أنه عميل لـ"سي آي إيه"[3]، يمسك بزمام الأمور: كان يُجرِي الحـوارات نيابـةً عـن الخُمَيني، وكان يشارك بـدلًا منه في المفاوضات السِّياسِيَّة ويلتزم بها، ويمكن تسـميته -حسـب مصطلح أجهزة الاسـتخبارات- "قائد العمليات" في نوفل لوشـاتو.

بعد عِدَّة أشهر من انتصار الثَّورة الإسلاميَّة، حينما عُيِّن إبراهيم يزدي نائبًا لرئيس الوزراء، ولاحقًا وزيرًا للخارجيَّة، أبدت صحيفة "نيويورك تايمز" تَعجُّبها، موجِّهة السؤال إلى حُكُومة الولايات الأمْرِيكِيَّة، من تعيين مواطن أمْرِيكِيّ في منصب رسميّ في دولة أُخرى دون أخذ موافقة مُسبَقة ورسميَّة من وزارة العدل أو "سي آي إيه"، وأضافت أن أمْرِيكِيًّا يشغل منصب وزير الخارجيَّة في إيران، دون أن تبدي الولايات المتَّحدة أدْنَى ردّ فعل[4].

---

(1) Vincent Nouzille, Des secrets bien Gardés. Les Dossiers de La Maison Blanche Et de La CIA. Sur La France Et Ses Présidents. Paris, Artheme Fayard, 2009, P. 450.

هـذا الكتـاب هـو دراسـة موثَّقـة مبنيَّـة عـلى أسـاس الوثائـق الرسـمية الأمريكيَّـة التـي كان بالإمـكان الحصـول عليهـا في السـنتين الأخيرتـين، وتتحـدث عـن العلاقـات بـين الولايـات المتَّحـدة ورؤسـاء الجمهوريـة الفرنسـية، وفي أحـد فصـول الكتـاب المطولـة تُرجِمَـت وحُلِّلَـت الوثائـق المتعلقـة بإقامـة روح اللـه الخُمينـيّ في فرنسـا ونوفـل لوشـاتو، وهـو وثيقـة مُهِمَّـة حـول هـذه المرحلـة مـن حيـاة آيـة اللـه وحادثـة الثَّـورة الإسـلامِيَّة.

(2) Pierre de Villemarest, Bulletn de C.E.I, 15 juille 1984.

(3) وثائـق السـفارة الأمريكيَّـة «وكـر التَّجَسُّـس»، الجـزء الثامـن، مـن ضمنهـا الوثيقـة رقـم 8779 بتاريـخ 10 أغسـطس 1979، ص110. أيضًـا الجـزء الثامـن عـشر، ص158، المرجـع نفسـه، ص180.

(4) New York Times, 30 September 1979.

لقد نَسِيَت "نيويورك تايمز" أن تُذكِّر بدور إبراهيم يزدي في المجازر التي ارتكبها حين كان "عضو المَجلِس الثوريّ" أو عندما كان عضوًا أو رئيسًا لبعض "المحاكم الثوريَّة" التي كانت جلسات تحقيقها تُبَثّ على التليفزيون مباشرةً[1]. ما نعرفه هو أن السُّلُطات الأمْرِيكِيَّة لم تُبدِ ردّ فعل تجاه هذا المقال، ولم تجب عن سؤال الصحيفة النيويوركية ذات الشأن.

***

قبل أيام من مغادرة الخُمَيني للعراق واستقراره في فرنسا، أشار جعفر شريف إمامي إلى احتمالية هذا الأمر في إحدى جلسات مَجلِس الوزراء، كان في أكثر الجلسات مقطّبًا وعابسًا. لكنه هذه المَرَّة بدا سعيدًا، وهو أمر غريب في ظلّ الأوضاع آنذاك.

قال شريف إمامي في بداية الجلسة: لديّ خبر جيِّد للسادة، يُفِيد سفيرنا في بغداد بأنّ الخُمَيني ترك النَّجف متوجهًا إلى الكُوَيت، لكن المؤكَّد أن الكُوَيت لن تسمح له بالإقامة فيها، فمن جهةٍ في تلك الإمارة أقلِّيَّة شيعيَّة مهمَّة، وسيبدأ آية الله بتحريضهم لخلق الفَوْضَى هناك، ومن جهة أُخرَى نحن (الحُكُومة الإيرانيَّة) طلبنا من السُّلُطات الكُوَيْتية عدم السماح له بذلك. بناءً على ذلك سيتوجَّه آية الله إما إلى سوريا وإما إلى ليبيا، وعلى الأرجح إلى ليبيا، لأنه ليس بيننا وبين تلك الدَّولة خطّ هاتف آليّ، لذلك سيكون تواصله مع أتباعه في إيرانَ صعبًا للغاية. في هذه الحالة يمكننا أن ندخل في مفاوضات مع قادة المؤسَّسة الدِّينِيَّة المعتدلين[2].

---

(1) هل كان هذا النسيان عن قصد؟ لقد بُثَّت هذه الجلسات ليس فقط في إيرانَ بل في جميع دول العالَم تقريبًا، وأُلحِقَت بها أفلام وثائقية حول الثَّوْرة الإسلاميَّة، لذا يمكننا بصعوبة أن نصدِّق أنّ صحيفة مُهِمَّة مثل «نيويورك تايمز» لم تكُن تعرف عن ذلك، ولم تنتبه لدور إبراهيم يزدي.

(2) من مذكَّراتي التي كتبتُها شخصيًّا آنذاك حين كنت -لفترة وجيزة- وزيرًا للعلوم والتعليم العالي وعضوًا في الحكومة، لذا كنت حاضرًا في الجلسة.

أبدى اثنان من الوزراء، أحدهما وزير الخارجيَّة[1]، شكَّهما في فهم رئيس الوزراء للقضيَّة، وأثارا احتمالية ذهابه إلى فرنسا وإقامته في باريس، ورفض رئيس الوزراء بفظاظة هذه الآراء.

في الحقيقة لقد تَصرَّفَت الحُكُومة إزاء هذا الموقف بجهل وحيرة[2].

بعد اتِّفاقية عام 1975 بين إيران والعراق التي أنهت وسوَّت جميع مسائل الخلاف بين البلدين[3]، لم تعُد الروابط بين البلدين عاديَّة، بل وُدِّيَّة، كان الشَّاه شخصيًّا يتابع هذه العَلَاقات، وكذلك صدّام حسين، نائب الرئيس العراقيّ ونائب رئيس المَجلِس الثَّوريّ العراقيّ، الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لجُمهُوريَّة العراق بعد موت حسن البكر، الرئيس العراقيّ آنذاك، وبقي الرجل الأقوى في العراق بلا منازع حتى النِّهاية.

كانت السُّلْطات العُلْيا في إيرانَ تعتقد أن آية الله الخُمَيني إن ترك العراق وأقام في دولة أبعد، فستقلّ تحريضاته ومشكلاته داخل الدَّولة، وكانوا قد نبَّهوا المسؤولين في بغداد لهذه النقطة، لم يكُن في بغداد من يرغب في بقاء آية الله، فعندما كانت بغداد مركزًا للتحريض ضِدّ إيران، وكانت تساعد معارضي طَهْرَان، كان الخُمَيني عاملًا من جملة العوامل التي يمكن استغلالها، وقد تمَ ذلك، لكن بعد استقرار العَلَاقات بين البلدين لم يعد الخُمَيني سوى مصدر إزعاج، وكانوا يفضّلون الخلاص منه، لهذا سعد العراقيُّون بهذا الرَّأي، كانوا يتخيَّلون أنّ آية الله سيتوجه إلى ليبيا وسيشكّل "حُكُومة في المنفى" في كنف العقيد القذافي[4].

---

(1) أمير خسرو أفشار قاسملو. (المترجم).

(2) للاطِّلاع على تفاصيل سفر الخُمينيّ إلى باريس انظر مذكّرات فريدون زندفرد، مرجع سابق، صص226-218.

(3) المعروفة باتفاقية الجزيرة بين محمد رضا شاه البهلويّ وصَدّام حسين نائب رئيس الجمهورية العراقية آنذاك، ورجل الدولة العراقي صاحب السُّلْطة، إذ عانق كلاهما الآخر أمام عدسات التصوير بعد انتهاء المفاوضات. (المترجم).

(4) المرجع نفسه، ص222.

في "مَجلِس قيادة الثَّورة" نُوقِشَ "مشروع" الموافقة على مغادرة آية الله الخُمَيني للعراق، أو بالأحرى التخلُّص من شخص مزعج مثله، وصُدِّق على القرار.

كانت بغداد تنتظر مغادرة الخُمَيني.

في تلك الأثناء تَغَيَّر رأي السُّلُطات الإيرانيَّة، فأُصدِرَت الأوامر إلى سفير إيران لدى العراق[1] بأن يتفاوض مع السُّلُطات العراقيَّة ويطلب منهم إبقاء الخُمَيني في العراق، وأن يبذلوا جَهْدًا في محاصرة نشاطاته ومراقبتها. التقى سفير إيران مع نائب رئيس الجُمهُوريَّة العراقيَّة طه محيي الدين. وناقش معه طلب حكومته. أدّى المستشار الأول في السِّفَارة، الذي كان يتقن العربيَّة بشكل كامل، دور المترجم، لأن فريدون زندفرد لم يكُن يتقن العربيَّة. كما أن طه محيي الدين لم يكُن يتقن الفارسيَّة.

كان جواب العراقيَين سلبيًّا. قال طه محيي الدِّين لسفير إيران: "قرار مَجلِس قيادة الثَّورة نهائيٌّ ولا يمكن تغييره".

بعد أيام من هذا اللقاء العقيم، سافر الجنرال ناصر مقدّم، الذي كان عُيِّن مؤخَّرًا رئيسًا لوكالة المخابرات والأمن القوميّ "السافاك"، إلى بغداد على متن طائرة خاصَّة، وناقش هذا الطلب مع نظيره العراقيّ. كان السفير الإيرانيّ على علم بسفر الجنرال مقدم، لكن لم يكُن للسفارة مندوب في هذا اللقاء وهذه المفاوضات. على أي حال حصل مقدم أيضًا على جواب بالرفض ولم ينجح.

هل اطّلع الخُمَيني وأتباعه على هذه اللقاءات بأي شكل من الأشكال؟[2] هل أخبرتهم أجهزة المخابرات العراقيَّة أو دول أُخرَى بذلك؟ لا نعلم. لكن ما نعلمه هو أنّ الخُمَيني قرَّر إصدار جواز سفر جديد، وتَقدَّم لذلك من خلال القنصلية الإيرانيَّة في كربلاء، لأنَ صلاحية جواز سفره كانت قد انتهت منذ سنوات. قدَّم

---

(1) المقصود الدكتور فريدون زندفرد، وعلى ما يبدو أنّ هذه الأسطر مقتبَسة من مذكّراته. (المترجم).

(2) يبدو هذا الاحتمال قويًا بالنظر إلى الفصول التالية للكتاب، وليس ببعيد أن يكون مصدر الخبر من طهران نفسها. (المترجم).

القنصل الطلب للسفير. ولأن الخُمَيني حينها كان صاحب اسم وشهرة، فقد رفع السفير الطلب إلى وزارته طالبًا الإذن بذلك، وبالنظر إلى العَلاقات الحسنة بين إيران والعراق، أخبرت السُّلُطات في بغداد الحُكُومةَ الإيرانيَّة بأنّ الخُمَيني بصدد ترك بلدهم.

عندها نقل رئيس الوزراء الخبر السعيد لمغادرة آية الله للعراق إلى مَجلِس الوزراء.

***

كانت باريس، العاصمة التي لقّبتها صحف المعارضة آنذاك بـ"العاصمة الثوريَّة"، الوجهة المناسبة للتدرُّب والحصول على الوجاهة اللازمة، كانوا في باريس قد هيَّؤوا كلّ شيء لقدوم رُوح الله الموسوي الخُمَيني، وهو الاسم الذي ذُكر في جواز سفره الجديد.

لم يتخذ رُوح الله الموسوي الخُمَيني بنفسه قرار التوجُّه إلى باريس والإقامة في ضواحيها. كتب الكونت ألكساندر دو مارانش في مذكّراته أنّه "ذهب إلى باريس عندما سمع من مذيعي التليفزيون الفرنسي أنها المدينة المناسبة لإقامة أشخاص من أمثاله"[1]، وهي عبارة تتطابق مع أسلوب السخرية والتلميح الذي يستخدمه رئيس جهاز المخابرات الفرنسي السابق في كتاباته.

الخُمَيني نفسه ربما لم يكُن يستطيع العثور على موقع مدينة باريس على الخريطة، ومن المؤكَّد أنه لم يكُن لديه أدْنَى معرفة بالدور التَّاريخي الذي لعبته هذه المدينة في الحركات السِّياسِيَّة والفكرية في العالَم. أضاف مارانش بنفس الأسلوب الساخر: "كثيرون في وزارة الخارجيَّة الفرنسيَّة كانوا يعتقدون أن عادات هذه الدَّولة في استقبال المعارضين تستوجب استقبال (حضرته)"[2].

***

(1) Dans Le secret des princes, op. cit. P. 246.

(2) المرجع نفسه.

كان رُوح الله الموسوي الخُمَيني يملك جواز سفر إيرانيًّا ساري المفعول، ولم يكُن بحاجة إلى الحصول على تأشيرة للدخول إلى الأراضي الفرنسيَّة، كان يستطيع السَّفَر إلى تلك الدَّولة والإقامة فيها بحرّية لثلاثة أشهُر.

كانت إيران آنذاك دولة عزيزة وموثوقًا بها وتتمتَّع باحترام في جميع أنحاء العالَم، وكان الإيرانيّون مواطنين يتبعون دولة غنيَّة ومرفَّهة ومقتدرة، كانوا يُستقبلون بالتَّرحاب في كلّ مكان، كثير من المتاجر الكُبرَى، والفنادق ووكلاء العقارات والمطاعم في الغرب كانت توظّف من يتقن الفارسيَّة لجذب الزبائن الإيرانيّين.

كانت إيران بلدًا حُرًّا، كان كثير من مواطني دول العالَم كأمريكا وكندا أو دول أوروبا الغربيَّة يستطيعون السَّفَر إلى إيران دون حاجة إلى تأشيرة، بشرط امتلاكهم جواز سفر ساري المفعول.

بالطبع لم يكُن آية الله الموسوي الخُمَيني من أولئك السياح الذين ينتظرهم الجميع ببشاشة وتَرْحاب، لكنه كان إيرانيًّا ويملك جواز سفر ساري المفعول، ولم يكُن بحاجة إلى الحصول على تأشيرة.

إبراهيم يزدي، الذي كان وكيله في كلّ أعماله، كان أمْريكِيًّا، الأمْرِيكِيُّون أيضًا مثل الإيرانيّين لم يكونوا بحاجة إلى تأشيرة ما داموا يملكون جواز سفر ساري المفعول.

وفي سبيل أن يبرّر سياساته والموقف الذي اتّخذه، اعتمد الرئيس الفرنسي آنذاك جيسكار ديستان على هذه الحُجَّة، وكتب أنّه إيرانيّ ولديه جواز سفر ساري المفعول، ولم يكُن بحاجة إلى تأشيرة دخول، ولم يكُن بالإمكان منعه من دخول الأراضي الفرنسيَّة[1]، لكنه بعد سنوات ذكر تبريرًا آخر قال فيه إن آية الله طلب من فرنسا اللجوء السياسيّ[2]. كانت مقولته الأولى صحيحة، لكن الثَّانية كانت

(1) Valery Giscasd d' Estaing, Le pouvoir et la nie, Compagnie 12, Paris, 1988, Pp 95-118.

(2) Le Vif-Express, 29 janvier-4 fevrier 1999.

مغايرة للحقيقة وكاذبة. كانت هذه التوضيحات المتناقضة دليلًا على انزعاج الرئيس الفرنسي الأسبق من تبرير سياسته التي اتّخذها.

لم يطلب الخُمَيني اللجوء السياسيّ من فرنسا. لم يكُن بحاجة إلى ذلك. ونتيجة لذلك لم تمنحه أيّ جهة مثل هذا اللجوء. كان رُوح الله الموسوي الخُمَيني "مسافرًا" خاصًّا. ولم يكُن "لاجئًا سياسيًّا خاصًّا" كما قيل لاحقًا[1].

بعد ثلاثة أشهر من دخوله فرنسا تَغيَّر وضعه من حيث قوانين ذلك البلد. لقد انتهت مدة الأشهر الثلاثة التي كان بإمكانه البقاء خلالها في فرنسا بلا تأشيرة. لكنه كان قد أصبح شخصيَّة عالَميَّة. كان وجوده في فرنسا دون إذن خاصّ مخالفًا لقوانين ذلك البلد. "لكن السُّلُطات الفرنسيَّة لم تكُن تريد طرده"[2]. لأن "رئيس الجُمهُوريَّة الفرنسيَّة كان يريد بأي ثمن كان أن يُبقِي علاقته به وديَّة"[3]. وسنرى لاحقًا أنه لم يكتفِ بهذا.

***

أصبح رُوح الله الموسوي الخُمَيني يُنادَى في كلّ مكان بـ"آية الله العُظْمَى". ومنذ العاشر من أكتوبر 1978 استقرّ في نوفل لوشاتو وبرز على السَّاحة علنيًّا وبشكل رسميّ.

كان كلّ شيء جاهزًا لاستقباله ليبدأ نشاطه. وبهذا بدأت حركت الإسلام المتطرِّف والثوريّ.

"كان مكان إقامته تحت حراسة القُوَّات الفرنسيَّة الخاصَّة. كأنه مكان تُحفَظ فيه أكثر الأشياء قداسة"[4]. في الحقيقة كانت حماية الخُمَيني قد نِيطَت بكتيبتين من هذه القوَّات. ومع هذا فقد طلب الخُمَيني. الذي كان يخاف كلّ

---

(1) 15, Des secrets bien gardés, op. cit, P. 447.

(2) المرجع السابق، ص448.

(3) المرجع السابق، ص452. الكتاب الذي اعتُمِدَ عليه مؤلِّف من الوثائق الأمريكيَّة السرِّيَّة -وبعض الوثائق الفرنسية- حول فترة إقامة روح الله الموسوي الخُمينيّ في فرنسا.

(4) Dominique Lorentz, op. cit, P. 174.

شيء وكلّ إنسان، أن يُضاف إلى حرسه بعض قوات الأمن الجزائرية وبعض الفلسطينيين، وعلى الفور ودون أيّ أسئلة، قُبِلَ طلبه غير العادي. بعد سنوات كتب رئيس جهاز المخابرات الفرنسي في مذكّراته: "من أجل حماية الخُمَيني اجتمع حوله عدد كبير من اليساريين المتطرّفين من كلّ جامعات العالَم الغربي، وأُضِيفَ إليهم عدد من المتخصصين في هذا المجال (الحراسة)"[1]، هذه المجموعة هي تلك التي كان يشاهدها ملايين الأشخاص في مَحطّات التلفزة العالَميَّة بتَعجُّب واستفسار.

واجتمع حوله كذلك "عملاء جميع أجهزة المخابرات المهمَّة في العالَم مثل: S.D.E.C.E وK.G.B وI.S وC.I.A، حتى إن عملاء "سي آي إيه" كانوا قد استأجروا مُسبَقًا المنزل المجاور لمكان إقامته"[2].

كانت معارضوا الشاه في جميع العمليات اللوجستية ينفّذونها "يتحركون بالتعاون مع المنظَّمات الفلسطينية واليسارية التي كان يموّلها العقيد القذّافي"[3].

اليوم نعلم أنّ الديكتاتور الليبي لم يكُن مصدر تأمين الأموال اللازمة الوحيد: لقد ظهر للعلن من هذا المكان "تَحالُف الأحمر والأسود المشؤوم"، الذي أشار إليه الشّاه لاحقًا[4].

***

عندما جاء آية الله الخُمَيني إلى فرنسا، لم يكُن بالتأكيد رجل دين بلا أهَمِيَّة، أو أنه لم يعُد كذلك.

كما رأينا، أصبح الخُمَيني مشهورًا في بلده، لكنه بالتأكيد لم يكُن الأبرز في سلسلة المراجع الشِّيعِيَّة، لذا وجب تحويله سريعًا إلى شخصيَّة من شأنها أن

---

(1) Dans le Secrets Des Princes, P.247.

(2) Edouard Sablier, Iran, la poudriere op. cit. P.65. لقد أقرّ إبراهيم يزدي بهذا الأمر في مذكّراته.

(3) المرجع السابق، ص62.

(4) Réponse al› Histoire, op. cit, P. 207.

تكون منافسة لمحمد رضا شاه الذي كان من أبرز الشخصيَّات على الساحة الدوليَّة، كان يجب تغييره إلى وضع يمكّنه من إسقاط شاه إيران.

كان الهدف من هذا المشروع إسقاط النِّظَام الإيرانيّ، ولم يكُن السبب تلك الصعوبات التي كان يواجهها، ولا يشكّ أحدٌ في حقيقتها، وإنما بسبب سياساته النِّفْطيَّة وطموحاته الكبيرة، كان الهدف هو إخراج الشَّاه من اللُّعْبة وإحضار الخُمَيني خليفةً له.

من أجل تحقيق هذا المشروع كان لا بدّ من منح الخُمَيني شخصيَّة واسمًا بمستوى المعايير الدوليَّة، وأن يصنعوا له سيرة حياة تليق بقائد، أو كما كتب أحد مستشاريه والمقرَّبين منه، أن يخترعوا له شخصيَّة.

حلّلنا سابقًا بشكل موثَّق سيرة حياته الحقيقيَّة، وأشرنا إلى الأكاذيب التي قِيلَت حوله في ما بعد، تلك الأكاذيب التي انتشرت في أرجاء العالَم ولا يزلون يتناقلونها، ولكن من المناسب أن نمرّ عليها ثانيةً بشكل سريع: طمسوا أصوله الهنديَّة وتَجنَّبوا الإشارة إليها، وأظهروا والده الذي كان سكرتيرًا ووكيلًا لأحد إقطاعيّي المنطقة على أنه "قائد مجتمَع خُمين"، وكتبوا وقالوا إنه قُتل بأمر رضا شاه. بالتأكيد نعلم أنّ رضا شاه وصل إلى السُّلْطة بعد مرور ربع قرن على هذه الحادثة.

كتبوا وقالوا إن أمَّه كانت ابنة لأحد رجال الدِّين المرموقين، في حين كانت أمُّه ابنة لعائلة قروية، وبالطبع فقيرة.

كتبوا وقالوا إنه كان منذ شبابه وفي جميع مراحل حياته مقاومًا للسياسات الاستعماريَّة، في حين كانت مقاومته -إن وُجدت، وهو غير صحيح- ضِدَّ الدكتور مصدَّق والنهضة الوطنيَّة، وفي النهاية كانت لصالح السِّياسة البريطانيَّة، ففي تلك المرحلة من الزمان كان من زمرة المؤيِّدين، أو على الأقلّ المتحمّسين النشطاء، لمحمد رضا شاه، وكان ذلك في وقتٍ تَأزَّمَ فيه الوضع بين الشَّاه ومصدَّق.

كتبوا وقالوا إن ابنه الأكبر مصطفى، قُتل بأمر من محمد رضا شاه في صيف عام 1978، وكان قتله انتقامًا لثورة والده على النِظّام، أو بعبارة أُخرى "نال درجة الشهادة"، في حين مات ابنه قبل ذلك بشهور على أثر سكتة قلبية ناتجة عن الإفراط في تناول الطعام وابتلائه بمرض السكّري، ولم يكُن آية الله الخُمَيني حينها "شيئًا".

***

... لذا وجب اختراع لقب مَهيب وعظيم لِمَن "أبوه شهيد" وهو "أبٌ لشهيد آخَر". بعد أيام من إقامته في نوفل لوشاتو مُنِحَ لقب "إمام".

يبدو أنّ هذه الفكرة كانت من اختراع صحفيَّيْن فرنسيَّيْن كانا يعملان لدى صحيفة باريسية مسائية، كانت آنذاك تدعم آية الله الخُمَيني دعمًا مُطلَقًا[1].

كان كلا الصحفيين معروفًا باسمه المستعار، وكان كلاهما من أصول عربيَّة، لكن لم يكونا مسلمَين، ربما -لا يجب أن نتجاهل هذه الـ"ربما"- خلطوا بين مفهوم لقب إمام عند الشِّيعَة الذي يختلف عما هو عند أهل السُّنَّة، وهو إمام الجمعة، لكن ليس مستبعَدًا أن يكون هذا الخلط متعمَّدًا.

للأئمة الاثنَي عشَرَ معنى خاصّ عند الشِّيعَة، أولهم عليُّ ابن أبي طالب ابن عمّ نبيّ الإسلام محمد (ص) وصهره، الذي تَزَوَّج ابنته فاطمة[2]، ثمّ جاء من بعدهم أبناؤهم جيلًا بعد جيل حتى الوصول إلى الإمام الثَّاني عشر أو "صاحب الزمان" أو "الإمام الغائب"، أي المهدي المنتظر.

---

(1) يبدو أن المقصود هو صحيفة Le Monde. (المترجم).

(2) كانت فاطمة هي ابنة محمد (ص) الوحيدة ومولوده الوحيد، أمها خديجة هي أولى زوجات نبي الإسلام (ص)، لم يتزوّج محمد بن عبد الله (ص) بزوجة أخرى في أثناء حياة خديجة، كانت فاطمة تبلغ من العمر اثني عَشَر عامًا عندما تزوّجت بعَليٍّ. الشِّيعَة يعتقدون أنّ النبي (ص) اختار عليًا خليفة له، أي للإمامة، الأئمة الأحد عشر المتبقُّون -وآخرهم الإمام الغائب- هم من نسل علِيٍّ وفاطمة، جميع المسلمين، بخاصّة الشِّيعَة، يعرفون مصطلَح «الأئمة الاثني عشر» والمعصومين الأربعة عشر.

لم يكُن أحد يُولِي هذه المسائل اهتمامًا، ربما كان هذان الصحفيان يعرفان بها، في تلك الأيام كانت القضيَّة هي إيجاد لقب مَهيب ولافت للانتباه لرُوح الله الموسوي الخُمَيني، الذي كان آية الله ثمّ آية الله العُظْمَى، وها هوذا أصبح "إمامًا".

لم يدّعِ رُوح الله الإمامة بنفسه مُطلَقًا، كانت الشائعات تسري مع بدايات ظهوره، ومفادها أنه هو "المهدي المنتظر"، أو "إمام الزمان"، كان بعض البُلْه أو المتملّقين يسألونه هذا السؤال في بعض الجلسات، حتى إنّ أحدهم قال له: "اعترِفْ، وأعلِنْ أنك إمام الزمان، وأنك الإمام الثَّاني عشر"، بُثَّت هذه الحادثة على التليفزيون، لكن الخُمَيني لم يُجِبْ، حرّك رأسه حركة خفيفة شمالًا ويمينًا وسكت[1].

وبالنظر إلى هذه التفاصيل، فقد مُنح لقبُ "إمام" في القانون الإسلاميّ للجُمهُوريّة الإسلاميّة، الذي وقّعه من رُوح الله الموسوي الخُمَيني، صبغةً رسميَّةً، وهو ما اعتبره جميع مراجع الشِّيعَة المهمّين وفِرَق الإسلام الأُخرى علامة على الكفر.

وسرعان ما تمادى الخُمَيني وادّعى أنه جاء لإكمال رسالة نبي الإسلام، وليحقق ما لم يستطِع هو تحقيقه[2]، حتى إنه اعتبر أن قوانين الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة أفضل من أيّ حُكُومات إسلاميَّة أو غير إسلاميَّة أُخرى، ومِمَّا كان في صدر الإسلام[3].

اعتبرت جميع المراجع الإسلاميَّة المهمَّة في العالَم تقريبًا، شِيعةً أو سُنَّةً، في فتاواهم المختلفة وبشكل رسمي وعلني، أنّ هذا الكلام مخالف للشريعة وعلامة على الكفر، لكنّ قِلَّةً أعطوا الموضوع اهتمامًا[4].

---

(1) نُشِرت حول هذا الموضوع مقالات وتحقيقات كثيرة، على سبيل المثال انظر الدراسة الدقيقة والموثَّقة للأستاذ الدكتور جلال متيني في مجلة «إيرانشناسي»، السنة الحادية والعشرين، العدد2، صيف 2009 ميلاديًا، صص201-214.

(2) من حواره مع صحيفة Le Monde، 7 أغسطس 1980.

(3) من خطاب «عيد النيروز»، 21 مارس 1982.

(4) انظر كتاب: Le grane mensonge، الفصل العاشر، صص112-123. الذي ذُكِرَت فيه جميع هذه الفتاوى.

لقد وُلد "الإمام الخُمَيني" في أكتوبر 1978 في نوفل لوشاتو.

عمَليّة احتيال كبيرة!

***

كانت حُكُومة إيران تتخيل أنّ الخُمَيني سيذهب إلى سوريا أو ليبيا بعد مغادرة العراق، لكنه أطلّ برأسه من فرنسا، وأنزلوه في ضواحي باريس في نوفل لوشاتو. كان تَصَرُّف الحُكُومة بعد هذه الحادثة غير متناسق، وكان علامة على الحيرة.

الدبلوماسية الفرنسيّة، التي كانت شريكة في هذه القضيّة ولعبت دورًا بارزًا فيها، لم تستبعد إمكانية مقاومة الحُكُومة أمام الخُمَيني وإمكانية تنفيذها مشروعات تخريبية، لذلك كانوا يسعون من جهة لشَهْر الخُمَيني، لكنهم من جهة أخرى لم يكونوا بعدُ قد أزعجوا الشّاه والحُكُومة الإيرانيّة، كانت باريس لا تزال تريد اللعب على الحبلين.

كتب ڤاليري جيسكار ديستان في مذكّراته أنه هاتف الشّاه شخصيًا، وسأله هل يعارض إقامة آية الله الخُمَيني في باريس؟[1] لكنه، أي محمد رضا شاه البهلوي، أظهر أنه غير مُبالٍ.

أنا شخصيًا سألت الشّاه بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام على استقرار الخُمَيني في فرنسا، حول هذه القضيّة لأعرف رأيه، فقال إنّ "جيسكار سألني مثل هذا السؤال، وقلت له إنني غير مهتمّ لهذا الموضوع"، ثمّ أضاف: "ماذا يمكن لرجل دين بائس فقير أن يفعل بي!"[2]

لا تُعتبر محادثات رؤساء الدُّوَل الهاتفية وثائق من الناحية القانونيّة والعَلَاقات الدوليّة، لذلك طلبَت فرنسا رَسْمِيًا من إيران إبداء موقفها. كان

---

(1) Le pouvoir et la vie, op. cit, P. 115.

(2) نُقلت هذه القِصّة بالتفصيل في: Carnets secrets, Chute et mort du Shah, 2 eive éd Pp. 195-197.
انظر الترجمة الفارسية للكتاب بعنوان «آخرين روزها، پايان سلطنت ودرگذشت شاه»، الطبعة الثانية، انتشارات شركت كتاب، لوس أنجلوس.

بعض المسؤولين الحُكوميّين في إيرانَ لا يزال يتوهَّم أنّ فرنسا ستحترم الأعراف والقوانين الدوليَّة، بالنظر إلى العَلَاقات الودِّيَّة بين البلدين، وأنهم سيَحُدُّون من نشاطات آية الله العُظْمَى التخريبية، لذلك لم يُبْدُوا معارضتهم... كان تَوَهُّمًا خاطئًا.

لم يكُن محمد رضا شاه يستطيع أن يتجاهل العداء الشخصي للرئيس الفرنسي له آنذاك، ولم يستطِع أن ينسى أنّه لم تعُد بينهما عَلَاقات وديَّة. على أي حال سرعان ما انتهت أوهام رجال الدَّولة في طَهْرَانَ.

كتب جان فرانسوا بونسي[1]، وزير الخارجيَّة الفرنسي آنذاك، في مذكِّراته التي نُشرت بعد ذلك بسنوات، أنه أرسل أحد مُوَظَّفي وزارته[2] إلى الخُمَيني و"رجاه" أن يجتنب "الدعاية السِّياسِيَّة" في فرنسا.

يبدو أن هذا اللقاء قد تمّ[3]، لكن لا توجد معلومات دقيقة حول نتيجة المفاوضات التي جَرَت مع آية الله الخُمَيني، أو بالأحرى مع الناطقين باسمه ومترجميه.

كانت إقامة آية الله الخُمَيني في فرنسا في نوفل لوشاتو، خلال فترة وجيزة، مؤثِّرةً بالنسبة إلى من مهَّدُوا الطريق لذلك، وأدّت إلى النتيجة التي كانوا يريدونها، وهي عزل الشَّاه.

لكن سَرْعان ما كانت أوهامهم أيضًا خاطئة؛ إنّ المسخ الذي صنعوه، كما في رواية الدكتور فرانكنشتاين، أخذ بثأره منهم.

لقد أُجبِرُوا على تَجَرُّع الكأس التي ملؤوها بأيديهم، وفي نهاية الأمر أدركوا -ويدركون- أنهم وقعوا في شرّ أعمالهم.

---

(1) Jean Francois Poncet.

(2) Claude chayet، عضو الإدارة العامة للعقود، حسبما ذكر جيسكار ديستان في مذكِّراته، ص114.

(3) انظر الصفحات التالية لهذا الكتاب.

الفصل السابع

قصة نوفل لوشاتو

في العاشر من أكتوبر من عام 1978، عندما استقرّ رُوح الله الموسوي الخُمَيني رَسْمِيًا وعلنيًّا في نوفل لوشاتو، كانوا قد هيّؤوا له كلّ الظروف ليبدأ نشاطه وحركته السّياسِيَّة، ومن أجل راحته كان لا بدّ من إجراء تغييرات على مكان إقامته، وكان لا بدّ من الحصول على إذن من البلدية لذلك، وهو أمر يستغرق عدة أشهر، لكنّ "مكتب البلدية في المنطقة أصدر الإذن خلال أربع وعشرين ساعة على أثر تَدَخُّل من وزارة الخارجيَّة"[1].

كما رأينا، تولّت "مجموعة متنوعة" حراسة آية الله ومكان إقامته، فمن جهة كانت كتيبتان من "القُوَّات الخاصَّة" الفرنسيَّة، ومن جهة أُخرَى كان عدد من الحرّاس الجزائريين والفلسطينيين واليساريين المتطرّفين الإيرانيّين الذين وفدوا من هنا وهناك.

حسن نزيه، الذي كان من مستشاري آية الله والمقرّبين منه، ونقيب محامي طَهْرَان، والذي نشر كذلك في صحيفة "لوموند" مقالًا عن الخُمَيني مِلْؤه المدح[2]، هو نفسه كتب بعد مدة وجيزة: "كان الخُمَيني يتمتّع بتسهيلات متعددة: خطوط الهاتف، وعَلَاقات مع الإذاعة، وتسهيلات جوية ليرسل إلى إيران أشرطته التي

---

(1) Amir Taheri, Khomeyni, Blland, Paris, 1985, P. 238.

(2) Le Monde, 31 janvir 1979.

كان يدعو الناس فيها إلى التمرُّد"[1]. لقد خصّص له مكتب بريد المنطقة خطّي تلكس وستة خطوط هاتف[2]، لكن الحقيقة كانت شيئًا آخر.

كان بيار إف دوويلمار[3] آنذاك عضو هيئة التحرير في مجلة أسبوعية معروفة في فرنسا[4]، كان أول صحفي ينجح في مقابلة الخُمَيني وإجراء حوار معه. أشار بعد مُدَّة إلى هذا الحوار بإيجاز[5]. ثمّ نشر مجرياته بالتفصيل بمناسبة مرور عشرين عامًا على انتصار الثَّورة[6]. ننقل هنا حرفيًّا جزءًا مِمَّا كتبه:

"استطعت بمساعدة الأصدقاء الأمْرِيكِيّين للمركز الأوروبي للاستخبارات[7]، أن أعرف اليوم الذي سينزل فيه الخُمَيني في نوفل لوشاتو. زوّدني بعض الطلبة الإيرانيّين ببعض المعلومات حول المقرَّبين منه، وعرّفني أحدهم إلى أحد مستشاريه من الدرجة الأولى، وقال إن هذا الشخص يُعَدّ الرابط بين الخُمَيني و(سي آي إيه)، ذهبت إلى نوفل لوشاتو في هيئة صحفي، وكنت بصدد مقابلة ذلك المستشار، فقالوا لي إنه ليس هناك وذهب لقضاء بعض الأعمال. استقبلني قطب زاده الذي قُتل لاحقًا رميًا بالرصاص بأمر من الخُمَيني، وتباحثنا مدة من الزمن، وفي النّهاية قبلَ أنّ يأخذني إلى الخُمَيني، وتولّى هو أمر ترجمة الحوار الذي دار بيني وبين آية الله الخُمَيني لِمُدَّة ساعتين... غادر الخُمَيني إلى المنزل المجاور، الذي كان عبارة عن مبنى صغير، لكي ينال قسطًا من الراحة... أحضروا لنا الشاي، وصل إلى مسامعي صوت من الغرفة المجاورة ذكّرني بصوت الاتصالات اللاسلكيَّة في زمن المقاومة، فتَمَلّكني الفضول، وغادرت الغرفة بحُجَّة الذهاب إلى المرحاض، وفتحت باب الغرفة التي كانت الأصوات

---

(1) Le Figaro, Magazine, 4 octobre 1980.

(2) Amir Taheri, op. cit, 239.

(3) شخصية بارزة في المقاومة الفرنسية منذ بداياتها عام 1940، وأصبح لاحقًا من المسؤولين في أجهزة استخبارات تلك الدولة، مات عام 2008.

(4) Valeurs Actuelles.

(5) La Vie Francise, 26 Mars-1 av. 1984.

(6) Action Francaise 2000, 21 janvier-3 fevrie 1999.

(7) C.E.I وقد تَرَأس إدارته بعد تقاعده.

تصدر منها. صرخ الرجلان اللذان كانا منهمكَين في إجراء الاتصالات سائلَين عما أفعله هناك. فاعتذرت وقلت لهم إنني أبحث عن المرحاض لكنني أخطأت، فأرشداني إليه... في طريق العودة لاحظت هوائيات أجهزة الاتصالات الكبيرة نسبيًا: مع أي جهة ومع مَن كانوا يتواصلون؟

بعد انتهاء الحوار عُدت إلى باريس مباشرة. وذهبت إلى أصحاب الشأن في وزارة الداخليَّة مُبدِيًا تَعجُّبي من السماح للخُمَيني باستخدام الأراضي الفرنسيَّة للتخابر مع الخارج دون إذن رسمي. فأخبروني أن لا أتدخَّل في هذا الشأن. وبذلك ثبت لي أنّ كلّ شيء قد هُيِّئ مُسبَقًا لآية الله".

بعد ذلك بسنوات، كتب محلِّل أمْرِيكِيّ-فرنسي عن كيفيَّة استقرار الخُمَيني في فرنسا قائلًا: "لقد أسَّس العالَم الغربيّ الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة هناك بشكل غير رسمي"[1].

***

لا شكّ في معارضة، أو على الأقلّ كُرْه، كثير من المسؤولين في الحُكُومة الفرنسيَّة آنذاك للنِّظام المَلَكِيّ في إيرانَ ولمحمد رضا شاه شخصيًّا.

هل كان لعَلَاقات الشَّاه الشخصيَّة بالرئيس الفرنسي أي تأثير في هذه المسألة؟ لقد أكّد كثيرون من أصحاب الرَّأي هذه القضيَّة. فقد شُوهِدَت على مرّ التَّاريخ حالات كثيرة تؤكّد كيف تؤثِّر المواقف الشخصيَّة والخُصُوصيَّة في القرارات السِّياسِيَّة.

---

(1) Thierry M. Millemann, op. cit. P. 162.

مقارنة هذه المعلومات بجميع الأبحاث التي نُشرت في فرنسا حول آية الله الخُمينيّ تشير إلى أنّ ما كتبه السيد جيسكار ديستان، رئيس جمهورية فرنسا آنذاك، من أنّه لم يكُن يعلم بقدوم الخُمينيّ إلى فرنسا وأنّ المسؤولين الفرنسيين لم يكونوا يعرفونه (مذكّراته، صص112، 113) هو كلام عارٍ من الصحة. وقد أظهر جيدًا Michael Leadeeng William Lewis في كتابهما المثير للاهتمام (صص150-153) أن السلطات الفرنسية العليا كانت على علم كامل بدخول الخُمينيّ إلى فرنسا، وكانوا على علم باتصالاته منذ البداية.

كان محمد رضا شاه يعرف فاليري جيسكار ديستان منذ زمن طويل، فعندما كان وزيرًا للمالية والشؤون الاقتصاديَّة قدم إلى إيران في زيارة ناجحة، كان الشَّاه يمتدح ثقافة جيسكار ديستان الواسعة. وكان يتوقّع له مستقبلًا سياسيًّا واعدًا. ومع هذا فقد كان أغلب الدوائر السِّياسِيَّة في طَهْرَانَ يفضِّل فوز جاك شابان دماس[1] المقرَّب من الجنرال ديغول، في انتخابات عام 1974، وربما قُدّمت له بعض المساعدات.

بعد مُدَّة من انتخاب جيسكار ديستان رئيسًا للجُمهُوريَّة، زار الشَّاه والمِلِكة في يونيو من عام 1974 فرنسا زيارةً رسميَّة مهيبة جدًّا. كانت نتائجها ناجحة ومُشرِقة، فقد وُقِّعَت اتِّفاقيَّات بين البلدين، منها اتِّفاقية الاستفادة من الطاقة النَّوَوِيَّة. كان المسؤولون الفرنسيون يتنافسون لمدح الشَّاه والإشادة بتقدُّم إيران.

في السابع عشر من فبراير عام 1975، عندما كان الشَّاه والمِلِكة في سانت مورتيز[2] السويسرية للاستمتاع بالرياضات الشتوية، ذهب الرئيس الفرنسي، الذي كان قد جاء مع عائلته إلى كورشوفيل[3] لنفس الغرض، للقاء الشَّاه. كان أمرًا استثنائيًا ينمّ عن إظهار الاحترام، أو على الأقل اهتمام جيسكار ديستان بمحمد رضا البهلوي، كان يريد أن يُثنِي عليه.

هل حدث أمر غير مرغوب في هذا السَّفر؟

ذهب الرئيس الفرنسي إلى سانت مورتيز بطائرة عمودية، ويبدو أنه تَوَجَّب عليه الانتظار بضع دقائق، ولكيلا يحدث استياء فقد استقبلَته المِلِكة. يبدو أنّ هذا الانتظار قسا عليه وأثار استياءه، "قيل إنّ الشَّاه جعل جيسكار ينتظر

---

(1) Jacques Chaban Delmas رئيس الوزراء ورئيس مجلس النواب الفرنسي الأسبق، الذي تَرَشَّح للانتخابات الرئاسية الفرنسية عام 1974 نيابة عن الحزب الموالي للجنرال ديغول، لكنّ فاليري جيسكار ديستان تَفَوَّق عليه، وفي مرحلة الإعادة تَمَكَّن ديستان من التغلُّب على فرانسوا ميتيران، المرشَّح عن جميع الأحزاب اليسارية، وأصبح رئيسًا للجمهورية. (المترجم).

(2) Saint Moritz.

(3) Covrchevel.

عامدًا، لأنه كان مشغولًا مع أصدقائه بلعب الورق، وكان يريد أن يُنهي اللُّعبة"[1]، ويبدو أنّ هذه المقولة غير صحيحة فقد "كان الشّاه الملتزم جدًّا بالآداب والرسوم أرفع شأنًا من أن يتصرف مثل هذا التصرّف"[2].

قبل بضعة أسابيع من موت الشّاه في القاهرة سألتُ الشّاه هذا السؤال، واعتبر المسألة عارية عن الصِّحَّة، وقال إنه لا يرى جيسكار تافهًا بحيث ينتبه لمثل هذه الأمور. "وإن انتظرَ فذلك لأنه كان قد وصل مبكِّرًا"[3].

بعد مرور عام، تَوَجَّه الرئيس الفرنسي في زيارة رسميَّة برفقة زوجته إلى إيران على رأس وفد كبير، واستُقبل بما يليق برؤساء الدُّوَل من تشريفات.

وكان من ضمن الحضور إحدى بنات الرئيس الفرنسي برفقة خطيبها المستقبَلي[4]، يبدو أنّ هرمز قريب، رئيس التشريفات الملكيَّة، تحاور مع مسؤولي التشريفات الفرنسيين حول ترتيب أماكن جلوس المدعوّين حول مأدُبة العشاء الرَّسْميّ للشّاه والملِكة التي ستُقام تكريمًا للرئيس الفرنسي، وطلبوا منه أن يُجلِس خطيبُ ابنة الرئيس "المستقبَليّ" إلى جانب الأميرات والأمراء وأصحاب المقامات الرفيعة، لكنّ رئيس التشريفات رفض طلب الفرنسيين وقال إنّ "خطيبًا مستقبليًّا" ليس له أي مقام أو رتبة من حيث التشريفات، ولا يمكن أن يجلس إلى طاولة العشاء. أصرّ مسؤولو التشريفات الفرنسيون على طلبهم، فلم يكونوا يريدون أن يزعجوا الرئيس الفرنسي، هنا ارتكب هرمز قريب خطأً وقال إنه سينقل الموضوع إلى الشّاه، وهو ما فعله، ويبدو أن الشّاه انزعج بشِدَّة من هذا السؤال وقال إن هذه المسائل لا تعنيه، "أدِّ واجبك وطبّق آداب وتقاليد التشريفات"، فرفض هرمز قريب طلب الفرنسيين الذي لا مبرِّر له، وقال: "لم يسمح جلالة الملك بالعدول عن عادات

---

(1) William Shawcros, op. cit.

(2) جواب أردشير زاهدي لسؤال وليام شاوكراس، المرجع السابق.

(3) Carnets secrets (ص191 وما بعدها) ما أشار إليه جيسكار ديستان في مذكّراته حول "الحوار غير المتوقع" مع الملِكة قبل لقائه مع الملك، وكذلك ما أشار إليه الشاه من أنّ الرئيس الفرنسي وصل قبل الموعد المقرَّر، يؤكِّد هذه الحادثة وهذا الانتظار البغيض. (المترجم).

(4) يبدو أنها إشارة إلى السيد Montassier، إذ تزوج الاثنان لاحقًا ثمّ انفصلا. (المترجم).

وتقاليد التشريفات"[1]. في النهاية حول مأدُبة العشاء الذي كان يحضره مئة وثلاثون شخصًا، كان خطيب ابنة الرئيس "المستقبَليّ" يجلس في مكانه، في نهاية الطاولة.

في المساء، وبعد انتهاء المأدُبة الرَّسْميَّة للشَّاه والملِكة، عاد الرئيس الفرنسي وزوجته إلى قصر كلستان[2]، حيث كانا يقيمان. يبدو أنّ الرئيس أبدى استياءه من المكان غير المناسب الذي أُجلِسَ فيه خطيب ابنته المستقبَليّ، كما أنه اعتبر الهدايا التي قُدّمت له أقلّ من شأنه، ودعا محمد رضا شاه بـ"الغِرّ".

كان قصر كلستان، كغيره من أماكن الإقامة المماثلة، مجهَّزًا بأجهزة التنصّت[3]، بناءً على ذلك في صباح اليوم التالي أُطلِعَ الشَّاه على ما قاله جيسكار ديستان.

العجيب في الأمر أنّ الرئيس الفرنسي، بعد ذلك بسنوات، أشار في مذكّراته إلى حواره مع زوجته في قصر كلستان: "في الليل، في قصرنا الواقع وسط العاصمة طَهْرَان، قالت لي آن إيمون[4]: لقد بدا كلّ شيء مصطنَعًا: لقد بدا المحيط كزخارف المسرح وكان المدعوُّون أشبه بالممثلين"، ثمّ يضيف إلى كلامه "في الحقيقة لقد كان كلّ شيء مُزعِجًا"[5].

إشارات الرئيس الفرنسي إلى حواراته الليلية يمكن أن تكون دليلًا على أن هذه الحوارات تَحوَّلَت إلى قضيَّة سياسيَّة، وعَلِم عنها لاحقًا مِمَّا استدعى منه أن يذكرها أو يبرّرها.

---

(1) ليس في متناول اليد أي وثيقة رسمية حول هذه الحادثة، لكن الإشاعات حولها سُرعان ما سَرَت في البلاط وبين الدوائر السياسيَّة في طهران. ما هو مسلَّم به هو أن هرمز قريب كان يردّ على أي قضية ولو صغيرة بأنه «سينقلها إلى جلالته وسيعمل بما يأمره»، وكان محمد رضا شاه يقول للمسؤولين في كثير من المسائل أن يؤدُّوا واجبهم وأن لا يُزعِجوه بالقضايا التافهة. إنّ وصف الرئيس الفرنسي هذه القضية في مذكّراته وكذلك رأي شاهبور غلام رضا يشير إلى أن هذه الإشاعة لا تبدو غير صحيحة.

(2) قصر ومتحف كبير في مركز العاصمة طهران، بُني في القرن التاسع عشر في زمن القاجار، كانت أجزاء منه تُستخدم مكانًا لإقامة ضيوف الشاه والملِكة.

(3) حتى القاعات الفاخرة التي يُستقبل فيها الضيوف الأجانب. (المترجم).

(4) Anne-Aymont زوجة الرئيس الفرنسي. (المترجم).

(5) Le pouvoir et lavie, op. cit, P.103.

الحقيقة أنه بعد يومين أو ثلاثة أيام كان جميع مَن في الحلقة السِّياسِيَّة المصغَّرة ومَن في السفارات الأجنبيَّة يتحدثون حول قضيَّة التشريفات هذه.

بعد انتهاء سفر جيسكار ديستان وعقيلته ومرافقيهما، كان جميع مَن في القصر يتجنّبون إلحاق كلمة "ديستان" باسم الرئيس الفرنسي. كان الجميع يعلم أنّ هذا اللقب هو لقب للنبلاء اشتراه والد وعمّ الرئيس الفرنسي من أحد المراجع القضائيَّة، وأنه في الأساس ليس نبيلًا[1]. كان جميع مَن في البلاط ينادونه "جيسكار" لا "جيسكار ديستان". كان الشَّاه قد انزعج كثيرًا من كلمة "غِرّ". فلو كان هو "غِرًّا" لكان جيسكار ديستان "أقلّ من ذلك"!

بعد سنوات كتب شاهبور غلام رضا، شقيق الشَّاه، في مذكِّراته، وقد كان على علم بما جرى خلف الكواليس وبما كان يُتناقل في البلاط: "كان أخي قد انزعج من التصرُّف المتكبِّر والمقترن بالازدراء من الرئيس الفرنسي وما أبداه من حساسية تجاه بعض الأمور المتعلقة بالتشريفات. لقد كان الجنرال ديغول والفرنسيون في ذلك الوقت أصدقاء حميمين وحقيقيّين. لكن جيسكار ديستان لم يكُن في ذلك المستوى"[2].

إن رواية وشهادة شاهبور تؤيّد حدوث قصة التشريفات وما تبعها في أثناء سفر الرئيس الفرنسي إلى طَهْرَان. الحقيقة أنّه باستثناء تلك الابتسامات الرَّسْميَّة و"الباهتة"، لم يكُن جوّ هذه الزيارة الرَّسْميَّة لطيفًا.

من الطبيعيّ أنّ فتور العَلَاقات بين رئيسَي الدولتين أثّر في تَصرُّف الحُكُومة الفرنسيَّة عند وصول آية الله الخُمَيني إلى فرنسا. بعد مُدَّة استفسر أحد الصحفيين من الشَّاه حول هذه القضيَّة، كان جواب محمد رضا البهلوي معبِّرًا: "أعتقد أنّ الجنرال ديغول كان ليتصرف بشكل مختلف... لقد كان إنسانًا مختلفًا"[3].

---

(1) كان هذا العمل دارجًا في بعض الدول، في فرنسا كان يمكن القيام به بإذن من السلطات القضائية لأن الحصول عليه كان يستوجب تغيير اسم العائلة. (المترجم).

(2) Mon Pere, mon frère, Les shahs d' Iran, op. cit. P. 260.

(3) Le Monde, dimanch 4 lundi, 5 aout 1985.

أُجرِيَ هذا اللقاء في زمن إقامة الشاه في المغرب، وأجراه الصحفي الإيراني-الفرنسي المعروف فريدون

في مؤتمر غوادلوب، الذي سنشير إليه لاحقًا، حسب الروايات المنتشرة، كان جيسكار ديستان يقف ضِدّ محمد رضا البهلوي أكثر من نظرائه الآخرين، قال: "إن بقي الشَّاه في إيرانَ فستتعرض إيران لحرب أهليَّة وسيجري جدول من الدماء، سيحصل الشيوعيُّون يومًا بعد يوم على قدرة ونفوذ أكبر، سيُضطرّ الضُّبَّاط الأمْرِيكِيُّون إلى التعامل مع هذه الأزمة وهذه المواجهات، وبهذا سيحصل السوفييتيُّون على مبرِّر للتدخُّل المباشر في شؤون إيران، أوروبا تحتاج إلى استقرار سياسيّ في إيران، وتحتاج إلى نِفْط إيران. إنّ موقف وتصرف الخُمَيني في فرنسا يشير إلى إمكانية أن يكون رجلًا معتدلًا ومناسبًا، يجب على الأمْرِيكِيّين أن يقبلوا بفكرة ومشروع إيجاد تغيير أساسيّ في إيران"[1]. لم يكُن إلى توصيات الفرنسيين حاجةٌ، فقد كان الأمْرِيكِيُّون حزموا أمرهم منذ مدة طويلة.

قيل لإحدى الشخصيَّات الفرنسيَّة البارزة الذي كان يستشيره قصر الإليزيه: "أخيرًا سنتمكن ببركة الخُمَيني من إيجاد الاستقرار السياسيّ في إيران"[2]، أظهر الرئيس الفرنسي نفسه مُولَعًا بالاستقرار السياسيّ في إيران، وكان يظنّ أنّ آية الله هو عامل تحقيق ذلك.

عندما كان محمد رضا شاه يقيم هو وعائلته في المغرب، حاول فاليري جيسكار ديستان الاتصال به هاتفيًّا. "كان الشَّاه يتمشَّى في حديقة القصر

صاحب، الذي كان محلّ عناية الشاه، ونُشر بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفات محمد رضا البهلويّ.
كتب أردشير زاهدي في مذكّراته أنه "بين الشاه وديغول كان نوع من علاقة الأبوّة، لقد بدأت الصداقة والثقة بينهما إبان الحرب العالَمية الثانية، كان ديغول ينظر إلى الشاه كابن له، وكان الشاه يحترمه ويثق به، وهو شيء لم يُبدِه تجاه أي شخصية أجنبية أخرى». منقول عن الجزء الأول من الترجمة الفرنسية لمذكُرات أردشير زاهدي، المقدمة، ص11.

(1) طبع نصّ بيانات الرئيس الفرنسي في كتاب Shawcross.

(2) وهي القِصّة المكتوبة التي رواها فرانسوا شارل رو Francois Charles Roux، الدبلوماسي الفرنسي المعروف، لكاتب هذه السطور في رسالته بتاريخ 27 فبراير 1984. كان فرانسوا في أثناء الحرب ولفترة قصيرة معاونًا عسكريًا للجنرال ديغول، ثمّ التحق بالعمل لدى وزارة خارجية بلده، وبعد تَقَلُّده مناصب مُهِمَّة أصبح لسنواتٍ سفيرَ فرنسا في طهران، كان يعرف إيران جيدًا، وكان يحترم ويحب ثقافتها وتاريخها كثيرًا.

الذي كان يقيم فيه، طلب أمير أصلان أفشار[1] من الرئيس الفرنسي أن يتّصل مجدَّدًا. ثمّ أخبر الشَّاه على مائدة الغداء بالمسألة. أجاب الشَّاه بمرارة: "لا كلام بيننا: لقد أظهرنا الوُدّ للفرنسيين قدر استطاعتنا. والآن تَغيَّروا بالكامل. لا كلام بيننا". وامتنع عن محادثة جيسكار ديستان على الهاتف[2].

هل أثّر عدم الاهتمام، أو هذه الإهانة، في تَصرُّف الحُكُومة الفرنسيَّة إزاء الشَّاه خلال الأشهر الأخيرة من حياته، وكذلك في موقف جيسكار ديستان، بعد وفاته في مصر؟

ربما.

عندما اشتدّ مرض الشَّاه خلال حوادث عام 1979 وأصبح علنيًّا، خطر بباله أن يسافر من المكسيك إلى فرنسا للحصول على العلاج اللازم، بخاصَّة أن أطباءه كانوا في باريس. لقد حاول محمد رضا البهلوي جاهدًا اجتناب السَّفَر إلى أمريكا، وهو ما اضطُرّ إلى فعله في النّهاية. لذلك طلب الاستفسار، وبشكل سري للغاية، من السُّلُطات العُلْيا في فرنسا حول هذا السَّفر.

بعد أربعة أسابيع من طرح المسألة، جاء جواب الفرنسيين بالرفض[3].

ربما كان السبب أن السُّلُطات الفرنسيَّة أرادت أن تتجنَّب وقوع المشكلات بينها وبين النِّظَام الجديد في إيران، وهو ما كان الأمْرِيكِيُّون قد وقعوا فيه، ولكن هل كان يمكن لطَهْرَان إبداء ردّ فعل شديد بعد حادثة نوفل لوشاتو

(1) آخر رئيس للتشريفات الملكية، وكان يرافق الشاه في مصر والمغرب، وذهب لزيارته في مصر في آخر لحظات حياته، وبقي بجانبه حتى آخر لحظة.

(2) من حوار الدكتور أمير أصلان أفشار مع وليام شاوكراس، مذكور في كتابه، المرجع المذكور في صص160-159.

(3) كنت أنا الواسطة في هذا الاستفسار السّريّ، وعرضت الموضوع على صديقي Alain Peyrefitte وزير العدل الفرنسي آنذاك، فوعد باستجلاء نظر رئيس الجمهورية، الوحيد الذي بيده صلاحية اتخاذ مثل هذا القرار. صدر ردّه المكتوب بالرفض بتاريخ 15 نوفمبر 1979، ووصل إليّ في اليوم التالي، كان بإمكان بيرفيت أن يبلغ الجواب هاتفيًا أو حضوريًا، من المؤكّد أن سبب كتابة الرسالة كان أن تُسَجّل في التاريخ، كان آلن بيرفيت صديقًا ومؤيّدًا قديمًا للجنرال ديغول، كان ينتقد بشدة موقف الحكومة الفرنسية إزاء الخُمينيّ، وكان يسميه «العجوز المجنون».

وتلك المساعدات العلنيَّة التي قدّمتها فرنسا للخُمَيني؟ ليس معلومًا. ربما كان من الأفضل للشَّاه أن لا يُقدِم على مثل هذا الأمر وأن لا يُهين نفسه، ولو كان الأمر في غاية السرّية، لكنه كان حينها في الحقيقة عاجزًا لا يعرف ماذا سيفعل. تُوُفِّي محمد رضا شاه في صباح السابع والعشرين من يوليو عام 1980 في أحد مستشفيات القاهرة الكُبْرَى. في اليوم التالي أُعلِنَت وفاته رَسْمِيًّا. عندها أرسل فاليري جيسكار ديستان برقية تعزية إلى المِلِكة فرح، لم يستطِع أن يأتي فيها على ذِكْر اسم المتوفَّى والمقام الذي كان فيه واسم دولته والعَلَاقات التَّارِيخيَّة التي كانت تربطها بفرنسا.

كان نص البرقية يقول: "الآن وقد تُوُفِّي زوجك بعد تَحمُّل العناء الشديد، أرجو أن تتقبَّلي أحرّ التعزيات، وأن تبلّغي ذلك لأبنائك أيضًا". نُشر هذا النَّصّ في الصحف الفرنسيَّة. لم يكُن بالإمكان كتابة شيء أكثر ازدراءً.

***

كانت حياة آية الله، الذي لم يكُن قد وصل بعد إلى "الإمامة"، منظَّمة ومرتَّبة بشكل كامل، وسرعان ما لحقت به زوجته من العراق. كانت هي المسؤولة عن سلامة وحياة زوجها الخُصُوصيَّة وتحضير الطعام له، ولحق بهما ابنهما أحمد إلى باريس، وكان مشهورًا بفساده الأخلاقي والمالي، وكان انتهازيًّا ومن أهل التحريض والتآمر.

كان الخُمَيني يستيقظ كلّ يوم باكرًا، وكان يؤدِّي صلاته، ويتناول وجبة إفطار خفيفة، ثمّ يعود من جديد ويستريح لِمُدَّة ساعتين، وكان يبدأ نشاطه الساعة الثَّامنة تقريبًا، كان غداؤه وعشاؤه بسيطَيْن، حسب العادة، وكانت زوجته هي من يحضّرهما، ومثل كثير من الإيرانيِّين كان يشرب بضعة أكواب من الشاي طوال النهار. كان على زوجته أن تتولى الإشراف على هذا العمل شخصيًّا، فقد كان الخُمَيني يخشى أن يسمّموه. في تمام الساعة العاشرة ليلًا كانت أضواء مقر إقامته تنطفئ وكان آية الله يخلد إلى الراحة.

كانوا قد نصبوا مُسبَقًا خيمة مربّعة مخطّطة بخطوط بيضاء وزرقاء كخيمة السيرك، في الساحة المقابلة لمكان إقامة الخُمَيني. كانت هذه الخيمة مكانًا لإقامة صلاة الجماعة، وسَرْعانَ ما أُطلِقَ عليها الجميع اسم "المسجد". كان رُوح الله الخُمَيني يخرج من بيته يوميًّا، على الأقلّ مرةً واحدةً، وكان يعبر الشارع ويذهب إلى "المسجد". وفي كلّ مرة كان مئات الأفراد، الذين لم يكُن يعرف مَن هم ولا مِن أين جاؤوا، يقتدون به. يبدو أنّ ما يقارب مئة ألف شخص قد شاركوا في هذه المناسك طوال مُدّة إقامة آية الله في فرنسا.

كان عبور الخُمَيني للشارع الذي يفصل بين مكان إقامته والمسجد استعراضًا معروفًا، يصوّره مصوّرو الأفلام والصُّوَر الفوتوغرافية من جميع أنحاء العالَم.

كان آية الله يضع على رأسه عمامة سوداء نظيفة ومرتّبة، وكان يرتدي جُبّة رمادية طويلة وعلى رأسه تلك العمامة السوداء، ودائمًا ما كان ينتعل نعلًا.

في كلّ مرة كان الخُمَيني يعبر فيها الشارع كان أفراد الدَّرَك الفرنسي يغلقون طرفَي الشارع ويمنعون تردُّد وسائل النقل والأشخاص غير المصرَّح لهم.

غالبًا ما كان يمسك أحمد، ابن آية الله، بساعد والده ويساعده على المشي، وفي كلّ مرة كان ما لا يقلّ عن خمسين شخصًا من "الحرس الخاصّ"، ما عدا الحراس الفرنسيين، يحيطون به وهم يلبسون لباسًا يشبه لباس المظلِّيّين، وكانت مجموعة أُخرَى تتجمع في الأرجاء ويطلقون الشّعارات[1].

كانت لجنة مِن أربعة أعضاء تتولّى إدارة أمور إقامة الخُمَيني وتنظيم نشاطاته في فرنسا. الأول كان إبراهيم يزدي، الأمْريكِيّ إيرانيّ الأصل، وهو من كان يشرف عمليًّا على سير الأعمال[2]، ويبدو أن زوجته أيضًا كانت أمْرِيكِيَّة. كان يدرّس في جامعة تكساس. وكان رَسْمِيًّا الناطقَ باسم آية الله الخُمَيني

(1) كلّ هذه التفاصيل لَقِيَت أصداءً في الصحف الفرنسية.

(2) "Ebrahim Yazdi, Khomeyni's U.S. mouthpiece", Mike Evans, Jimmy Carter, the liberal left and world chaos, Time Worth book, Phoenix, Arizona, 2009, P. 237.

والمسؤول عن عَلَاقاته الخارجيَّة. وكان الثَّاني أبو الحسن بني صدر، الذي على الرغم من لغته الفرنسيَّة غير المكتملة، كان أحيانًا يلعب دور المترجم لآية الله. كان بني صدر يعتبر نفسه "المنظّر" للثَّوْرة الإسلاميَّة، لأنه كان قد درس سابقًا تخصُّص العلوم الاجتماعيَّة في جامعة طَهْرَان في مرحلة الماجستير، ثمّ درس في جامعة السوربون[1] لِمُدَّة خمسة عشر عامًا، ولم ينجح إطلاقًا في الحصول على الشهادة.

الشخص الثالث كان صادق قطب زاده، وكان يحمل جواز سفر سوريًّا، كان شابًّا متحمّسًا، متخصِّصًا في كلّ شيء، كان محرِّضًا وله عَلَاقات حسنة مع صحفيي الصحف والمحافل الأجنبيَّة[2].

وكان الشخص الرابع هو السيد أحمد، ابن آية الله، وهو الشخص الوحيد الذ كان بإمكانه الوصول إلى "حَرَمِه"، ويبدو أنه كان مقرَّبًا من والده كثيرًا، كانت المنافسة والعداوة بين هؤلاء الأربعة على أشدّها، وغالبًا ما كانوا يغتاب بعضهم بعضًا ويكيد بعضهم لبعض[3].

---

(1) Sorbonne.

(2) حول صادق قطب زاده، الذي أُعدِمَ رميًا بالرصاص بأمر من الخُمينيّ بعد الثَّوْرة بتهمة الاشتراك في مؤامرة، انظر مجلة راه زندگی (مطبوعة في لوس أنجلوس)، السنة 29، العدد 1178، 19 فبراير 2010. (المترجم).

(3) منذ بضع سنوات تتداول المجالس الإيرانية كتابًا ضخماً نسبيًّا (يحتوي على 257 صفحة مصوَّرة، أُرسِلَ إليّ من طهران)، يبدو أنّ كاتبه شخص اسمه جعفر شريف زاده أحد رجال الحرس الثوري وأحد حراس الخُمينيّ عندما كان في فرنسا. ما ورد في هذ الكتاب من تفاصيل عن إقامة آية الله الخُمينيّ في نوفل لوشاتو، يبدو حقيقيًا ومعقولًا، ومع ذلك يجب التأكُّد هل كان أم لم يكُن من حرّاس آية الله. يعتقد بعض المحلّلين أن كاتب هذا الكتاب أو هذه «النشرة» هو نفسه حسين البروجردي الذي نُشر له رسميًّا كتاب مذكّرات آخر، لكنّ ما لم يرغب في نشره في ذلك الكتاب دوّنه على شكل «نشرة» منفصلة.

الخلاصة أنّ النصّ المنسوب إلى جعفر شريف زاده يحتوي على مسائل جديرة بالاهتمام حول إقامة آية الله الخُمينيّ في فرنسا، والعلاقات مع المقرَّبين منه وعلاقاته التي كان بعضها مع الأجانب. يؤيِّد ذلك الوثائقُ الرسمية التي نُشرت في الولايات المتَّحِدة الأمريكيَّة مؤخَّرًا، لقد ورد ذِكْر ما أشار إليه جعفر شريف زاده من التنافس بين أعضاء الحلقة الأولى من مقرَّبي الخُمينيّ، في نشرات أخرى، لكن هل صحيح ما رواه جعفر شريف زاده عن التسلية الليلية، وأصناف الفجور القبيحة التي كانوا يفعلونها؟ لا نعلم، وعلى أي حال ربما ليس لها أَهَمِّيَّة خاصَّة من وجهة نظر التاريخ السياسيّ للثورة الإسلاميّة.

عندما أنزلوا الخُمَيني في نوفل لوشاتو، كان يقطن هذه المدينةَ الصغيرةَ الهادئةَ في ضواحي العاصمة ألفا شخص، تَعكَّرَ صفو حياتهم: كانت الإجراءات الأمنيَّة المشدَّدة وحضور مئات من مقرَّبي وحرَّاس الخُمَيني، وإقامة عدد كبير من الصحفيين والمصوِّرين، وفي النّهاية تَرَدُّد الزوَّار الذين جاؤوا لمشاهدة العرض من قُرب، سببًا في الإزعاج الشديد لسكان نوفل لوشاتو، الذين أبدى بعضهم اعتراضه على ما يحصل، لذا أبلغ مكتب البلدية في المنطقة والمسؤولون الأمنِيُّون الأهالي بأنّ إقامة آية الله هناك "مؤقَّتة".

أدرك بعض التُّجَّار وأصحاب المتاجر أن وجود الخُمَيني هناك سيكون مصدرًا لنشاط اقتصاديّ ومنفعة لهم، إذ كان أهالي الحيّ يشاهدون آية الله وذهابه وإيابه وحواراته عِدَّة مَرَّات في اليوم، وأصبحت هذه القِصَّة موضوعًا يتداولونه بينهم، ونتيجة لإقامة آية الله ومرافقيه ارتفعت مبيعات مخبز الحلوى والخبز الوحيد في المنطقة أربعة أضعاف. وتَحوَّل المطعم الصغير الذي كان بالقُرب من مكان إقامته[1] إلى مقرّ ومحلّ للاستراحة وتمضية الوقت للزُّوَّار، خصوصًا الصحفيين ومصوِّري الصُّوَر الفوتوغرافية والأفلام، وكان يمتلئ بالزبائن من الصباح حتى المساء، وكان يمرّ به كلّ يوم صادق قطب زاده -الذي كان محبًّا للَّهو- ليشرب كأسًا من الكحول، الأمر الذي يُعتبر -حسب تعبير رجال الدين- مخالفًا للإسلام. كما كان يواعد بعض الصحفيين للقاء هناك ويقدِّم لهم المشروب الكحوليّ الذي يفضِّلونه.

لكن المقرّ الحقيقيّ للمقرَّبين من الدرجة الأول للخُمَيني، والمكان الذي كان يُستضاف فيه الشخصيَّات والصحفيُّون المعروفون، كان مطعمًا فاخرًا وباذخًا ومرتفع الأسعار في مدينة باريس يحمل اسم "لا كلوزرى دي ليلا"[2]، كانت عادة مرافقي آية الله أن يوقّعوا فاتورة الحساب، ثمّ يأتي شخص إلى

---

(1) Auberge des trois marches.

(2) Closerie des lilas، مطعم باذخ كان لعشرات السنين مكانَ تَردُّد ولقاء السياسيِّين والصحفيين والمثقَّفين البارزين في باريس، وكانت حانة المطعم ذات شهرة خاصَّة. يقع المطعم على تقاطع شارعَي سانت ميشيل ومون بارناس، في ميدان يُعرَف باسم أوبسرفاتور Observatoire. (المترجم).

إدارة المطعم لتسديدها. لم تُدفَع الفواتير الأخيرة المتبقية، فاشتكت الإدارة إلى جهات مختلفة، وتحدثت صحف باريس بهذه القضيَّة. لكننا لا نعلم كيف كانت نهاية هذه القِصَّة.

بمناسبة السنة الميلاديَّة الجديدة وعيد ميلاد المسيح، وُزِّعَت الهدايا على أطفال الحيَ من طرف الخُمَيني، كان مبعوثوه يطرقون أبواب المنازل يقدّمون الهدايا ويعتذرون بالنيابة عن آية الله على الإزعاج المؤقَّت الذي سبَّبُوه. أثّر هذا الفعل في كثيرين، وأوجد شعبيَّة للضيوف غير المدعوِّين، وأشارت الصحف المختلفة إلى هذه المسألة.

في الفترة التي كان آية الله الخُمَيني (الذي أصبح يُدعَى تدريجيًّا بالإمام) يقيم فيها في نوفل لوشاتو. أصبح مكان إقامته مقرًّا لجميع وسائل الإعلام في العالَم، فكان يجتمع حوله الصحفيُّون والمراسلون والمصوِّرون على الدوام، كما كان زُوَّار وضيوف متنوعون يترددون على المكان، وكانت قصص بعضهم عجيبة.

***

كان رفقاء الخُمَيني والمقرَّبون منه، سواء مَن كان منهم منذ مدة طويلة إلى جانبه ومن التحق بالجمع مؤخَّرًا، يتوجهون إلى نوفل لوشاتو أفواجًا أفواجًا، إما للقائه وإما للإقامة بجانبه أو في باريس.

كان صهره شهاب إشراقي أول القادمين. كان والد شهاب واعظًا معروفًا، وعلى الرغم من أنه كان يرتدي العمامة، أو بعبارة أُخرَى رجل دين، فإنه كان يقتات من تجارة وسمسرة الأراضي المخصَّصة للمقابر، كان سمسارًا لأراضي القبور[1]، كان سمسار قبور. السيد شهاب قد أصبح رجلاً ثريًّا. كان رجل دين تاجرًا يخشى على ماله، كان يخاف أن تُلحِق هذه الفَوْضَى التي سبّبها والد زوجته أضرارًا بتجارته المزدهرة، أو أن يزعجه مأمورو الدَّولة بشكل من

(1) كانت هذه التجارة تُدِرّ أرباحًا في مدن مثل قم ومشهد وكربلاء، إذ كان بعض الشِّيعَة يوصي بأن يُدفَن فيها. في إيرانَ مقولة تقول: "قم تستورد الجنائز وتصدِّر رجال الدين"، لأن هذه المدينة هي أيضًا مركز تأهيل رجال الدين وتعليمهم.

الأشكال. عندما استقر الخُمَيني في فرنسا طلب الإذن بأن يغادر هو وزوجته وأبناؤه (أي ابنة وأحفاد الخُمَيني) إلى تلك الدَّولة. لكن السُّلُطات امتنعت عن إعطائه جواز سفر، لذلك قدَم عريضة إلى الشَّاه مباشرة يتوسَل فيها. فأمر الشَّاه بمنحه هو وأفراد عائلته جوازات سفر على الفور. ليس ذلك فحسب، بل أمر بأن تكون تكاليف السَّفَر على نفقة الدَّولة!

بعد اعتلاء آية الله الخُمَيني السُّلْطة أصبح السيد شهاب يُنادَى بـ"حُجَّة الإسلام"، ثمّ "آية الله"، وأصبح رئيس مَجلِس الإدارة والرئيس التنفيذي لشركة النِّفْط الإيرانيَّة، وتوُفّي بعد ذلك بفترة قصيرة.

رجل دين قليل القَدْر آخَر يُسَمَّى الشيخ حسين علي منتظري الذي حصل على لقب "آية الله" و"آية الله العُظْمَى" و"الفقيه الشجاع". حتى إنه عُيِّن نائبًا للخُمَيني و"وليّ عهد" له. كان يحصل على راتب شهري بسيط من محمد علي قطبي، خال المِلكة الإقطاعيّ الثريّ. فقد كان من العادات الدارجة لدى كثير من العائلات الإيرانيَّة أن يقدّموا لبعض رجال الدِّين راتبًا شهريًّا على أنه من الخُمس والزكاة لإظهار وجاهتهم. أو على الأقلّ كانوا يقدّمون المساعدة لهم بين حين وآخَر.

تعجب محمد علي قطبي كثيرًا عندما ذهب إليه الشيخ حسين علي، الممازح والفكاهي الذي كان يُضحِكه كلّما زاره، وطلب منه أن يساعده للذهاب إلى باريس، وأن يُصدِر له جواز سفر ويعطيه بعضًا من أموال الصدقة. كان قطبي رجلًا مُحسِنًا، لكنه كان حذرًا ممَّن وممَّا حوله. فتَقصَّى وتَحقَّق حول الشيخ حسين علي، فقيل له إنه من أصدقاء الخُمَيني، وأحيانًا يُظهِر معارضته، وقد ذاق طعم السجن سابقًا. فتَعجَّب قطبي كثيرًا. ومع ذلك فقد أصدر له جواز سفرٍ كان بإمكانه الحصول عليه في تلك الظروف بعد صبر وتَأنٍّ، واشترى له تذكرة السَّفَر وأعطاه "مصروفًا"[1].

بعد مرور مدة على هذه القِصَّة، كان البروفيسور عباس صفويان، أحد

(1) روى لي المهندس محمد علي قطبي هذه القِصَّة آنذاك، وأكّدها بعد الثَّورة في باريس.

أطباء الشّاه الذي كان يقضي سنة تفرُّغه العلمي في باريس وكان قد رجع إلى طَهْرَان لمعاينة مريضه الشهير، عائدًا إلى باريس على متن الخطوط الفرنسيَّة. أجلسوه في الطائرة قرب شخصين أحدهما تاجر إيرانيّ مقيم في الهند، وكان قادمًا من نيودلهي متوجهًا إلى باريس، والآخر رجل معمَّم يحمل كثيرًا من حقائب اليد التي لم يكُن يعرف كيف يتصرَف بها. بعد إقلاع الطائرة عرَف التاجر الإيرانيّ المقيم في الهند بنفسه وأخذ يتحدَّث إلى جارَيْه[1].

مثل بقيَّة الإيرانيِّين الذين يمازحون رجال الدِّين، أو كما يُقال "يلاطفونهم"، تَوَجَّه نحو المعمَّم وقال: "حضرة الشيخ مسافرٌ إلى باريس ليتزوّج بامرأة فرنسيَّة جميلة؟"، وبعد أن فنّد الرجل المعمَّم هذا الكلام بدأ بدوره يمزح ويُلقِي النكات، ثمَ قدَم للمسافرين من حوله مقدارًا كبيرًا من المكسَّرات والحلوى. كان مزاحه وتصرُّفه قد أثار تَعجُّب المسافرين. ربّما لأنهم كانوا يتوقعون من رجل دين أن يكون أكثر وقارًا. عندما اقتربت الطائرة من باريس هدأ الرجل المعمَّم بالتدريج وبدأ يجهّز نفسه.

يروي البروفيسور صفويان كم كان استغرابه، وكذلك المسافرون، شديدًا عندما جاء بعض المُوَظَّفين الرَّسْميّين الفرنسيّين لاستقبال رجل الدِّين المازح، وكان كثير من المصوِّرين والصحفيّين في انتظاره. كان بعض الإيرانيّين بانتظاره وتَقدَّموا منه لمساعدته في حمل أغراضه واستقباله الاستقبال اللازم، وفي المساء أعلن التليفزيون الفرنسي بالتفصيل وبالصُّوَر قدوم "آية الله" المنتظري "خليفة" الخُمَيني القادم. كان البروفيسور صفويان رجلًا متديِّنًا، ومع أنه كان طبيبًا لبعض رجال الدِّين فإنه لم يسمع باسم "آية الله" هذا. ذلك المعمَّم المهرّج وجاره في الطائرة! بهذا أصبح إمام نوفل لوشاتو في باريس له خليفة و"ولي عهدٍ" منحته وسائل الإعلام الفرنسيَّة لقب "آية الله".

---

(1) أشكر البروفيسور صفويان الذي بعث إلّي بهذه القِصّة مكتوبةً. قبل بضعة أشهر من هذه الحادثة كان قد ذهب إلى باريس للاستفادة من سَنَة التفرغ العلمي، وكان يعود إلى طهران مرة في الشهر لمعاينة الشاه ومراقبة وضعه النفسي، وبعد مُكْث قصير كان يعود إلى فرنسا.

عاد المنتظري إلى طَهْرَان بعد الخُمَيني بقليل. واختير عضوًا في مَجلِس الثَّورة. ولعب دورًا أساسيًّا في الحياة السِّياسِيَّة ومصائب إيران في السَّنَوات الأولى للثَّوْرة. وفي النِّهاية عُزِل.

تشير هاتان الحادثتان إلى الوضع الذي كان عليه الفضاء الفكريّ والسياسيّ في إيرانَ آنذاك. واللُّعبة المحيِّرة التي كانت تجري في فرنسا.

***

كان لسفر الدكتور كريم سنجابي إلى باريس ومبايعته آية الله الخُمَيني بُعْد سياسيّ وأهَمِّيَّة من نوع آخر. كان كريم سنجابي من عائلة معروفة ومحترمة. أكمل دراسته في باريس، وكان يدرّس في جامعة طَهْرَان، وتَوَلَّى منصب عميد كلية القانون والعلوم السِّياسِيَّة، وتقاعد وهو يحمل لقب أستاذ. كان الدكتور سنجابي من مؤسِّسي الجبهة الوطنيَّة ووزير ثقافة أول حُكُومة للدكتور مصدَّق. كان يُعتبر شخصيَّة بارزة. وكان كثيرون يَعُدُّونه من أبرز السياسيِّين النشِطِين بين أتباع مصدَّق والجبهة الوطنيَّة. لم يكُن لهذه الجماعة تشكيلات منظَّمة وقدرة سياسيَّة منظَّمة. لكن اسم وذكرى مصدَّق كانت لا تزال حيَّة وتُحترم بين جمع كبير من الناس. ولم يكُن وريثوه قِلَّة.

كان الدكتور سنجابي قد ابتعد عن السِّياسة. ومع هذا فقد كان معروفًا: كان يتعاون مع مؤسستين حُكُوميّتين كبيرتين مستشارًا، وسعى قبل ذلك بثلاث أو أربع سنوت للتقرُّب من الشَّاه. لكن محمد رضا البهلوي، الذي كان في أوج قُوَّته ومجده، لم يكُن يأبه بمعارضيه، وكان هذا خطأً فادحًا في موقفه تجاههم، لكن بخصوص الدكتور سنجابي شخصيًّا فقد أبقى باب المصالحة مفتوحًا[1].

بعد عام 1977، بخاصَّة ربيع وصيف عام1978. كان الدكتور سنجابي هو الناطق بلا منازع باسم المعارضين غير الإسلاميِّين للشَّاه والحُكُومة، بل وجميع الذين كانوا يشجِّعون التطبيق الدقيق لروح الدستور وتقليص صلاحيَّات

(1) أنا نفسي كنت شاهدًا ووسيطًا في هذه الحادثة.

الشَّاه. لم تكُن شهرته ونفوذه قليلَين بين أصحاب السُّوق ومجموعة من المفكِّرين وبعض الجماعات المعروفة بالإصلاحيين، وكانت الصحف الأجنبيَّة تتحدث عنه أحيانًا.

في أوائل عام 1978 سافر الدكتور سنجابي إلى أوروبا، وتَحدَّث في مؤتمر للاشتراكيّين الأوروبيين، وأجرى معه بعض الصحف المهمَّة بعض الحوارات. كتبت الصحف المحليَّة في إيرانَ عن يوم وساعة وصوله إلى طَهْرَان. وأعلنت إذاعة لندن عن ذلك في برامجها الفارسيَّة.

فجأةً شاع في طَهْرَانَ أنّ الدكتور سنجابي سيُستقبَل في المطار استقبالًا لائقًا، وبمجرَّد وصوله سيذهب إلى القصر المَلَكِيّ، وسيُكلَّف بتشكيل حُكُومة "مختلفةٍ حقيقةً" عن الحُكُومات الأُخرَى آنذاك. كانت هذه الحادثة في زمن رئاسة الدكتور آموزكار للحُكُومة. كانت المجموعة التي تنتظره في المطار صغيرة، ولم يكُن للذهاب إلى البلاط وملاقاة الشَّاه موعد. ولم يُولِه أحدٌ أيَّ اهتمام، بعد فترة وجيزة ارتكب الشَّاه أكبر خطأ سياسيّ في حياته، وعيّن جعفر شريف إمامي رئيسًا للوزراء، وأصبح هذا القرار بدايةً لسقوط الملكيَّة في إيران.

في تلك الأثناء كانت الحركة أو النهضة المعارضة للحُكُومة. وفي نهاية الأمر للشَّاه شخصيًّا. تتوسَّع يومًا بعد يوم. لم يتمكن سنجابي وأصدقاؤه المبعثَرون، الذين غالبًا ما كانت عَلَاقاتهم تتَّسم بالتنافس والعدائية، من تسلُّم زمام قيادة هذه النهضة.

لم يكُن الشَّاه يعتمد على السياسيّين المقرَّبين منه الذين كانوا قادرين على إدارة أمور المَمْلَكَة والتغلُّب على المشكلات، أو إنه كان حذِرًا منهم، وكانت النتيجة أن استمرَت الأزمة وأمسك رجال الدِّين بسرعة بزمام النهضة. وكان من بينهم آية الله الخُمَيني، الذي كان الأكثر تطرُّفًا والأشدّ فظاظة، والذي استقرّ في فرنسا بمساعدات الأجانب الماليَّة والسِّياسِيَّة، وظهر على أنه حامل لواء النهضة وقائدُها الأساسي.

شاع مرة أُخرَى في طَهْرَانَ أن الدكتور سنجابي سيتوجّه إلى فرنسا، وقيل في البلاط وفي الدوائر السِّياسِيَّة إنّ لديه مهمّة هي "تهدئة" الخُمَيني وأن يجلب ثقته، ثمّ سيُكَلَّف بتشكيل الحُكُومة الجديدة التي ستخفّف من توتُّر الرَّأي العامّ، وستلبّي مطالب رجال الدين، التي لم يكُن يعلم أحد كَمَّها وكيفها بشكل دقيق.

كان يُقال إن الدكتور سنجابي سيُجبر الشَّاه على التخلّي عن العرش لصالح ابنه، وليّ العهد شاه بور رضا، وسيغادر إيران، وسيُشَكَّل مَجلِس وصاية مَهمَّته إدارة المَمْلَكَة، وبذلك سيَرضى المعارضون من جهة، ومن جهة أُخرَى سيتحقّق تغيير سياسيّ هادئ في إطار الدستور، وفي النّهاية ستتراجع حركة التمرُّد.

سافر سنجابي مرة أُخرَى إلى أوروبا، السَّفر الذي كان في الحقيقة نهاية حياته السِّياسِيَّة وعارًا عليه في نهاية المطاف.

ما انتشر آنذاك هو أنّ سنجابي قد وُصيَ بمبايعة رُوح الله الخُمَيني، أو على الأقل أن يُجرِي تسوية معه، فمَن الذي، أو الذين، أوصَوهُ بذلك؟ من المحتمَل أن يكونوا الأمْرِيكِيِّين، الذين -حَسَبَ وثائق السِّفَارة الأمْرِيكِيَّة- كان لسنجابي علاقة وديَّة معهم. كان الخُمَيني -كما رأينا وكما نعرف- يكره مصدّق ونهضته والمواقف السِّياسِيَّة القوميَّة البعيدة عن مذهبه، وكلّ الذين كانوا يؤيّدونه، وكان ينظر إليهم بازدراء، ربما كان يرى في سنجابي منافسًا محتمَلًا.

حُدِّد موعد لقاء لسنجابي في نوفل لوشاتو، وعندما وصل إلى مكان إقامة آية الله أرشدوه إلى غرفة صغيرة تُدعَى "غرفة الانتظار"، وكانت أشبه بمستودَع لا بغرفة انتظار: لم يكُن فيها مقاعد ولا فراش، فانتظر سنجابي هناك ساعةً واقفًا على قدميه، حتى إن آية الله لم يستقبله في مقرّه، بل جاء إليه وتَحدَّث معه بضع كلمات وذهب.

كان قد أُعلِنَ عن لقاء سنجابي مع آية الله مُسبَقًا، ونُوقِشَ الموضوع في صحف إيران والخارج، وأصبح حدثًا سياسيًّا. لم يكُن أمام سنجابي الضعيف،

الذي كان قد فقد معنوياته بعد ذلك الانتظار الطويل المُهين، مجال للتراجع[1]، وكانت النتيجة أنه أُجبِرَ على إصدار البيان التالي[2] بعد أن توافق مع إبراهيم يزدي. أو في الحقيقة بعد أن نفّذ ما أُملِيَ عليه:

[بسم الله الرحمن الرحيم

الأحد، الرابع عشر من ذي الحجة 1398

الموافق للخامس من نوفمبر 1978

1) السُّلْطة الحالية في إيرانَ فاقدةٌ للشرعيَّة بنقضها قوانين الدستور، وإعمال الظلم وترويج الفساد والتسليم لسياسات الأجانب.

2) لن توافق النهضة الوطنيَّة الإسلاميَّة على أي حُكُومة في ظِلِّ بقاء النِظَام المَلَكِيّ غير الشرعيّ.

3) سيُقَرُّ نظام الحُكُوميَّة الوطنيَّة في إيرانَ على أساس المعايير الإسلاميَّة والديمقراطيَّة والحُرِّيَّة عن طريق الرجوع إلى الرَّأي العامّ.

الدكتور كريم سنجابي]

كانت هذه ضربة سياسيَّة قاصمة لشخص يعتبر نفسه وريثًا لمصدَّق، وكان هذا البيان في الحقيقة نهاية النشاط السياسيّ المستقلّ للجبهة الوطنيَّة، والإنكار العلنيّ لمبادئ وأفكار الدكتور مصدَّق. عاد كريم سنجابي مطأطأ الرأس إلى إيران، وعند دخول الخُمَيني مطار مهرآباد لم يُسمح ولو بالاقتراب من سُلَّم الطائرة، وفي قاعة مهرآباد الكُبْرَى كان يقف في صفّ طويل من المستقبِلين، وعندما مرّ الخُمَيني من أمامه انحنى احترامًا. لكنّ "آية الله العُظْمَى الإمام

---

(1) حسين بروجردي، النّصّ المذكور، صص429-428.

(2) للاطّلاع على هذه الحادثة و«اللقاء الرسمي» بين سنجابي واثنين من مرافقيه مع آية الله الخُمينيّ، انظر مذكّرات إبراهيم يزدي بعنوان: آخرين تلاشها در آخرين روزها، طهران، نشر قلم، الطبعة الثانية، 1983، صص36-29. أدرج نص بيان الدكتور سنجابي في الصفحة 33 من نفس الكتاب.

الخُمَيني" لم يردّ على ذلك ولو بإيماءة برأسه، وذهب[1].

بعد سقوط الملكيَّة واعتلاء الخُمَيني السُّلْطة، عُيِّن الدكتور سنجابي لفترة قصيرة وزيرًا للخارجيَّة، ثمّ طردوه بأسلوب مُهين، وبعد عدة سنوات مات في أمريكا وهو يُحِسَ بالمرارة، وعلى ما يبدو بالندم.

الشخصيَّة السِّياسِيَّة الأُخرى التي جاءت آنذاك من طَهْرَان متشوِّقة إلى لقاء الخُمَيني، كانت سيد جلال الدِّين تهراني، رئيس مَجلِس الوصاية على العرش، وكان لهذا المَجلِس صلاحيَّات الملك بعد تعيين شابور بختيار رئيسًا للوزراء وخروج الشَّاه من إيران. كان سيد جلال قد جاء إلى باريس ليتوسَّط بين بختيار وآية الله، وأن يمهّد لنقل السُّلْطة دون عنف وإراقة دماء.

عندما وصل تهراني إلى باريس، كان في انتظاره في المطار ما يزيد على مئة صحفي ومصوِّر من شَتَّى صحف العالَم، كان قد أعلن عن سفره ولقائه المرتقَب مع الخُمَيني على أنه "المحاولة الأخيرة لنقل السُّلْطة سلميًّا من الشَّاه إلى الخُمَيني، وكان صحفيُّو وسائل الإعلام يتبعونه أينما ذهب ولا يفارقونه.

كان تهراني، ذو الثمانين عامًا، رجل سياسة إيرانيًّا عريقًا وصاحب خبرة، وصل إلى منصب محافظ وسفير ووزير وسيناتور، وقِيلَ إنه كان على عَلَاقات وديَّة مع المؤسَّسة والمراجع الدِّينِيَّة. ما إن وصل إلى باريس حتى طلب لقاء الخُمَيني، عن طريق إبراهيم يزدي، الواسطة التي لا يمكن تحييدها والضروريَّة في جميع نشاطات آية الله المهمَّة[2]، فأجابوه مباشرة بأن عليه الاستقالة من رئاسة مَجلِس الوصاية رَسْمِيًّا وعلنيًّا قبل هذا اللقاء، فقال تهراني ليزدي إنه منذ أسبوع فقط قبِلَ هذه الوظيفة بإرادته، فكيف يمكن له أن يستقيل منها، ثم أضاف أنه جاء للتفاوض والتوافق مع آية الله، لا من أجل مبايعته.

يبدو أنهم في تلك اللحظة عرضوا بعض الصُّوَر غير اللائقة على تهراني

---

(1) انظر الأخبار التي بثّها التليفزيون عندما وصل الخُمينيّ إلى طهران.

(2) إبراهيم يزدي، النّص المذكور، صص136-128.

التُقِطَت له مع ابن أحد رجال الدِّين المعروفين والمقرَّبين من آية الله الخُمَيني[1].
مَن الذي أوصل هذه الصُّوَر إلى المقرَّبين من الخُمَيني؟ ربما بعض عملاء "السافاك" ممن كانوا يبذلون جهدًا في السَّنَوات الأخيرة لجمع مثل هذه الوثائق[2]، وكانوا يقصدون من ذلك التقرُّب من قادة ومسؤولي النِّظَام الذي كان في طريقه إلى الحلول مكان الملكيَّة. على أي حال، أوضح يزدي الأمر لتهراني بأنه إذ لم يُطِع الأوامر فإن هذه الصُّوَر ستُنشر في إيران، وفي نفس الوقت أعلن يزدي للصحفيين المحليين والأجانب أن "الإمام" لم يقبل بطلب سيد جلال، وفي النهاية لن يستقبله. اعتبر رئيس مَجلِس الوصاية كلام يزدي هذا إهانة كبيرة وتحقيرًا له، لكنه في سبيل حفظ ماء وجهه وتَجنُّب هذه الفضيحة العلنيَّة، أُجبِرَ على الرضوخ لمطالب يزدي، وفي بيان ألقاه أعلن استقالته من مَجلِس الوصاية. ومع ذلك أبدى شجاعة في مقابلة له ولم ينطق باللقب البارسي "الإمام" في إشارته إلى الخُمَيني واكتفى بـ"آية الله العُظْمَى"[3].

في النِّهاية، وُوفِق على لقاء تهراني، واستطاع الجلوس في "حضرة" الخُمَيني لعشر دقائق[4].

---

(1) حسين البروجردي، مرجع سابق، ص424.

(2) وهي عادة دارجة لدى كثير من أجهزة مخابرات العالَم، بما فيها الدول الغربية. (المترجم).

(3) في ما يلي نص البيان الذي طُبع في الصفحة 131 من مذكَّرات إبراهيم يزدي، ووردت صورة عنه في الصفحة 132:

الأحد الحادي والعشرون من يناير عام 1979 ميلاديًا، الموافق للثاني والعشرين من شهر صفر المظفَّر لعام 1399 هجري قمري-باريس.

لقد كان قبولي منصب رئيس مجلس الوصاية على العرش فقط في سبيل حفظ مصالح الدولة وإيجاد الأمن والاستقرار المحتمَل فيها، لكن المجلس لم ينعقد بسبب سفري إلى باريس للحصول على الهدف الأساسي، وفي هذه المُدَّة تَغيَّرَت أوضاع إيران بسرعة، بحيث أصبح من الأولى أن أستقيل احترامًا للرأي العامّ، وقد فعلت. أطلب من الله والأجداد الطاهرين وأرواح أولياء الإسلام المقدَّسة أن يحفظوا إيران وشعب إيران من أي أذًى في ظلّ رعاية حضرة إمام العصر عجَّل الله تعالى فرجه، وأن يحفظوا لنا استقلال وطننا العزيز.

محمد الحسيني سيد جلال الدين تهراني.

(4) المرجع السابق، ص134.

كان سيد جلال الدِّين تهراني سياسيًّا منسيًّا، لذا جرى اسمه على الألسنة من جديد لفترة قصيرة. لم يعُد ثانيةً إلى إيران، بقي في باريس ومات فيها[1].

***

كان سنجابي وتهراني شخصيتين سياسيّتين ولهما وضع خاصّ، وبقراءتنا للمذكِّرات المختلفة التي نُشرت حتى الآن، فقد سُرِّبَ في المقالات والصحف أسماء كثير ممَّن ذهبوا وقابلوا الخُمَيني، بعضهم كان "مفكِّرين" مشهورين، سنشير إليهم في فصل لاحق.

كان بعضهم يتردَّد سرًّا، وكانوا مهتمِّين ببرنامج آية الله السياسيّ، وكانوا يقدِّمون المساعدة للمقرَّبين منه، نعرف أسماء بعضهم:

كان محمد حسنين هيكل، الصديق المقرّب ومستشار ووزير القائد المصري المتوفَّى جمال عبد الناصر، واحدًا منهم، في الحقيقة كان مبعوث وواسطة الأحزاب اليسارية في العالَم العربيّ[2]، وبعد أن وصل آية الله إلى السُّلْطة في طَهْرَانَ، لعب هيكل دورًا مُهِمًّا في العَلَاقات الدوليَّة للحُكُومة الإسلاميَّة، ومنها أحداث رهائن السِّفَارة الأمْرِيكِيَّة.

بمجرَّد استقراره في نوفل لوشاتو، كان لآية الله الخُمَيني لقاء مطوَّل مع الرائد صلاح الدين، المبعوث الخاصّ للعقيد القذافي، ديكتاتور ليبيا، وكانت له مفاوضات مطوَّلة مع فاروق القدومي رئيس العَلَاقات الدوليَّة لمنظَّمة التحرير الفلسطينية (P.L.O)، ووُقِّعَت اتِّفاقية لتبادل المراسلات بين آية الله وتلك المنظَّمة. كان إبراهيم يزدي وصادق قطب زاده هما المترجمَين والواسطة في تلك المفاوضات والاتِّفاقيَّات.

تَوَلَّى كلّ من الجبهة الديمقراطيَّة الشَّعْبيَّة لتحرير فلسطين (E.D.P.L.P)

---

(1) ذكروا في الصحف آنذاك أنّ شخصين فقط شاركا في تشييع جنازته. (المترجم).

(2) يبدو أن لقاء الخُمينيّ مع حسنين هيكل استمرّ عدة ساعات، وكان إبراهيم المترجم بينهما، وقد أشار هيكل في كتابه إلى هذا اللقاء.

بزعامة نايف حواتمة. والجبهة الشَّعْبيَّة لتحرير فلسطين (E.P.L.P) بزعامة جورج حبش، جزءًا من الأعمال التنظيمية وإدارة النشاطات الفَنِيَّة (تجهيز الأشرطة، وإرسالها إلى طَهْرَان، والاتصالات، والحراسة)، كما هُرِعَ محسن إبراهيم، زعيم الحزب الشيوعيّ اللبناني، إلى لقاء الخُمَيني، وتَوَلّى إدارة العَلاقات بين آية الله وزمرته والأحزاب الشيوعيَّة في العالَم العربيّ.

لم يكُن المحيطون بالخُمَيني والقائمون على الشؤون الدعائية والسِّياسِيَّة يرغبون أن يُشاهَد أي من زعماء أو مبعوثي الأحزاب الشيوعيَّة في نوفل لوشاتو، فيُتّهم آية الله بقربه أو تناغمه مع موسكو. أدَّى محسن إبراهيم مَهَمَّته على أكمل وجه.

في صيف عام 1978 أعلن ياسر عرفات دعم الفصائل الفلسطينية اللا محدود لنهضة آية الله الخُمَيني السِّياسِيَّة[1]، وقال لاحقًا: "لولا مساعدتنا ربما كان الخُمَيني لا يزال في المنفى"[2]. كان تصريحًا ينمّ عن الغرور والمبالغة، لكنّه كان معبّرًا.

كان الأمْرِيكِيُّون أكثر حذرًا بقليل، ولكن ليس كثيرًا: عمليًّا كان بعض عملائهم هم من "يُدِير" الخُمَيني، كان "سي آي إيه"، كما ذكرنا، قد استأجر مُسبَقًا البيت المجاور لمكان إقامة "الإمام"[3]، ومن هناك كانوا يستطيعون مراقبة جميع تحرّكاته ونشاطاته بسهولة، وربما كانوا يستمعون إلى جميع مكالماته الهاتفية وحواراته ويسجّلونها.

التقى رمزي كلارك[4]، وزير العدل الأمْرِيكِيّ الأسبق والشخصيَّة البارزة في الحزب الديمقراطيّ، الخُمَيني مرتين على الأقلّ.

---

(1) انظر الرسائل بتاريخ 21 أغسطس و27 سبتمبر 1978.

(2) حواره مع صحيفة كيهان (طباعة لندن) أبريل 1985.

(3) بعد أربع سنوات، قَبِلَ إبراهيم يزدي رسميًّا بهذا الأمر الذي كان قد أُشِيّر إليه في الصحف الغربية. انظر النّصّ المذكور سابقًا، صص174، 175.

(4) Ramsey Clark.

في باريس. بالإضافة إلى المبعوثين المتعددين الذي كانوا يأتون من واشنطن، وكذلك أصحاب المناصب في وكالات المخابرات المختلفة الذين كانوا يأتون ويذهبون بسرّية تامة كما ينبغي، فقد كان آرثر هارتمان[1]، سفير أمريكا، يرسل وولتر زيمرمان[2]، أحد مستشاريه المقرّبين والوزير المفوَّض والمُلحق السياسيّ في السِّفَارة، لملاقاة الخُمَيني بشكل دائم، فكان يذهب هناك وهو يركب سيارة قديمة وعاديَّة من نوع "بيجو"، لا تحمل اللوحة الدبلوماسية، وكان ينقل الرسائل بين واشنطن وآية الله[3]. حتى إنه طُلب من فاليري جيسكار ديستان، الرئيس الفرنسي، أن يكون هو الواسطة في عمَليَّة تبادل هذه الرسائل. كان الوسيط هذه المَرَّة في نقل الرسائل شخصًا يُدعَى لوكُنت، لم يُذكر منصبه[4]. يبدو أنّ محتوى رسائل كارتر كان طلب عدم المبالغة من آية الله في معارضة شابور بختيار، رئيس الوزراء المعيَّن من الشَّاه، ليتمكّن في جوّ من الهدوء النِّسبِيّ من إتمام عمَليَّة نقل السُّلْطة[5].

جاء ردّ يزدي (أو الخُمَيني) بالرفض. كان آية الله، الذي استقبل مَرَّاتٍ عِدَّةً المبعوثين الفرنسيّين الرَّسْميّين، يستغلّ الفرصة لإظهار امتنانه وشكره للرعاية التي يقدِّمها الرئيس الفرنسي لنشاطاته[6].

كان هاجس الخُمَيني وقلقه الأساسيّ هو تَدَخُّل الجيش الإيرانيّ، وطلب من الرئيس الأمْرِيكِيّ أن يَحُول دون مثل هذا التدخُّل لكي يتسنى له السيطرة على الأمور، وقُبِل طلبه. يمكن القول إن السُّلُطات الفرنسيَّة بلا شكَ لم تؤيّد حركة آية الله الخُمَيني السِّياسِيَّة فقط، بل شاركت في إدارتها وتنظيمها أيضًا، وعلى الأقل لم تُبدِ أيّ معارضة عمليَّة لهذه السِّياسة في المحافل السِّياسِيَّة

(1) Arthur Hartman.

(2) Walter Zimmerman.

(3) من حوار فنسنت نوزي مع هارتمان، ورد النّصّ الكامل في كتاب نوزي، ص448.

(4) Vincent Nouzille, op. cit, Pp. 449-450.

(5) يختلف نصّ ردّ الخُمينيّ المذكور في الوثائق الرسمية الأمريكيَّة والفرنسيَّة، الذي ورد أيضًا في كتاب فنسنت نوزي (المرجع نفسه) عن ترجمته الفارسية في مذكَّرات إبراهيم يزدي (ص98-90).

(6) المرجع السابق.

الرَّسْميَّة الفرنسيَّة، ولو بشكل ظاهري، ولو كان ذلك حدث بالفعل لَمَا لقي اهتمامًا من أحد. وجَّه ديديه جوليا[1]، أحد أعضاء مَجلِس النُّوَّاب الفرنسي وأحد المقرَّبين من ميشيل دوبريه[2] رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق، سؤالاً رسميًّا في صحن المَجلِس إلى الحُكُومة بهذا الخصوص، وأبدى شكّه في مدى تطابُق طبيعة التصرُّف مع الخُمَيني والحماية التي كان يتمتَّع بها مع أُسُس ومبادئ القوانين الدوليَّة، لكنه لم يسمع جوابًا.

في هذه الأثناء وبهذه المناسبة كتب صحفيّ مشهور: "فرنسا منهمكة باحتذاء السِّياسة الأمْرِيكِيَّة، وتتوهم أنها تلعب دورًا، لكننا سنأسف لجدول الدماء الذي سيجري في طَهْرَانَ"[3]، وهذه كانت من التغريدات النادرة خارج سرب السِّياسة العامَّة والفضاء السياسيّ آنذاك، لكنّها تَحقَّقَت.

***

ما إن استقرّ آية الله رُوح الله الموسوي الخُمَيني في نوفل لوشاتو، وقبل أن يرتقي إلى منزلة الإمامة، تَحوَّل قسم كبير من وسائل الإعلام الغربيَّة إلى أدوات دعائية للثَّوْرة في إيرانَ ونشر الإسلام العنيف المتطرِّف، وكان لبعض الصحف والإذاعات والقنوات التليفزيونية الفرنسيَّة دور أهَمّ.

في البداية كان الصحفيُّون يأتون ويُجْرُون الحوارات مع آية الله الخُمَيني، كانوا يطرحون عليه الأسئلة عن طريق مترجِمِهِ ثمّ يسجّلون أو يكتبون الإجابات. وقد سُمح لبعضهم أن يُحضِر معه مترجِمَه الخاصّ. كان اثنان أو ثلاثة منهم على معرفة باللغة الفارسيَّة، الأمر الذي ربما لم يكُن المحيطون بالخُمَيني على علم به، مِمَّا يتنافى مع أصول أخذ الحيطة والحَذَر.

وُقِفَت هذه الطريقة بسرعة، واتُّخِذَت إجراءات جديدة للحيلولة دون أي خلل في أثناء إجراء الحوارات، "في الأشهر الثلاثة التي كان الخُمَيني مشغولًا

---

(1) Didier Julia.

(2) Michel Debre'.

(3) Danie'le Martin, Monde et Vie, 17 noveubre 1978.

فيها بترتيبات الوصول إلى السُلْطة. أجرى حوارات سلّموه إجاباتها مُسبَقًا. كان ينتظر الضوء الأخضر من واشنطن"[1]. تَقرَّر تسليم الأسئلة لمرافقي الخُمَيني مُسبَقًا، وكانت الإجابات تُدرّس وتُرتَّب أيضًا مُسبَقًا. أبرز مهدي بازركان، الذي عُيّن لاحقًا رئيسًا للوزراء بأمر من الخُمَيني، شُكرَه وتقديره لجهود إبراهيم يزدي في هذا المجال. فقد كان يكتب الإجابات ويرتّبها بدقة وينظّم إجراء الحوارات مع "الإمام". وقد كان لأكثر هذه المقابلات تأثير إيجابيّ كبير في أفكار الرَّأي العامّ العالَمي[2].

بعد عشرين عامًا شرح إبراهيم يزدي نفسُه، في إحدى نشرات الجُمهُوريَّة الإسلاميَّة شِبْه الرَّسْميَّة، تفاصيل "الأسلوب الذي اتَّخذه لإجراء الحوارات مع الإمام". فقد كان يطلب من الصحفي كتابة وترتيب الأسئلة وتسليمها مُسبَقًا، وكان يُقال له إنه "لأن (السيد) لا يتقن أيّ لغة أجنبيَّة فلا بدّ من ترتيب الأسئلة وعرضها عليه أوّلًا، ثمّ يجب أن نترجم إجاباته، وفي النّهاية نردُّها إليك". ويضيف يزدي أنّ كلّ شيء بهذا الأسلوب كان "تحت السيطرة"، لكن سيطرة مَن؟!

حَسَب ما رواه إبراهيم يزدي، فبعد مُدَّة عندما رأى "السيد" أنّ الإجابات كلّها من نفس النمط، رأى أن لا ضرورة إلى عرض الإجابات عليه، فأصبح بعض الأسئلة يُسَلَّم، ويجيب عنها ويترجمها "المرافقون". ثمّ كان الصحفي يأتي ويجلس بجانب "السيد" وتُلتقط لهما صورة، ثمّ يغادر الغرفة حاملًا إجاباته التي جُهّزت مُسبَقًا. قدّر إبراهيم يزدي عدد المقابلات التي أُجريَت "تحت السيطرة" "خلال أيام نوفل لوشاتو المئة والاثني عشر" بأربعمئة مقابلة[3].

---

(1) Domomique Lorentz, op, cit, P. 174.

(2) مهدي بازركان، انقلاب إيران در دو حركت، الطبعة الثالثة، طهران، 1983، ص50.

(3) مجلة إيران فردا، عدد خاصّ بمناسبة الذكرى العشرين للثورة الإسلاميّة، فبراير-مارس 1999، التوضيحات الواردة في النَّصّ خلاصة لمقال إبراهيم يزدي الطويل المثير للاهتمام، نشر بعض قادة الثّورة أيضًا مقالات مطوّلة في هذا العدد حول دورهم في هذه الحادثة.

شاركت وزارة الخارجيَّة الأمْرِيكِيَّة في تنظيم هذه المقابلات على الأقل مرَّة واحدة وبشكل مباشر:

"في أواسط ديسمبر اتصل هنري برشت[1]، رئيس إدارة الشؤون الإيرانيَّة في وزارة الخارجيَّة الأمْرِيكِيَّة، بمكتب صحيفة (نيويورك تايمز) في واشنطن، وطلب مُلِحًّا أن يشارك مراسل الصحيفة في تغطية مقابلته مع الخُمَيني التي ستُجرَى في اليوم التالي في باريس، وأضاف برشت أنّ الخُمَيني سيتحدث بإيجابية حول الولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة"[2].

يمكن تخمين الشخص أو الأشخاص الذين -كما يقول إبراهيم يزدي- "كانوا يسيطرون" على المقابلات مع آية الله.

في الحقيقة كانت مقابلات آية الله جاهزة، مصطنَعة، ونوعًا من الاحتيال لخداع الرَّأي العامّ: كان يقص عليهم ما كانوا يريدون سماعه:

"نحن أنصار نظام الحريَّة المُطلَقة، نظام إيران القادم سيكون نظامًا حُرًّا"[3]، "ستُحترم جميع الحقوق الإنسانيَّة، كما ستُحترم حقوق الأقلّيّات الدِّينِيَّة بشكل كامل"[4]، "لن يكون لي في إيرانَ المستقبَل أيّ منصب سوى القيادة الروحية للشَّعب"[5]، "دولتنا ستبقى على الحياد الكامل في ما يخصّ النِّزَاع العربيّ-الإسرائيليّ"[6]، "ستكون الحُكُومة الإسلاميَّة حُكُومة ديمقراطيَّة بما تحمله الكلمة من معنى"[7]، "سنحلّ (السافاك)، ولجميع الجماعات

---

(1) Henry Precht.

(2) William Leeden et William Lewis, De'bacle... op, cit, P.219.

(3) Le Figaro, 15 Octobre 1978.

(4) Te'le'vision autrichieme, 1 Nov 1978.

(5) Paris Match, 2 feviea 1979.

(6) كيهان هوايي، النشرية الخاصّة بالإيرانيين المقيمين في الخارج والتي كانت آنذاك تحت سيطرة الثوريين.

(7) Manifest te ou le discours de Paris، منقول عن كتاب أبو الحسن بني صدر «الابن الروحي» لآية الله الخُمينيّ وأول رئيس للجمهورية عيّنه، L'Esperance trahie, Papyrus, Paris, 1982.

اليسارية الحقّ في إظهار معتقداتهم وممارسة النشاطات السِّياسِيَّة بحرِّيَة"[1]، "لا يجب شتم المساجين والمُدانين وصفعهم"[2]، "المرأة مساوية للرجل في الجوانب السِّياسِيَّة والاجتماعيَّة. ولها الحق في المشاركة، وفي ما يخصّ تشكيل الحُكُومة فللمرأة الحقّ مثل الرجل في التصويت والترشُّح، وهم متساوون بشكل كامل"[3].

يجب القول إنه لم يسبق في التَّارِيخ أن تَجيَّشَ أغلب وسائل الإعلام في العالَم الغربيّ لإيصال شخص إلى السُّلْطة، يقيم في عاصمة دولة عُظْمَى، وثار على حكومته الشرعيَّة التي تُعَدّ حليفًا و"صديقًا" لهذه الدُّوَل الغربيَّة.

كانت جميع الجماعات اليسارية الإيرانيَّة تدعم آية الله الخُمَيني وحركته الإسلاميَّة المتطرِّفة، وأوَّلها حزب "توده" الذي أعلن مبايعته رَسْمِيًّا وعلنيًّا[4].

كانت الجماعات اليسارية المتطرِّفة، التي كانت تُسَيَّر وتُدعم ماليًّا من موسكو وألمانيا الشرقية، قد التحقت قبل حزب "توده" بخدمة الإسلام المتطرِّف، وكانوا يشكِّلون القُوَّة الضاربة للثوريين في الأسابيع والأشهر الأولى.

بهذا انضوت جماعات المجتمَع الإيرانيّ اليسارية جميعها تحت راية آية الله الموسوي الخُمَيني، الذي كان قد وصل إلى مرتبة "الإمامة". وهذا ما جعل كثيرًا من المحلِّلين يلاحظون، بل ويعتقدون، وجود "نوع من (التحالُف الخُمَيني) بين الشرق والغرب" من أجل إبادة إيران وإسقاط محمد رضا شاه.

---

(1) The Guardiau, 1 nov, 1978.

(2) Le Monde, 2 fevrie 1979.

(3) Reforme, 27 janvir 1979.

(4) في البداية التحق بالخُمينيّ بعض المؤسّسات شبه الشيوعية والمرتبطة عمليًا بحزب «توده»، مثل اتحادات الكتَّاب أو الأكاديميين «القومية»، ثمّ أقدم الحزب نفسه على هذا الأمر، على الرغم من أنّ بعض قياداته القديمة لم يرغب في ذلك، لكنّ الأمر كان من موسكو، وكانت طاعته واجبةً على الجميع. في السادس عشر من يناير 1979 وفي اليوم الذي غادر فيه الشاه إيران، وأدرك السوفييتيون أنّ أمره قد انتهى، ولم يعُد للمَلَكِيَّة مستقبَلٌ في إيران، عُيِّن أمين عامّ جديد لحزب «توده» هو الدكتور نور الدين كيانوري، القادم من عائلة دينية معروفة. في تلك الآونة بدأ حزب «توده» التعاون مع نظام الخُمينيّ والجمهورية الإسلامية بتطرُّف وحماسة زائدة.

كان يمكن للشّاه أن يقاوم، وأن ينجح في ذلك، ويبدو أنّ كثيرًا من الإيرانيّين وقادة الجيش وكذلك أنور السادات، الرئيس المصري، والملك حسين ملك المَمْلَكَة الأردنية الهاشمية، والملك حسن ملك المغرب، وحُكُومة الصّين، كانوا قد اقترحوا عليه ذلك، لكن الشّاه لم يفعل، وكان ذلك أكبر الأخطاء السِّياسِيَّة التي ارتكبها في حياته والأسوأ عاقبةً، والذي لن يغفره التَّارِيخ، مع وجود احتمالية لـ"ظروف مخفَّفة للجرم"، لكنّه قَبِلَ بذلك، ولم يبرِّر ما فعله.

ولهذا قصة أُخرى.

***

لم يكُن من السَّهل إدارة ذلك التنظيم الكبير الذي اجتمع في نوفل لوشاتو وفي باريس حول آية الله الخُمَيني، وكان يمارس نشاطه، بخاصَّة أنه كان يحتاج إلى قدرات ماليَّة كبيرة، بالإضافة إلى ذلك كانت الحركة التي بدأت في إيرانَ مكلِّفة.

في فرنسا كان قد اجتمع ما يقارب خمسمئة شخص حول آية الله الخُمَيني، وكانوا نشطين، كان بعضهم يؤدِّي عمله متطوعًا دون أجر، وأحيانًا كانوا يخصِّصون لهم غرفة أو مكانًا للإقامة، لكنّهم كانوا قِلَّة.

بالإضافة إلى "المتطوعين"، كان يجب استضافة جموع "الحُرَّاس" و"المستشارين" و"المدعوِّين" والأشخاص الذين كانوا يأتون من كلّ مكان لمقابلة الخُمَيني، وكانوا يمكثون بضعة أيام وأشهُرًا، أو على الأقلّ كان يجب دفع تكاليف سفرهم وإقامتهم.

كانت مصاريف "بيت الإمام" اليومية بجميع متطلباته مكلِّفة، وكذلك مصاريف مرافقيه ومستشاريه اللُّحُوحين، فقد كانوا يطلبون وسيلة للتنقُّل مع سائق، وكانوا يتردَّدون على المطاعم الفاخرة. ولم تكُن تكاليف استقبالهم واستضافتهم السخيَّة للصحفيين والمراسلين والشخصيَّات السِّياسِيَّة قليلة.

وحسب بعض الأقوال، كان لا بدّ من دفع تكاليف حياة الليل لبعض أصدقاء الإمام، "سواء كانوا من رجال الدِّين أو من غيرهم"[1]، التي كانت بالطبع مكلِّفة.

إن مجموع هذه الأرقام والتكاليف خارج إيران، بخاصَّة في فرنسا، يصل إلى بضعة ملايين من الفرنكات أو الدولارات.

مَن أو ما الجهة التي كانت تؤمِّن هذه الأموال؟

العجيب أنّ هذا السؤال لم يطرحه أي شخص أو أيّ سلطة، أو إنهم لم يجرؤوا على طرحه، مع أنه موضوع ومسألة مهمَّة في فهم ماهية الحركة السِّياسِيَّة التي كان الخُمَيني حاملًا لواءَها، وفي نهاية الأمر سُمّيت بالثَّورة الإسلاميَّة.

المعلومات التي بين أيدينا اليوم، وبعض الدراسات الموثَّقة الأخيرة، جعلت الإجابة عن هذا السؤال أمرًا مُمكِنًا.

***

"يجب تحليل سياسة أمريكا في تحويلها إيران[2] إلى نظامٍ شيطاني من زاوية تاريخيَّة... ألم تكُن واشنطن هي أساس الثَّورة الإسلاميَّة في إيران؟ كان اتِّحاد الطلبة الإيرانيِّين[3] القويّ هو أوّل من نفّذ مظاهرات جدِّيَّة ضِدّ النِّظَام الإيرانيّ، كان هذا الاتِّحاد يُدعَم بسخاء تامّ وتُؤَمَّن مصاريفه الكبيرة من مصادر أمْرِيكِيَّة"، وصف هذا الأمر عام 1999 كاتب ذو مكانة مثل ريتشارد لابيفيير[4]، وقد ذكر في كتابه أسس ومصادر هذا الوصف بوضوح.

---

(1) انظر كتابات سيد جعفر شريف زاده، التي لابدّ من أخذ الحيطة والحذر حيالها.

(2) المقصود هو النِّظَام المَلَكِي وحكومة ما قبل الثَّوْرة الإسلاميَّة. (المترجم).

(3) تلاشى «اتحاد الطلبة الإيرانيين» بعد الثَّوْرة الإسلاميَّة، أو بعبارة أخرى اختفى، كان قادته -على ما يبدو- يميلون إلى اليساريين، لكنهم كانوا يُلهَمون من مكان آخر، أو حسب تعبير بعض المحلّلين الغربيين كانوا ناشطين في خدمة «التحالف الضمني بين الشرق والغرب»، كثير منهم التحق بخدمة النِّظَام الإسلامي ووصل إلى مناصب عُلْيَا، وبعضهم تعاون مع النِّظَام لِمُدَّة ثمّ اختار الانفصال، وبعضهم لم تكُن له نشاطات سياسيَّة من الأساس، واختار المشهورون منهم الإقامة في أمريكا.

(4) Richard Labe'viere, Les dollars de la terreur,op, cit, P. 232.

لكن في الأشهر القليلة التي سبقت الثَّورة، كانت لمسألة التكاليف الضروريَّة أبعاد أُخرَى:

في طَهْرَان وبعض المدن الإيرانيَّة، كان بعض تجار السُّوق يساعد، مختارًا، في تغطية جانب من تكاليف التمرُّد والمتمرِّدين، وكان جزء من السُّوق يُعتبر من أوّل مصادر تأمين الاحتياجات الماليَّة للحركة الإسلاميَّة المتطرّفة ولحامل رايتها آية الله الخُمَيني، كان ما أُخذ من التُّجَّار لا يتجاوز ثلاثين ألف دولار، أي ما يعادل مئتي ألف تومان في عام 1978، لم تكُن هذه الأموال بالشيء القليل، لكنها لم تُلَبِّ احتياجات حركة 1978 حتى في إيران. في الأشهر الأخيرة قبل سقوط النِّظَام، نوفمبر وديسمبر من عام 1978 حتى يناير وأوائل فبراير من عام 1979، قدّم بعض التُّجَّار وأصحاب الصناعات الذين كانوا على علاقة علنيَّة بالبلاط، مبالغَ طائلة للثوريين، وذلك ليؤمِّنُوا أنفسهم في حال تغيير النّظام. كانت هذه المساعدات تزداد بازدياد إظهار الحُكُومة ضَعْفَها، وبالتدريج اتخذت هذه المساعدات شكل "ضرائب ثوريَّة"، طالب عملاءُ الخُمَيني، أو اليساريُّون المتطرّفون، بعضَ "أغنياء" القطاع الخاصّ بدفع مبالغ طائلة من خلال التهديد والضغط عليهم، على الأقل دفع أربعة منهم مبلغ ثلاثين مليون تومان، كل على حدة، لـ"صندوق الثَّورة"، وبالطبع لم يحمهم ذلك من القسوة المتزايدة بعد اعتلاء الخُمَيني السُّلْطة.

كان يدير هذه العمَليَّة أحد تجار السُّوق غير المعروفين في الوسط السياسيّ في طَهْرَانَ، وكان معروفًا بـ"الحاج روغني"، وكان يراقب جميع عمليات تسلُّم ودفع الأموال[1]، وكان هو من يدفع تكاليف المظاهرات، ويؤمّن تذاكر السَّفَر لمئات الأشخاص الذين كانوا يسافرون لمقابلة الخُمَيني، وكان يؤمّنهم كذلك بالمصروف وتكاليف السفر. تقريبًا لم يكُن أحد يراه أو يعرفه، وكان وسطاؤه هم من ينفّذون الأعمال. كانت تكلفة كلّ مظاهرة حاشدة في طَهْرَانَ آنذاك ما

(1) أتقدم بالشكر الجزيل لأحد الأشخاص ممن أسهموا في تلك الأحداث، وهو الآن مقيم في إيران، على ما زوّدني به من معلومات دقيقة، وما جاء في هذه السطور هو خلاصة لتلك المعلومات التي زوّدني بها.

يقارب خمسين مليون تومان، وكانت تشمل: نقل الجموع من أرجاء الدَّولة المختلفة وحتى من الأحياء داخل المدينة إلى نقطة انطلاق الحشود، وتجهيز الشّعارات واللافتات الكبيرة، ودفع أجور المحرّضين وقادة المظاهرات، وتجهيز وتوزيع الطعام الساخن على التقاطعات حتى لا يجوع مئات الآلاف من المتظاهرين ويصيبهم الإعياء، وغير ذلك من التكاليف.

يبدو أنّ الحاج روغني كان رجلًا مؤمنًا وصادقًا، ولم يُسِئ استغلال الأموال، كان يعمل من أجل ما يعتقد به، لكنّ كثيرًا من وسطائه سرقوا أموالًا طائلة، وربما كان أمرًا لا يمكن تَجنُّبه في مثل تلك الظروف.

كانت مؤسَّسات الدَّولة الأمنيَّة على علم بنشاط روغني وشبكته، كان كثيرٌ منهم يُعتبر من مصادر المعلومات أو أصحاب النُّفُوذ في "السافاك"، لكنّ الحُكُومة، التي كان بإمكانها أن تمنع ذلك لم تُبدِ ردَّ فعل، وفي الأساس لم تكُن بصدد الدِّفاع عن كيانها.

مع هذا، لم تكُن هذه الأموال المكرَّسة لتأمين "تكاليف الثَّورة" كافيةً، وحسب شهادة أحد أصحاب المناصب العالية في "سي آي إيه"، الذي كان مسؤولًا عن هذا المشروع في زمن كارتر، فقد خصّص الأمْرِيكِيُّون مئةً وخمسين مليون دولار لـ"مشروع الخُمَيني في فرنسا"، وهو مبلغ خُصِّص ليشمل جميع التكاليف، بما في ذلك تكاليف سفر آية الله بالطائرة إلى طَهْرَان، أحدث هذا الأمر مشكلة في الدقيقة الأخيرة، وقد أشار صاحب المنصب المذكور إلى أنّ جيمي كارتر كان يعتقد أن الخُمَيني "رجل دين حقيقيّ ومقدَّس"[1].

حَسَبَ ما لدينا من معلومات[2]، فقد خُصِّص جزء كبير من الدولارات التي حُوِّلَت من باريس إلى طَهْرَان لتأمين تكاليف الأيام الأولى من إقامة آية

---

(1) شهادة أحد مسؤولي «سي آي إيه» أمام Mike Evans التي وردت في كتابه، مرجع سابق ص14. على الرّغم من ردود الفعل الواسعة التي أحدثها انتشار هذا الكتاب في أمريكا، وما فعلته الصحف والقنوات التليفزيونية من بحث حوله، حسبما نعلم، لم تكذّب الجهات الرسمية الأمريكيّة محتوى وثائقه.

(2) انظر هامش1 ص174.

الله في طَهْرَانَ. أو على الأقلّ كان هذا هو المبرّر الرّسمي.

أما الطائرة التي حملت الخُمَيني إلى طَهْرَان فإنه "بمساعدة من وزارة الخارجيَّة الفرنسيَّة، وضعت شركة الخطوط الفرنسيَّة طائرة تحت تصرُّف الخُمَيني، وهي التي أقلّته بكلّ فخر إلى طَهْرَان في الأول من فبراير عام 1979"[1].

وكما رأينا، كانت الدولارات المئة والخمسون مليونًا المخصَّصة لـ"المشروع الفرنسي" يجب أن تشتمل أيضًا، في نظر الأمْرِيكِيّين، على تكاليف نقل الخُمَيني إلى طَهْرَان، هذا الانتقال الذي كان نقطة نهاية البرنامج، وفي الدقيقة الأخيرة أُخبِرَ الأمْرِيكِيُّون بأن الأموال قد نفِدَت. كان مرافقو الخُمَيني يتوقَعون أنه بعد تَحقُّق "النصر" لن يبخل عليهم أحد بمساعدة إضافية، لكن الأمْرِيكِيّين لم يقبلوا، فأُجبِرَ صادق قطب زاده على توقيع "شيك شخصي" لدفع أجرة الطائرة، وبالطبع كان شيكه بلا رصيد.

كانت الطائرة المستأجَرة من نوع "بوينغ 747"، وكان مِن المقرَّر أن تحمل "الإمام" وعائلته ومستشاريه والمقرَّبين منه ونحو مئتي صحفي ومراسل ومصوّر إلى طَهْرَان. في الليلة التي سبقت السَّفَر إلى طَهْرَان، وفي الحديقة المجاورة لمقرّ إقامة آية الله، وعلى ضوء مصباح يدويّ، بدأ صادق قطب زاده يبيع تذاكر السّفر "بالمزاد" لمن يرغب، وكان يضع الأموال في حقيبة بلاستيكية يحملها في يده. كانت الأَوْلويَّة لمن يدفع مبلغًا أكبر. ووُضّح للراغبين أن حيازة أموال نقدية أمرٌ ضروريٌّ لمثل هذا السَّفر[2].

في المَرَّة الأولى خُصِّص مبلغ لأجرة الطائرة من الأموال التي دفعها الأمْرِيكِيُّون، وفي المَرَّة الثَّانية "دُفعت" أجرة الطائرة بشيك دون رصيد، وفي المَرَّة الثالثة دفع الأجرة "نقدًا" الصحفيُّون من دول العالَم بجوار "بيت الإمام"، لكنّ هذه الأموال لم تُدفع أبدًا لشركة الطيران الفرنسي، وبدأت

---

(1) Vincent Nouzille, op. cit. P. 452.

(2) وردت شهادة Gerard Beaufils (صحفي وكاتب فرنسي كان من بين المسافرين) في Tous otages de Khomeyni، ص54، مرجع سابق.

الشركة تطالب بها لاحقًا. عرضت الصحف الفرنسيَّة الموضوع بالتفصيل، ويبدو أنّ شركة تأمين "كوفاس"[1] الحُكُوميَّة هي من دفع المبلغ من أموال الحُكُومة الفرنسيَّة، أي في جميع الأحوال من جيوب دافعي الضرائب الفرنسيين!

***

"لماذا أدانت الحُكُومة الأمْرِيكِيَّة آنذاك، بسبب رغبتها الحمقاء القائمة على تغيير النِّظَام في إيران، أقوى وأفضل حليف لها في منطقة حسَّاسة ومتشنّجة من العالَم؟". يجيب الكونت ألكساندر دو مارانش عن هذا السؤال بعد أن طرحه: "يجب البحث عن الجواب في خليط من قصر النظر والجهل والسّذاجة التَّارِيخيَّة"[2].

"كان الأمْرِيكِيُّون قد اتَّخذ قرارهم بالإطاحة بالشَّاه منذ عام 1974/1975 لأسباب تتعلق بالنِّفْط. في نوفل لوشاتو كان (سي آي إيه) قد استقرّ في المنزل المجاور للمكان الذي كانت تُسَجَّل فيه أشرطة الخُمَيني الحماسيَّة، وكانوا يرسلون هذه الأشرطة بالحقيبة الدبلوماسية إلى طَهْرَان. حادثة نوفل لوشاتو ليست صفحة مُشَرِّفة في التَّارِيخ الفرنسي: لا يمكن فهم تصرف فاليري جيسكار ديستان الذي أبدى كلّ ذلك الاهتمام وقدّم كلّ تلك الإمكانيَّات ووضعها بين يدَي نبيٍّ كاذب.

---

(1) Coface التي تؤمِّن وتضمن البضائع المصدّرة من فرنسا. (المترجم).

(2) Dans les secrets de princes, op. cit. P. 256.

لم تكُن إيران التي كان يحكمها محمد رضا البهلوي تخلو من العيوب ونقاط الضعف، لكنها كانت دولة في حالة تحديث ونُمُوّ. هل كان صحيحًا أن يُستبدل به نظام متخلف ينتهج العصبيات الدموية؟ لقد بدأ صعود الإسلام المتطرِّف من هنا"[1].

كان موريس دريون هو من كتب هذه السطور.

---

(1) Maurice Druon, La Figaro, 12 novembre 2004.

الفصل الثَّامن

معبود اليساريين والسُّذَّج

بعد ظهور آية الله الموسوي الخُمَيني على المسرح، ووضعه على طريق الوصول إلى السُّلْطة، وحتى قبل أن يصل إلى مرتبة "الإمامة" في فرنسا، وقبل أن يُستخدمَ هذا اللقب المصطنَع تقريبًا في كلّ مكان، ويكتسب بُعدًا رَسْمِيًّا في إيران، انضمّ كثير من "مفكِّري" الغرب، بخاصَّة فرنسا والولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة، إلى قافلة مادحي الخُمَيني بلا قيود، خصوصًا اليساريين الفرنسيين الذين صنعوا منه صنمًا. وفي فرنسا شُكّل عدد من "لجان الدعم" لآية الله، تَوَلَّى رئاستها جان بول سارتر[1] والسيدة سيمون دي بوفوار[2] وميشيل فوكو[3].

أجرى ميشيل فوكو زيارتين لإيران لإظهار دعمه للخُمَيني وللحركة الإسلاميَّة المتطرّفة، الأولى في سبتمبر 1978، والثَّانية في نوفمبر من نفس العام، عندها كان الخُمَيني قد استقرَ في نوفل لوشاتو، كما ذهب للقاء الخُمَيني وكتب مقالات في

(1) Jean Paul Sartre: (1905-1980) الفيلسوف والكاتب وكاتب المسرحية الفرنسي وأحد مؤسِّسي مذهب «الوجودية» الفلسفي، كان لفترةٍ عضوًا في الحزب الشيوعي الفرنسي، ثمّ اعتزله، لكنه كان يدافع عن مواقف اليساريين المتطرّفين، ومنهم إرهابِيُّو ألمانيا الماركسيُّون، وكان أيضًا من مؤسِّسي صحيفة Liberation، كان ولا يزال له معجَبون ومنتقدين كُثر. (المترجم).

(2) Simone de Beauvoir: فيلسوفة وكاتبة فرنسية، كانت لفترة شريكة حياة سارتر، ثُمّ رفيقته وزميلته إلى آخر العمر. (المترجم).

(3) Michel Foucault: (1926-1984) فيلسوف فرنسي بتوجُّهات يسارية متطرّفة، وأستاذ الكلية الشهيرة College de FRANCE، ومؤلّف كتب متنوعة حول السجون، منها Historie de la sexualité (ثلاثة أجزاء)، ذمّ كثيرٌ من زملائه -ولا يزالون- دفاعه عن الإسلام المتطرّف وعن آية الله الخُمينيّ. (المترجم).

مدحه، نشرها في الصحف الأوروبية المهمَّة[1]، وكان يتصرَّف بطريقة تُوحِي بأنه من المتخصصين في الإسلام، بخاصَّة التشيُّع[2]!

كان لفوكو تأثير كبير بين مفكِّري فرنسا اليساريين[3]. كان عنوان المقال الذي نشره في أسبوعية "لو نوفل أوبسرفاتور" الباريسية معبِّرًا: "إيران: كيف يمكن إضفاء صبغة دينيَّة على حركة سياسيَّة؟"، ولاقت دراسته حول التشيُّع آنذاك تأييد جميع أعضاء هيئة تحرير هذه الأسبوعية اليسارية الرصينة التي كان لها نفوذ وتأثير واضح على مفكِّري هذا التيَّار[4]، وما زالت تحتفظ به تقريبًا.

في هذه الأسبوعية جرى الحديث عن "العاصفة الأسطورية التي هزّت إيران" وعن "حرب داوود مع جالوت"[5]، وعن "الدرويش صاحب الوجنتين الذابلتين والعينين الحزينتين، الرجل المقدَّس، وفي الوقت نفسه القويّ ولكن المعرّض للخطر"، وعن "السلطان الظالم في مقابل الرجل الأعزل"[6]. وفي ردّها على الذين أبدوا تعجُّبهم من تأييد أسبوعية يسارية للإسلام المتطرّف كتبت: "الخُمَيني رجعيّ؟! إذًا كيف يمكن تبرير تأييد جميع مفكِّري وجموع الشَّعْب له؟"[7].

وأخذ ميشل فوكو، الذي لم يعُد لحماسه حدود، يعرِّف بالمذهب الشِّيعِيّ: "مذهب لا يحتوي على أي تسلسل في الرُّتَب، مذهب يؤيِّد الشَّعْب".

---

(1) من ضمنها: صُحُف Le Monde وLe Nouvel Observateur وCorriera della Sera.

(2) «أتذكر جيدًا مقالة لفوكو في Le Nouvel Observateur تُظهر بشكل كامل قِصرَ النظر الذي يتّصف به جزء كبير من اليساريين. الخُمينيّ، الذي كان بالطبع أستاذًا في جذب العوامّ، هو أيضًا نموذج متكامل للشَّرّ والخبث بما تحمله الكلمتان من معنًى، ويجب وضعه في مصافّ هتلر وستالين وبول بوت». هذه السطور منقولة عن مقدِّمة عالِم الاجتماع البلجيكي المعروف Claude Javeaur لكتاب له حول الثَّورة الإيرانية.

(3) لمزيد من الاطِّلاع حول فهمه للثورة انظر: J. Afari et K. B. Anderson, Foucault and the Iranian Revolution, university of Chicago press, 2005.
باعتقاد كاتب هذه السطور أنّ فوكو كان مخدوعًا بالإسلام المتطرِّف.

(4) Le Nourel Observaten, no 727, 16-22 octobre 1978.

(5) معركة David contre Goliath الضارية المذكورة في التوراة. (المترجم).

(6) نفس الأسبوعية، العدد 723.

(7) المرجع نفسه.

لم يكُن لإعجابه بالخُمَيني وفهمه للإسلام والتشيُّع حدود، بخاصّة أنه لم يقرأ كلمة واحدة من "مؤلّفات" الخُمَيني، ولم يكُن يعلم شيئًا عن معتقداته. وعندما ظهرت مجازر الحُكُومة الإسلاميَّة، والتعذيب وسلب الحريات وتقييد حدود المرأة للعلن وتأكّدت للجميع، وتَجَرّأ على انتقاده[1] مفكِّرون بارزون مثل الباحث الإسلاميّ الحقيقيّ مكسيم رودنسون[2]، الذي كان هو أيضًا يساريًّا، كتب ميشيل فوكو: "ما المبدأ العالَمي الذي يمكننا بالاستناد إليه أن نسمح لأنفسنا بمنع المسلمين من إظهار وإبراز معتقداتهم ولا نسمح لهم بالبحث عن نجاتهم ومستقبلهم في الإسلام؟!"[3].

ومن أجل إظهار دعمها للثَّوْرة الإسلاميَّة، زارت سيمون دي بوفوار إيران، لكن جان بول سارتر اكتفى بنشر مقالات مثيرة في صحيفة "Liberation".

بعد ذلك بمدة، وعندما ظهر الوجه الحقيقيّ للثَّوْرة الإسلاميَّة، أبدت السيدة دي بوفوار تأسُّفَها، واختار جان بول سارتر السكوت، بينما اكتفى ميشيل فوكو بالتفسير الذي ذكرناه سابقًا.

لقد أظهر كثير من المفكِّرين اليساريين البارزين، تبعًا لهؤلاء "العظام"، دعمهم الأعمى للثَّوْرة الإسلاميَّة ولآية الله أو "الإمام" شخصيًّا. وهذا في زمن كان يُقال فيه في فرنسا "أن نتبع سارتر على باطل خير من أن نتبع آرون على حق"[4].

روجيه غارودي[5]، الذي كانت له زلّات كثيرة قبل وبعد هذه الأحداث، كان من مادحي آية الله الخُمَيني المسلِّمين.

---

(1) الأسبوعية نفسها، العدد 745.

(2) Maxime Rodinson.

(3) الأسـبوعية نفسـها، العـدد 753. بعـد أسـابيع عندمـا لم يعُـد بالإمـكان إنـكار حقيقـة الحكومـة الإسـلاميّة وتَوَجُّـه الخُمينـيّ، كتـب جـون دانيـال Jean Daniel مدير هـذه الأسـبوعية، الـذي كان -ولا يـزال- شـخصية بـارزة ومحترمـة بـين يسـاريي فرنسـا: «لقـدْ آلَ كلّ شيء إلى الخـراب بعـد وصولـه إلى السُّـلْطة، لقـد أضفـى الديـن عـلى النهضـة السياسـيّة بُعـدًا جنونيًـا»، العـدد 784.

لمزيـد مـن الاطِّـلاع حـول هـذا الموضـوع انظـر تحليـلًا في مجلـة Espirt بعنـوان L'Histoire Déraille، في هـذا المقـال حلّـل الكاتـب جميـع مقـالات جـون دانيـل وجـي سيتبون Guy Sitbon والسـيدة كنيزه مـراد Kenizé M ourad المنشـورة في هـذه الأسـبوعية، وقـد اسـتفدنا مـن هـذا المقـال في هـذا الكتـاب.

(4) Raymond Aron، عالِـم الاجتـماع والفيلسـوف والمحلِّـل الفرنسـي المعـروف، والعبـارة المشـار إليهـا مترجمـة، وهـي بالفرنسـية "Il vaut mieux se tromper avec Sartre qu, avoir raison avec Aron".

(5) Roge Garaudy، كان أحـد منظّـري الحـزب الشـيوعي الفرنسـي الكبـار، أشرف عـلى نـشر أعـمال

داريوش شايكان، أحد الفلاسفة الإيرانيّين، الذي تُرجِم أغلب أعماله إلى الفرنسيَّة، اعتبر الخُمَيني في مقال له من مرتبة غاندي[1].

في هذا المجال يمكن ذكر اسم "مفكِّرين وكتَّاب وصحفيين ومتخصصين في شؤون إيران"، بعضهم مشهور مثل: أوليفير روي Olivier Roy، وكريستيان جامبيه Christian Jambet، وكلير براير Clair Briee، وبيير بلانشيه Pierre Blanchet، وقد حاول بعضهم أن يغيِّر من مساره إلى حدّ ما بعد الثَّورة الإسلاميَّة[2].

أندريه فونتين، مدير صحيفة "لوموند" الباريسية الذي كان دائم الانتقاد للنِّظام المَلَكيّ في إيران، وكان لِمُدَّة طويلة يدعم آية الله الخُمَيني والثَّورة الإسلاميَّة بحماس شديد، كتب افتتاحية لهذه الصحيفة أثارت ضجَّة، وكان عنوانها "عودة المَظهَر الإلهي"، قارن فيها بين آية الله الخُمَيني والبابا جون بول الثَّاني[3]، وكتب أنّ نهضة الخُمَيني دليل على حاجة الإنسان الأساسيَّة إلى البحث عن أصله وهُوِيَّتِه، وأبدى أمله في أن يجتمع ممثّلو أديان العالَم العُظْمَى وأن يبدؤوا التفكير في حلٍّ لمستقبَل البشرية الذي عجز السياسيُّون عن إنقاذه.

تُرجم هذا المقال إلى الفارسيَّة، ولقِيَ أصداءً واسعة بين المفكِّرين.

بعد أن غادر محمد رضا شاه البهلوي إيران في السادس عشر من يناير عام 1979، ولم يعُد في سقوط الملكيَّة ووصول السُّلْطة إلى آية الله شك، نشرت

لينين الكاملة، تَقَرُّب قبل الثَّوْرة الإسلاميَّة من البلاط الـمَلَكِيّ الإيراني ومن الملِكة فرح، ثم شتمهم بوقاحة، وبعد مدة اعتنق الدين الإسلامي، ثمّ نشر في عام 1981 كتابًا بعنوان «L' Islam habite notre avenir"، ثم انضمَّ إلى مجموعة «ناكري المحرقة» الذين كانوا ينكرون «الهولوكوست» الذي حدث لليهود على يد هتلر، وتَعَرَّض مرَّات عدة للملاحقة القانونية وأُدِينَ.

(1) Nouvelles Litteraires 7-14 Octobre 1978، كانت هذه الأسبوعية تُعتبر آنذاك مرتبطة بالحزب الشيوعي الفرنسي، كان داريوش شايكان ذا مزاج متقلِّب جدًا، نشر مقالًا حول هذا الموضوع أيضًا في أسبوعية Nouvel Observatieur، نُشر كتابه الجديد بالاهتمام بعنوان «re'rvolution leligieuse "Qu e'stce gu' une» في باريس عام 1982.

(2) حول هذا الموضوع انظر: Eric Phalippou, La re'volution iranienn et l' Iranologie frauçaise، وهي دراسة مفصَّلة ودقيقة عُرِضَت على عدد من المتخصصين في مركز الدراسات للتعاون الدولي والتنمية بجامعة بروكسل (CECID) وستُنشَر عن طريق هذا المركز.

(3) Le Monde, 2 fevriei 1979.

صحيفة "لوموند" الباريسية نفسها، التي كان لها دور كبير في دعاية وانتصار الثَّورة الإسلاميَّة، وكانت المروِّج لـ"آراء وعقيدة" آية الله الخُمَيني، نشرت سيرة حياة أُخرى للخُمَيني تحتوي على معلومات كاذبة جديدة[1].

بعد بضعة أيام نشرت هذه الصحيفة مقالًا حول "الفكر السياسيّ" لآية الله الخُمَيني، كان عنوانه "التمرُّد على الحُكُومة الظالمة يجب أن يقوم على الروح المعنوية، والحُرِّيَّة، والاستقلال الوطنيّ"[2]. وليس هذا فحسب، فقد أُضيفت معلومات جديدة إلى سيرة آية الله الخُمَيني، منها أنّ جدّه، الذي هو في الحقيقة رجل من عوامّ الهنود وأمّيّ، كان قد لُقِّب بـ"الإمام"، وأن والده كان قد لُقِّب بـ"آية الله". بل خُصِّصَت شروح مفصَّلة حول الفكر السياسيّ للإمام، والنظريَّات السِّياسِيَّة والفكر الاقتصاديّ له، واقتراحاته ومشروعاته بخصوص الإصلاح الزراعي، وتحسين وضع الزراعة، والريّ، والتنوع في زراعة المحاصيل، وما شابه ذلك، وادّعوا أنّ نهضته السِّياسِيَّة ناتجة عن اعتقاده وإيمانه.

بالتزامن مع الضَّجَّة التي أثارتها الصِّحافة آنذاك، وحالة الهيمنة التي كانت تسيطر على الجوّ السياسيّ والمحيط الفكري في فرنسا، لم يجرؤ ولم يسمح أحد لنفسه أن يسأل عن وثائق ومصادر هذه المعلومات، ولو كان مثل هذا السؤال قد طُرح لَمَا لقِيَ جوابًا، وعلى أيّ حال لم يكُن أحد ليهتمّ بالإجابة عن هذا السؤال؛ كان الإعجاب بالخُمَيني والثَّورة الإسلاميَّة إجباريًّا على اليساريين والسُّذَّج.

يرى الفيلسوف البارز جاك مادول، في صحيفة لوموند نفسها[3]، أنّ "نهضة الخُمَيني صرخة صدرت من أعماق التَّاريخ"، ويعتبرها "علامة لشعب يريد أن يكسر قيود الأسر"، ويستنتج أنّه "قد يكون حماس الشَّعب الإيرانيّ بداية أفضل للعِرق البشري".

---

(1) Le Monde, 11 Janvier 1979، الحقيقة أن هذا المقال يجب أن يكون نموذجًا كاملاً للسذاجة والكذب، أو اقتراف الأخطاء في نقل المعلومات. للاطّلاع على أسلوب بعض الصحف الفرنسية في «صناعة» الخمينيّ انظر الفصل السابع عشر من كتاب Mike Evans، بعنوان The French Connection، مرجع سابق، صص234-225.

(2) Le Monde, 12 janvir 1979.

(3) Jacques Madaule, Le Monde, 13 Janvier 1979.

في نفس الصحيفة كتب فيلسوف آخر، باسم غابرييل ماتزنيف، بأسلوب متنوّر، أنّ "آية الله الخُمَيني له أفضلية كبيرة: فهو مسلم لا مسيحيّ، لو قَدِم أسقف أرثوذكسي روسي إلى فرنسا، وعزم على أن يطلق الشّعارات ضِدّ بريجنيف وأن يدعو شعبه للثَّوْرة على الحُكُومة السوفييتية، بلا تردُّد ستثور ضدّه جلبة كبيرة، ولَمَرَّغه اليساريون في الوحل، ولدَعَوه بالرّجعيّ، ولاتّخذت وزارة خارجيّتنا الإجراءات اللازمة فورًا ليُنهِي ما بدأه"، مع ذلك فقد كان ماتزنيف يعتقد أنّ "أسلوب آية الله يُعتبر من الناحية الدِّينِيَّة ضروريًّا ومُثمِرًا"[1].

يمكننا هنا نقل مقالات ونصوص أُخرَى نشرتها هذه الصحيفة التي كانت تتمتَّع بنفوذ ومكانة أكبر آنذاك.

استمرت "لوموند" في دفاعها عن ثورة الخُمَيني لمدة، فقد نشرت مقالًا مفصَّلًا بمناسبة وفاة محمد رضا البهلوي في القاهرة، يُعتبر مثالًا بارزًا للحقد وتصفية الحسابات والكذب، ويمكن إضافة هذا المقال مثالًا يُستدلّ به على ما نحن بصدده[2].

بعد خمس سنوات، وبمناسبة الذكرى السنوية لانتصار الثَّورة الإسلاميَّة، نشرت هذه الصحيفة مقالًا بنغمة شاعرية خياليَّة عهدناها، بعنوان "الأيام الاثنا عشر التي غيّرت مصير إيران"[3].

لكن بالنظر إلى الطريق والأسلوب الذي انتهجته الثَّورة الإسلاميَّة، صحّحَت "لوموند" من موقفها تدريجيًّا، لكنها لم تُبدِ أسفها ولم تعترف بأخطائها التي ارتكبتها في الماضي بخصوص تحليل القضايا إطلاقًا، وبالطبع فقد كان ذاك الأسلوب هو المتَّبَع في هذه الصحيفة، حتى في ما يخصّ كثيرًا من الموضوعات الأُخرَى.

بعد ثلاثين عامًا، وفي عدد خاصّ بمناسبة انتشار العدد الثلاثين ألفًا لهذه الصحيفة، عُرِضَت أهمّ الأحداث والأخبار التي تعاطت "لوموند" معها، من خلال

---

(1) Gabriel Matzneff, Le Monde, 13 janvier 1979.

(2) Le Monde, 29 Juillet 1980. نُشر هذا المقال بتوقيع Eric Rouleau الذي أصبح في ما بعد سفيرًا.

(3) Le Monde, 5 -6 fevrie 1985، بتوقيع Paul Balta.

ذكر العناوين وأحيانًا نقل بعض المقالات، وفي هذا العدد لم نرَ أيّ أثر للخُمَيني وللثَّوْرة الإسلاميّة.

لا بدّ أنّهم فضّلوا نسيان هذه الأحداث التي لم تكُن مصدر فخر.

***

أعلن الحزب الفرنسي الاشتراكيّ بزعامة فرانسوا ميتيران[1] في قراره له دعمَه "النهضة التي كانت تحدث آنذاك"[2]، وأقام تَجَمُّعًا لدعم الثَّورة الإسلاميّة. في الثَّاني عشر من فبراير عام 1979 أبدى المكتب التنفيذي للحزب سعادته بانتصار الثَّورة الإسلاميّة، "هذه النهضة الشَّعْبيَّة غير المسبوقة في تاريخ العالَم المعاصر"[3]، على ما يبدو أنّ فرانسوا ميتيران نفسه لم يكُن يؤمن بهذه الأوهام. لكنه كان مُجبَرًا على تَحمُّل الأفكار المهيمنة على الفضاء السياسيّ آنذاك.

***

قِلَّة هم الصحفيُّون الفرنسيون الذين لم ينجرفوا مع الجلبة الكبيرة التي أحدثها اليساريون والسُّذَّج، كانت تقارير ومقالات تييري دي جاردان[4] المبعوث الخاص لصحيفة "لو فيغارو"، وميشيل غورفينكل[5] موفد أسبوعية "فالور أكتويل"[6]، وبيير دي ويلمار[7] من نفس الأسبوعية، أكثر اعتدالًا. وكانوا ينظرون إلى نهضة الإسلام المتطرِّف بشكّ وتردُّد كبيرين.

إدوارد سابليه[8]، الذي كان ينشر مقالات في الصحيفتين المذكورتين، وكان في كلّ صباح يحلِّل المسائل الدوليَّة من إذاعة فرنسا. كان مطّلعًا على إيران،

---

(1) رئيس الجمهورية الفرنسية بعد عام 1981 لِمُدّة سبع سنوات في دورتين متتاليتين.

(2) بيان المجلس التنفيذي للحزب، 6 يناير 1979، مركز وثائق الحزب الاشتراكي.

(3) بيان المجلس التنفيذي للحزب، 14 يناير 1979، مركز وثائق الحزب الاشتراكي.

(4) Thierey Desjardins.

(5) Michel Gurfinkiel.

(6) Valeeeurs actuelles.

(7) Pierre de Villemarest.

(8) Edouard Sablier.

وكان على معرفة بالفارسيَّة، وسافر مرَّات عِدَّة إلى ذلك البلد. كان يعرف جيِّدًا رجال الدِّين ورجال السِّياسة على حدّ سواء. هو أيضًا ابتعد عن زُمْرة مادحي الخُمَيني. وكانت مقالاته أكثر واقعية.

صحفية أُخرَى اسمها دانييلا مارتن[1] توقّعت في مجلة "موندافي"، بعد تأمُّل، ما سيحدث لاحقًا في إيران. أما برسفال، الشخصيَّة الفرنسيَّة الثقافيَّة والأكاديميَ البارز، والمتخصص في إيران، فلم يكُن يستطيع أن يُبدِي رأيه علنًا بسبب مسؤولياته السِّياسِيَّة التي كان يتحملها آنذاك، وقد حلّل الأزمة في إيران في عدة مقالات متعمّقة نُشرت في إحدى المجلات، فكتب في يناير 1979 في إحدى المقالات، في الوقت الذي كان فيه آية الله لا يزال في باريس منشغلًا بالجلبة التي أحدثها:

"... الأزمة الحالية تشبه عاصفة كان يجهّز لها وينتظرها أعداء إيران منذ مُدَّة طويلة، ومن بينهم للأسف بعض حلفاء هذه الدَّولة... آية الله الخُمَيني، الضيف غير المدعُوّ والمُستغِلّ لفرنسا، سرعان ما أظهر حقيقته. الرجل الذي كان ولا يزال سببًا في قتل كثير من الأبرياء، ومِن ثَمّ يستغلّ موتهم، إنه يستغلّ تشييع الجنازات، ويتلذّذ بالحداد في بلده، يقول إنه يريد أن يقاوم الشَّاه، لكنه جلس آمنًا في باريس مسبِّبًا قتل الإيرانيِّين. ما هدفه؟ أهو إقامة حُكُومة رجال الدِّين المستبدَّة التي تتناقض مع عادات الإيرانيِّين العريقة، وقلما تجد في إيرانَ من يقف إلى جانبها؟ إن مشروع إقامة جُمهُوريَّة إسلاميَّة في إيرانَ أمر يمكن تصوُّره وتحقيقه، ألم تقُم قبل الخُمَيني أنظمة استبدادية شريرة في ألمانيا النازية والاتِّحاد السوفييتي؟ إنّ آية الله يسير على نفس الدّرب..."[2].

وفي تحليل آخر نُشر بعد شهرين، كتب هذا المحقِّق في إشارة إلى مقالة في صحيفة "لوموند" التي نشرت تقريرًا حول ثورة القرى على النِّظّام الإيرانيّ[3]:

---

(1) Danie'le Martin, Monele et Vie, 17 november 1978.

(2) Perceval, Revue Unirersselle des faits et des idee's, janvier-fevier 1979, P. 15-20.

(3) Le Monde, 2 janvia 1979.

"لقد اعتزل العُمَّال جميعًا الحركة الثوريَّة، ولم تصل أمواجها إطلاقًا إلى القرى"[1]، وأضاف: "إن المشاركين في المظاهرات هم قِلَّة من ساكني المدن، ولم يكُن سبب سقوط إيران سوى تدخُّل وضغط الأمْرِيكِيِّين"[2]. كان هذا الكلام كصرخة في مَهَبِّ الريح، فقد أثار اليساريون والسُّذَّج، بتشجيع أو على الأقل بتأييد من حُكُومات الغرب والشرق، ضَجَّةً ما كان مُمكِنًا معها سماع مثل هذه النداءات. لكن على الأقلّ استطاعت مثل هذه المواقف الواقعية والشجاعة أن تحفظ أو أن تُنقِذ كرامة ومكانة جزء من المثقَّفين الفرنسيين، وللأسف تَحقَّقَت توقُّعاتهم.

***

بضعة من "المثقَّفين" الأمْرِيكِيّين المشهورين أيضًا كانوا يسيرون مع هذه الفَوْضَى من وراء المحيط الأطلسي، كان تأثيرهم على المجتمَع الأمْرِيكِيّ ومطبوعات تلك الدَّولة أقلّ من نظرائهم الفرنسيين. في ذلك الوقت كانت قد بدأت في أمريكا نهضة شعبيَّة عميقة أوصلت رونالد ريغان لاحقًا إلى رئاسة الجُمهُوريَّة، وكان كثير من الأكاديميّين والكُتَّاب في أمريكا يعارضون مواقف المثقَّفين اليساريين، وكان لديهم الجرأة على إظهار آرائهم في العلن. ومع هذا يجب القول إن تأثير "اليساريين والسُّذَّج" في محافل شرق أمريكا لم يكُن قليلًا، بخاصَّة أنّ معتقَداتهم كانت تجد آذانًا صاغية بين المسؤولين في حُكُومة كارتر، وكانت مَحَلًّا للاهتمام.

على سبيل المثال، البروفيسور ريتشارد كوتام، أستاذ جامعة بيتسبرغ[3] المرموقة الذي يُعَدّ المستشار المؤتمَن لوزارة الخارجيَّة الأمْرِيكِيَّة والبيت الأبيض، كتب يقول في إشارة إلى "الأيديولوجية الإسلاميَّة": "ليس لآية الله الخُمَيني رغبة في التدخُّل في المسائل السِّياسِيَّة، ولا يريد أن يكون له دور في الحُكُومة"[4].

أكاديميّ آخَر هو البروفيسور ريتشارد فولك[5]، الذي كان أيضًا مَحَلّ اهتمام

---

(1) Revue Universelle ..., Mars-avril 1979.

(2) المرجع السابق، نفس العدد.

(3) Pittsburgh, Richard Cottam.

(4) انظر كتاب: Michael Ledeen et William Lewis.

(5) Richard Falk.

مسؤولي البيت الأبيض، قدّم الثَّورة الإسلاميَّة في إيرانَ على أنها "نموذج متكامل لثورة هادئة دون سفك للدماء"، واعتبرها "الحادثة الأكثر إشراقًا في تاريخ الإسلام، والمؤسِّس لحُكُومة إنسانيَّة"[1].

أكاديميّ آخر ذهب أبعد من هذا وقال: "الإمام الخُمَيني معجزة، وليس في تاريخ البشرية قائد يمكن مقارنته به، ولا أظنّ أن يظهر في المستقبَل مثل هذا القائد"[2].

لقد أصيب بعض المحلِّلين الأمْريكِيّين بأفكار جنونية مثل بعض الصحفيين والكُتَّاب والمثقَّفين الفرنسيين، فها نحن أولاء نرى البروفيسور جيمس كوكروفت، وهو أكاديميّ آخر كان مستشارًا في حُكُومة كارتر، من جامعة راتجرز[3]، يقدِّم في إحدى مقالاته "تحليلًا كاملًا" لبرنامج الخُمَيني السياسيّ والاقتصاديّ، وذكر أنّه حصل على هذه المعلومات خلال لقائه مع آية الله:

- التوزيع المجدَّد للثروة لصالح الضعفاء، وزيادة رقابة الحُكُومة على الشؤون الاقتصاديَّة.

- تنمية الصناعات الجديدة، بخاصَّة الصناعات الأساسيَّة، والابتعاد عن إقامة صناعات خفيفة ومصانع التجميع.

- تنمية واستخدام الآلات الزراعيَّة في القرى، فضلًا عن شركات الزراعة والصناعة، وتوفير الاحتياجات الأساسيَّة للمزارعين.

- توفير الحريات الإنسانيَّة الأساسيَّة، السِّياسِيَّة والدِّينِيَّة.

- تأسيس نظام ديمقراطيّ متعدد الأحزاب، يحقّ لرجال الدِّين فيه الترشُّح، لكنهم سيُمنَعون من تَقَلُّد المناصب التنفيذيَّة.

---

(1) منقول عن مقال في صحيفة New-York Times المرموقة، تُرجم هذا المقال وحُلِّلَ في كتاب «تولدي ديكر» للعلّامة شجاع الدين شفا (الذي يحتوي على 619 صفحة)، ص487.

(2) المرجع السابق، ص488.

(3) Pr. James D. Cockraft, New-York Times, 18 janvia 1979, Rutgers University.

حُلِّل مجموع هذه الكتابات والمقالات في كتاب لعالِم هندي اسمه فيلاني لام S.V. :Vilanilam

.Vilanilam, Reporting a Revollution, Sage Publication, New-Delhi, 1983

- الحُرِّيَّة المطلقة للأقلِّيَّات الدِّينِيَّة بانتخاب نُوَّاب المجالس التشريعيَّة، ماعدا البهائيين المرتبطين بالشَّاه.

فهل هذا "التحليل الشامل والكامل" هو ناتج عن تخيُّلات كاتب المقال، أم أنَّ مستشاري آية الله الخُمَيني، الذين كانوا ينظِّمون له حواراته، هم من لقَّنه ذلك؟ يبدو أنّ الحقيقة هي مزيج من هذا وذاك، وعلى أي حال فهو استغلال لجهل وسذاجة أكاديميّ أمْرِيكِيّ.

وبلغ الأمرُ أن اعتبر السيد أندرو يونغ[1]، وهو مندوب وسفير لأمريكا في الأمم المتَّحدة، أن الخُمَيني "قدّيس اشتراكيّ-ديمقراطيّ"، وأضاف أنّ "النهضة التي أوجدها وأهداف الثَّورة الإسلاميَّة مُلهَمَةٌ من الإعلان العالَميّ لحقوق الإنسان"[2].

***

حَسَبَ تقاريرَ ووثائقَ لوزارة الخارجيَّة الأمْرِيكِيَّة والبيت الأبيض الرَّسْميَّة، لم يكُن لدى مسؤولي أمريكا الرَّسْميّين والحُكُوميّين ولو نسخة واحدة من كتابات ونصوص خطابات آية الله رُوح الله الموسوي الخُمَيني السابقة. ولم يكونوا على علمٍ بها، كذلك كان الحال بالنسبة إلى وكالة الاستخبارات الأمْرِيكِيَّة، لذلك طلبوا من صحيفة "واشنطن بوست" تزويدهم بنسخة من هذه الخطابات[3].

لم تكُن جميع الصحف الأمْرِيكِيَّة، على العكس الصحف الفرنسيَّة، تمجِّد الخُمَيني بشكل مُطلَق. فقد نشروا مقتطَفات من كتاباته وأقواله المعادية للیَهُود ولأمريكا وللغرب، وكان نشرها سببًا في انزعاج السُّلُطات الرَّسْميَّة في واشنطن. فأعلن هنري برشت المسؤول عن القسم الإيرانيّ في وزارة الخارجيَّة الأمْرِيكِيَّة والذي شارك من

(1) Andrew Young.

(2) أدرج نَصّ بيانات السيد يونغ في جميع الكتب والمقالات المتعلقة بالثَّورة الإسلاميَّة.

(3) وردت قصة هذه الحادثة في كتاب Lewis و Ledeen (مرجع سابق) ص154 وما بعدها. عندما زارني السيد وليام سوليفان William Sullivan في سبتمبر 1978، وكنت آنذاك وزيرًا للعلوم والتعليم العالي، بحثت معه مسألة كتابات وخطابات الخُمينيّ، فقال إنه لا علم له بها، لم أحسّ -وما زلت- بأنه يتظاهر (ورد وصف هذا اللقاء في كتاب مذكّراته).

واشنطن -كما رأينا- في تنظيم المقابلات الصحفية مع الخُمَيني، أنّ "هذه الأقوال، في أحسن الظروف، هي ملاحظات سجّلها طلاب الخُمَيني، واحتمال كبير أن تكون ملفّقة"[1].

كذلك أبدت "واشنطن بوست" بدورها شكًّا في هذه الأقوال: "لقد طُبعت خارج إطارها، لم تكُن دروس الخُمَيني تُلقَى باللغة العربيَّة، لقد كان يتحدّث إلى الإيرانيّين، فما الداعي إذًا لأن يتحدّث باللغة العربيَّة؟ لقد قرأت النَّصّ الفارسيّ لهذه الأقوال، ولم أرَفيه ما يدلّ على مشاعر الخُمَيني المعادية لليَهُود"[2].

يبدو أنّ في ما كتبَته صحيفة "واشنطن بوست" المهمَّة والمرموقة تشويشًا بسيطًا، فلم تكُن ولا تكون اللغة العربيَّة لغة الإيرانيّين، كانت أقوال وكتابات الخُمَيني جميعها باللغة الفارسيَّة، لغة مليئة بالأخطاء، وكما يُقال بنثر "فوضويّ"[3]، العربيَّة لغة من أصول ساميَّة، والفارسيَّة من أصل هندو-أوروبي، والفارسيَّة تشبه العربيَّة، كما تشبه الفرنسيَّةُ الألمانيةَ أو السويديَّةَ.

في أحداث شتاء عام 1978/1979 جَرَت مخاطبات مفصَّلة بين سِفَارة أمريكا في طهران والسُّلُطات الأمْريكِيَّة، حول صِحَّة أو عدم صِحَّة الكتابات "المنسوبة" إلى الخُمَيني، وفي النِّهاية وبعد تحقيق مطوَّل ثبتَت حقيقة "انتسابها"، وقبِلُوا ضمنيًّا أن هذه الكتابات كانت باللغة الفارسيَّة لا باللغة العربيَّة.

كان الخُمَيني عندها قد أمسك بزمام الأمور في إيران!

"إن إصرار الغرب على تَكرار أخطائه أمرٌ محيّر ومؤلم في الحقيقة. لقد شجّع ويشجّع ودعم ويدعم الغربيون دائمًا الإسلام المتطرّف، دون النظر إلى مصالح الدُّوَل الإسلاميَّة ورغبتها في النُّمُوّ والتقدُّم وفصل الدِّين عن السِّياسة،

---

(1) المرجع السابق (Ledeen et Lewis).

(2) بركزيـده اي از آثـار ونوشـته هـاي قبـل از انقـلاب آيـة اللـه موسـوى خمينـى، ترجمـت هـذا الكتـاب وطبعَـت في باريـس عـام 1979 مؤسّسـة Editions Lilbres Hallier، ورد جـزء مـن أقـوال وكتابـات الخُمينـيّ المعاديـة لليهـود في صفحـة 30 مـن الكتـاب، خصّـص برسـفال Perceval (الاسـم المسـتعار للمتخصص الفرنسـي في شـؤون إيـران) مقـالًا مفصَّلًا في عـدد سـبتمبر-أكتوبر مـن مجلـة Revue Universell,1979 حـول هـذا الكتـاب.

(3) ترجمة لمصطلح Charabia الفرنسي العاميّ الذي ورد في النّص الفرنسي لهذا الكتاب. (المترجم).

والسبب أنّ التيّار الإسلاميّ المعتدل، أو الإسلام كدين لا كمنهج سياسيّ، كان دائمًا مقترنًا بالوطنيّة والقوميّة والتقدُّميّة، وهو الأمر الذي يَصعُب أن يتحمّله كثير من المحافل الغربيّة"[1].

"قبل عشرين عامًا، بمناسبة ذكرى انتصار الثَّورة الإسلاميَّة، أظهر مفكِّرونا الرَّسْميُّون سعادتهم لوصول آية الله الخُمَيني إلى السُّلْطة، كانوا يظنُّون أنّ دولة إيران الكُبْرَى أصبحت تمتلك حُكُومة تقدُّمية وديمقراطيَّة، كانوا يقولون إنّ الإيرانيّين قد وجدوا جذور حضارتهم ثانية.

كان هؤلاء المفكِّرون، الذين ظنُّوا أنفسهم وتظاهروا بأنهم متخصِّصون في إيرانَ والحضارة الإيرانيَّة والتشيُّع، يعتقدون أنّ الشَّعْب الإيرانيّ كان في أعماقه متديِّنًا، ولكونهم شِيعَة فهم ينتظرون المهدي المنتظر وإمام الزمان... قبل ذلك ببضع سنوات اعتبر هؤلاء "المفكِّرون الرَّسْميُّون" احتلالَ الشيوعيّين لمدينة سايغون حُرِّيةً لشعب فيتنام، وعندما ظهرت للملأ مصائب الشيوعيّين في فيتنام، وعندما خاطر مئات آلاف الفيتناميين بأرواحهم وركبوا القوارب والسفن الشراعية الصغيرة أو حتى الألواح الخشبية وهربوا من جنة الشيوعيّين، وعندما سيطر التأثُّر والندم على الرَّأي العامّ العالَمي الذي قَبِلَ، بسقوط فيتنام غير آبهٍ، برز هؤلاء المفكِّرون الرَّسْميُّون، أو في الحقيقة المهرّجون مُدَّعو التنوير، بلباسِ متخصِّصي الإسلام والشرق الأوسط وإيران، وأخذوا يدافعون عن آية الله الخُمَيني والثَّورة الإسلاميَّة لكي تُنسى بلاهتهم وسذاجتهم.

بخصوص إيران، يجب القول إنَ "مثقَّفينا الرَّسْميّين" كانوا في تناغُم مع راسمي السّياسة العالَميَّة لأمريكا، وكانت حُكُومة كارتر قد أزاحت الشَّاه علنيًّا ورَسْمِيًّا، وكانت "بي بي سي"، إذاعة السيد كالاهان[2]، تذيع طوال أشهُرٍ أشرطة آية الله التي كانت تدعو الشَّعْب الإيرانيَ إلى التمرّد والثَّورة"[3].

---

(1) Iacques Duquesnes, La Croix- L' Eve'nement 30 de'cembre 1998.

يُعدّ كاتب هذا المقال صحفيًا وكاتبًا ومتخصّصًا بارزًا في الدراسات التاريخية والدينية. (المترجم).

(2) James Callaghan، رئيس وزراء بريطانيا آنذاك.

(3) Thierry Desjardins, Le Figaro, 1999.

هؤلاء "المفكِّرون الكِبَار". أو في الحقيقة "المهرِّجون مدّعو التنوير". الذين يطالبون المسؤولين في فرنسا كلّ يوم أن يُظهِروا ندمهم واعتذارهم الرَّسْميّ بخصوص أخطائهم في الماضي البعيد والقريب، حتى التي ترجع إلى ما قبل مئات السَّنَوات، لم يمتلك أيّ منهم الشهامة والكرامة ليعترفوا على الأقلّ بالخطأ الذي ارتكبوه بخصوص "الثَّورة الإسلاميَّة" واعتلاء الخُمَيني السُّلْطة. وتلك الجريمة الكُبْرَى التي شاركوا في ارتكابها بحقّ الشَّعْب الإيرانيّ والشعوب المسلمة وغير المسلمة الأُخرَى، وأن يطلبوا المغفرة لذلك.

هل سينسى الإيرانيَون؟

أتقدَّم بجزيل الشكر لكلّ من صديقي العزيز والعالِم الدكتور برويز آموزكار الرئيس الأسبق لجامعة الفردوسي (مشهد) والرئيس السابق لكلية باريس للقانون والاقتصاد والإدارة، والسيد البروفيسور Joseph Santa- Croce، اللذين وضعا بين يدَيَّ كثيراً من المقالات والوثائق لهذا الفصل من الكتاب.

الفصل التاسع
في طَهْرَان.. عجز الحُكُومة وانهيارها

لم يتسبب وصول آية الله رُوح الله الموسوي الخُمَيني إلى فرنسا واستقراره في نوفل لوشاتو في تهدئة الأوضاع، بل أدَّى إلى اشتداد المظاهرات الأشبه بالتمرُّد، التي أصبح هو حامل رايتها.

اتضح سريعا أن الحُكُومة أخطأت في تقدير الوضع السياسيّ. فالموافقة على خروج الخُمَيني من العراق كانت خطأً، وعَقْد الأمل على أنه سيهدأ في فرنسا، أو أنهم سيهدِّئونه، كان خطأً أكبر.

قبل هذه التحوُّلات، كان التواصل هاتفيًا مع مرافقي الخُمَيني في النَّجف أمرًا صعبًا ومحدودًا، وكانت كلتا الدولتين الإيرانيَّة والعراقيَّة تراقبانه. كانت أشرطته تعبر الحدود بعد مصاعب جمة. ولم يكُن نسخها في إيرانَ على مستوى عالٍ من الحرفيَّة. بالطبع كانت ألمانيا الشرقية تؤدِّي جزءًا من العمل، ولكن ببطء وبصعوبة.

قبل أن يأتي آية الله إلى فرنسا، ويُنزِلوه في نوفل لوشاتو، وضعوا في مَقَرِّ إقامته أجهزة إرسال إذاعيّ قويَّة. ووضعوا تحت تصرُّفه عدة خطوط هاتف، واتُّخِذَت الإجراءات اللازمة لنقل أشرطته بحصانة دبلوماسية. في الواقع كان كلّ شيء جاهزًا.

الإجراءات التي استغرقت أسابيع لإحداث تلك الضَّجَّة في مطبوعات باريس

لم يكُن حتى بإمكان بغداد وليبيا اتّخاذها. لقد اتَّخَذَت أعماله التخريبية في فرنسا أبعادًا واسعة.

إذاعة "بي بي سي" كانت ولا تزال لها حرية العمل الكاملة، وليس للحُكُومة الحقَ في التدخُّل في شؤونها. لكنّ برامجها الأجنبيَّة، بخاصَّة حول "القضايا الخاصَّة والحساسة" كقضيَّة إيران آنذاك، كانت تُدار تحت رقابة السُّلُطات الرَّسْميَّة وأجهزة الاستخبارات، وهذا هو الحال في جميع الدُّوَل تقريبًا.

كانت إذاعة لندن أصبحت في الأشهُر الأخيرة قبل الثوة الناطق ووسيلة دعاية "الثوريّين". كثيرون كانوا يُطلِقون عليها لقب "صوت الثَّورة". كانت إذاعة لندن تُعلِن في مقدّمة برامجها الفارسيَّة برنامج المظاهرات بتفاصيله الدقيقة. وكانت أشرطة آية الله تُذاع بشكل مستمرَ من "بي بي سي". وكما ذكر مستشاره إبراهيم يزدي، كانت ترجمة المقالات التي كانت تُنشَر في الصحف الغربيَّة ضِدّ الشَّاه ولصالح الخُمَيني تُبَثّ للإيرانيّين من خلال هذه الإذاعة.

ثمّ حدثت "معجزة". فحسب ما لدينا من معلومات لم يكُن الخُمَيني استخدم الهاتف إطلاقًا قبل استقراره في نوفل لوشاتو. وفي الأصل لم يكُن يرغب في أداة التواصل هذه. لكنه قبِلَ بذلك أخيرًا في نوفل لوشاتو، وأخيرًا وبشكل مباشر وصل صوته إلى آذان بعض أنصاره وبعض رجال الدِّين وتجار السُّوق. كانت هذه الحادثة بالنسبة إليهم تَحَوُّلًا حقيقيًّا. فقد سمعوا صوت "السيِّد" مباشرةً. لم يكُن يتحدث في أمور مهمَّة عبر الهاتف، لكنه كان هو، وكان صوته هو، وكان هذا في حدّ ذاته يُعتبر ثورة!

***

"كان الخُمَيني يُعِدّ نفسه للسُّلْطة طوال الأشهُر الثلاثة. كان يُجري حوارات مع الصحفيين والمراسلين. وكان يجيب عن الأسئلة بإجابات جهّزوها ووضعوها بين يديه مُسبَقًا. وكان في انتظار الضوء الأخضر من واشنطن"[1].

(1) Dominique Lorentz, une guerre, op, cit, P. 174.

"لقد صنعَت إذاعات وتليفزيونات العالَم منه (الخُمَيني) شخصيَّة تاريخيَّة، كانت الدعاية أيضًا مؤثرة في الطَّرَف الآخر، ففي طَهْرَان كان عوامّ الناس يشاهدون اهتمام العالَم الغربيّ بالخُمَيني، كانت صُوَرُه بأحجامها المختلفة تُنشر بالآلاف وتُشاهَد في كلّ مكان، كانت مشاهدة هذا الوضع تزيد اهتمام الغربيين به"[1].

في تلك الأوضاع التي رأيناها في نوفل لوشاتو، أصبح الخُمَيني بسرعة أهمّ معارضٍ للنِّظام الملكي، وبمبايعة كريم سنجابي أهمّ قائد في الجبهة الوطنيَّة له، أصبح جميع المعارضين عمليًّا تحت لوائه.

خلال ربيع وصيف عام 1978 لم يكُن آية الله العُظْمَى شريعتمداري، القائد الحقيقيّ والناطق باسم المعارضة، قد ثار ضِدّ النِّظَام بعد، بل كان يطالب بالتطبيق الكامل للدستور وتقييد صلاحيَّات الشَّاه، وإجراء إصلاحات سياسيَّة واجتماعيَّة. كان مطلب جميع الأحزاب السِّياسِيَّة هو أن يكون الملك على العرش لا في الحُكُومة.

كان محمد رضا البهلوي -بلا شك- إنسانًا مؤمنًا، لكنه لم يعمل بكثير من فرائض ومناسك الإسلام، في الغالب كان لمعتقداته بُعْد معنويّ، لم يُرِد -وما كان يستطيع- أن ينسى أنه في عام 1953، لولا دعم جزء كبير من المؤسَّسة الدِّينِيَّة، بخاصَّة آية الله العُظْمَى البروجردي الذي كان المرجِعيَّة الأولى بل الوحيدة للشِّيعة بلا منازع، للجنرال زاهدي الذي خرج الجيش عن سيطرته ولم يكُن قادرًا على انقلاب عسكريّ، لَمَا استرجع تاجه وعرشه. منذ ذلك الوقت سعى الشَّاه جاهدًا ليتخلص من الرابط الدينيّ الذي يربطه برجال الدين، فكان يعتبر رجال الدِّين بشكل عام رجعيين، فاسدين، معارضين للتجديد، وسدًّا في وجهه.

كانت عادة ملوك وحُكُومات إيران دائمًا أن يحافظوا على علاقتهم برجال الدِّين من خلال الترهيب أحيانًا والترغيب أحيانًا أُخرَى، وفي بعض الحالات الخاصَّة مثل مراجع التقليد من أمثال الأصفهاني والبروجردي وشريعتمداري والخوئي، كانوا يفعلون ذلك من خلال الحواروالتفاهم، لكن في الآونة الأخيرة تَغيَّر

(1) Edouard Sablier, op. cit, P. 65.

موقف المسؤولين في الحُكُومة من المؤسَّسة الدِّينِيَّة. فلم يكونوا يهتمُّون ببعض المراجع الدِّينِيَّة، بخاصَّة الأكثر أهَمِّيَّة واحترامًا بينهم. كانت السِّياسة المتَّبَعة مع أكثرهم هي سياسة الترغيب. فلم يكُن عدد الذين يتقاضون أجورًا منهم قليلًا. بينما كان العنف يُستخدم ضِدّ الأقلِّيَّة التي كانت تُعلِن معارضتها للنِّظام.

كان هذا هو الموقف الذي اتَّخذه آخر رئيسَي وزراء لإيران خلال الأعوام الخمسة عَشَر الأخيرة من حكم محمد رضا شاه. لم تكُن بينهم وبين مراجع التقليد المحترمة، أو الأقلّ احترامًا أحيانًا من حيث الأخلاق، علاقة مباشرة. ربما لم يكُن الشَّاه يرغب في وجود مثل هذه العلاقة.

خلال عام 1978، عندما ظهرت الصعوبات المتزايدة، أدرك محمد رضا شاه أنه لا بدّ من إعادة العلاقة والتفاوض، وأحيانًا التفاهم، مع قم مجدَّدًا، ذهب بعض المبعوثين إلى آية الله العُظْمَى شريعتمداري، وأصغوا إل بأقواله واقتراحاته، لكن لم ينتج عن هذه الحوارات أي شيء، ولم يُعتنَ بآراء واقتراحات آية الله العُظْمَى التي كان أكثرُها منطقيًّا وعمليًّا.

بعد استقرار رُوح الله الموسوي الخُمَيني في نوفل لوشاتو، لم يعُد شريعتمداري يمسك بزمام الأمور، ولم يعُد يستطيع فعل شيء، لقد أمسك المتطرِّفون والأفظاظ الذين كانوا مَحَطَّ رعاية ودعم الأجانب، بزمام الأمور. لقد انتهى زمن الحوار والتفاهم، وبدأ زمن العنف.

كان محمد رضا البهلوي يظنّ أنّ جعفر شريف إمامي، الذي كان ينحدر من عائلة دينيَّة صغيرة، هو الرجل المناسب للحوار مع قم، لكنه سرعان ما أدرك أنه أخطأ الانتقاء.

في الأسابيع اللاحقة، وقبل انهيار النِّظَام المَلَكِيّ على وجه التحديد، ظهر حلٌّ آخر، لكنّ الشَّاه لم يكُن يملك الإرادة الكافية للجوء إليه ولا القُوَّة الكافية، فقد فات الأوان.

***

بعد مدة من فاجعة آبادان، في السابع والعشرين من أغسطس عام 1978، اختيرَ جعفر شريف إمامي رئيسًا للوزراء، بعد أقلّ من شهر كانت حكومته لا تملك من الأمر شيئًا، وكانت الدَّولة تغرق في الفَوْضَى.

كان الشَّاه قد منح شريف إمامي صلاحيَّات كاملة، فقد أصبح هو من يتّخذ القرارات المهمَّة بعد مرور خمسة عشر يومًا على تعيينه، وعندما ذهب إلى المَجلِس لتقديم وزراء حكومته وتوضيح برامجها، لم يكُن لدى شريف إمامي عندها أيّ فكرة أو برنامج، ولا كرامة، لقد كان سياسيًّا ذليلًا عاجزًا وفي حالة احتضار.

استقال بعض وزرائه اعتراضًا على ضعفه في مواجهة الأحداث، وبعد كسب الثِّقة من المَجلِسَين لم يعُد أحد يتحدّث عن رئيس الوزراء، ولم يعُد أحد يعتبره مُهمًّا في قيادة الدَّولة.

تولّت الملِكة منذ سبتمبر 1978 بالتدريج دورًا مُهمًّا في إدارة شؤون الدَّولة واتّخاذ بعض القرارات الأساسيَّة، وكان دورًا آخذًا في الازدياد، يجب القول إنها أبدت الشجاعة واعترضت على تعيين شريف إمامي رئيسًا للوزراء. كان الجنرال مقدّم رئيس جهاز الاستخبارات وأمن الدَّولة، أيضًا معارضًا لهذا التعيين، وأعلن ذلك خلافًا لعادات من سبقوه[1]، لقد كانت مجريات الأحداث تمنح الملِكة الحقّ في التدخُّل، وأدَّى هذا إلى أن يكون لرأيها وزن وأهَمِيَّة، لكنها هي أيضًا وقعت بعد ذلك في بعض الأخطاء ولم تُحسِن التقدير.

زادَ مرض الشَّاه وضعفه البدني، بخاصَّة ضَعفُهُ النفسيُّ المتزايدُ، الطينَ بلَّة: كان الشَّاه مريضًا ومُتعَبًا ويائسًا، وكان رئيس الوزراء ضعيفًا وعاجزًا، أما الملِكة التي وجدت بعض حرية التصرُّف فقد كان ينقصها الخبرة السِّياسِيَّة وحسن تقدير الأمور... كانت قيادة الدَّولة شاغرة.

بالتزامن مع المرحلة المتوسطة من حُكُومة شريف إمامي بدأت اعتصامات

(1) انظر: H. Nahavandi, Canets Secrets...., op, cit, p.135-137، الترجمة الفارسية لهذا الكتاب بعنوان: آخرين روزها، شركت كتاب.

واسعة في شركة صناعة النِفْط وشركة الكهرباء الوطنيَّة، وكان يترأَّس هذه الاعتصامات مجموعة معروفة من أعضاء حزب "توده" المنحل.

وللعلم فإن الأغلبيَّة الساحقة من عُمَّال الصناعة، وجميع القرويين والفلاحين، كانوا قد ابتعدوا عن الحركة الثوريَّة ولم يشتركوا فيها.

حدث بعض الصدامات في القرى، وسُفِكَ بعض الدماء هنا وهناك، ولكن ليس بين القرويين وصغار المُلَّاك وقوات الأمن، بل بين المبعوثين الكبار للمُلَّاك الكبار والملاك الصغار الذين كانوا قد استفادوا من الإصلاح الزراعي، وباسم آية الله الخُمَيني عاد عملاء المُلَّاك السابقين، الذين ندَّدُوا جميعًا بإصلاحات الشَّاه والثَّورة البيضاء، إلى القرى ليستعيدوا الأراضي التي أُخذت منهم، فكانت ردود فعل القرويين عنيفة، وسمَّاهم الثوريّون بـ"البلطجية". لقد كان مقال صحيفة "لوموند" الباريسية الذي تَحدّث عن ثورة القرويين العامَّة ضِدّ الشَّاه[1]، ناتجًا عن أوهام الكاتب أو مرافقي آية الله.

مع هذا يجب القول إنّ اعتصامات صناعة النِفْط وشركة الكهرباء الوطنيَّة سرعان ما عطّلت الحياة وخلقت نوعًا من الفَوْضىَ في البلد.

لمواجهة هذه الاعتصامات أعلن رئيس الوزراء فجأة أن رواتب مُوَظَّفي وعمال شركة النِفْط الوطنيَّة سترتفع 25%، وفي جوابه لبعض السائلين عن هذا "القرار" وحقيقته، قال إنه يقصد من ذلك تهدئة المعتصمين وأن هذا القرار غير عمليّ ولا يمكن تطبيقه. وأمر أن يذهب رئيس مَجلِس الإدارة، الرئيس التنفيذي لشركة النِفْط الوطنيَّة[2]، إلى حقول النِفْط للحوار مع المعتصمين. كان لهذا الشخص منتقدون ومعارضون كُثر، فواجه استقبالًا غير لائق وعاد إلى طَهْرَان.

واستمرّت الاعتصامات التي شلّت الحياة.

***

(1) Le Monde, 3 janvier 1979.

(2) يبدو أن المقصود هو هوشنك أنصاري. (المترجم).

في بدايات خريف 1978، عندما كانت الدَّولة آخذة في الغرق في الفَوْضى بالكامل، واتّضح عجزها عن مواجهة هذه الأزمة، اتصل الملك حسين ملك الأردن بمحمد رضا شاه هاتفيًا وقال: "إنّ المشروع الذي بدأ الأمْرِيكِيُون بتطبيقه اليوم في إيران، هو المصيبة التي كانوا يريدون إنزالها بي وببلدي عام 1970[1]. لكنني قاومت وأخمدت التمرُّد، وأُجبِر الأمْرِيكِيُّون على التفاهم معي. إن كنت لا تريد أو لا تستطيع أن تُصدِر الأوامر التي ستكون بالإجبار عنيفة، فاسمح لي بالقدوم إلى طَهْرَان والاستقرار في مكتب صغير في مقرّ عملك، وأن أصدر الأوامر بالنيابة عنك إلى قادة الجيش وأوجّههم إلى ما يجب فعله. عندها سترى أن هذه الفتنة ستنتهي خلال ثلاثة أيام وسيخرس الأمْرِيكِيُّون"[2].

كان جواب الشَّاه هو الرفض، فقد كان لديه هاجس واحد هو ألا تُراق الدماء، وقد قال لاحقًا: "لقد أخطأت في تقدير موقف الأمْرِيكِيّين، ولم أُرِدْ أن أسفك دماء شعبي بأيّ ثمن، على أيّ مَلِك أن لا يتصرف كدكتاتور، وأن لا يحاول الاستحواذ على السُّلْطة بأي ثمن كان"[3].

إن التشابه بين تصرُّف الشَّاه وتصرُّف لويس السادس عشر في السَّنَوات التي سبقت سقوطه ومن ثمّ إعدامه، مُثِير للحيرة.

"كان من الخطأ اتباع رأي الأمْرِيكِيّين والإنْجِلِيز، فقد كانوا يريدون منِي أن أُطلِق أيدي مثيري الفتنة والمخربين والقتلة والنَّاهبين، وكانوا يقولون إنهم بذلك يريدون أن يستمرّ تطبيق سياسة الفضاء السياسيّ المفتوح".

في نوفمبر وديسمبر من عام 1978 جاء نائب وزير الخارجيَّة الأمْرِيكِيّ لحقوق الإنسان إلى إيران وأرد تَجنُّب استخدام العنف مع المعارضين والمتظاهرين[4].

قبل ذلك في أكتوبر من عام 1978، عارضت وزارة الخارجيَّة الأمْرِيكِيَّة

---

(1) الحادثة المعروفة بأيلول الأسود.

(2) ما رواه الشاه لكاتب هذه السطور في القاهرة، 1979.

(3) المرجع السابق.

(4) "Desastrous Year", Encounte, nomembre 198.

بشِدَّة. ووليام سوليفان[1] شخصيًّا، بيع وتسليم إيران "وسائل مكافحة الشغب"، واعتبروا الأمر مخالفًا لسياسة المصالحة الوطنيَّة[2].

***

ومع هذا كلّه، جهّز قادة الجيش، دون أيّ أوامر من الشَّاه، خُطَّة عمَليَّة كاملة لعودة الهدوء والنِّظَام والرجوع إلى الحُكُومة الشرعيَّة، وأسموها عمَليَّة "خاش"[3]، كان الهدف إظهار قدرة الحُكُومة وإعادة سيطرتها على الدَّولة، وترجيح كفَّة المدافعين عن الشرعيَّة، والحيلولة دون تلاشي مؤسَّسات الدَّولة إلى حين عودة الهدوء والاستقرار، عندها سيتمكن المسؤولون السياسيُّون -الشَّاه، في حقيقة الأمر- من أن يتفاوضوا مع قادة المعارضة من منطلق القُوَّة، وسيتمكنون من إيجاد حلّ سياسيَ في إطار الدستور.

آنذاك لم يكُن أحد يشكّ في أن عمر حُكُومة شريف إمامي قد انتهى. كان قادة الجيش يرغبون في تعيين الفريق غلام علي أويسي، قائد القُوَّات البرية وقائد طَهْرَان العسكريَ، رئيسًا للوزراء، وكانت الخُطَّة هي إجراء هذا التغيير، أي عزل أو استقالة شريف إمامي وتعيين الفريق أويسي رئيسًا للحُكُومة. ليلًا ومع الساعة الأولى من حظر التجوُّل، في هذه الأثناء ستتدخل مجموعات من "الشُّرطة الخاصَّة" الذين يتمركزون في لويزان ومهران[4]، وكذلك أفراد من قوات الشُّرطة المستقرين في عشرت آباد[5]، ووحدات القُوَّات الجويَّة، وسيعتقلون ويسجنون ما يقارب أربعمئة شخص من قادة مظاهرات طَهْرَان العنيفة والمتطرِّفة، وعمليًّا لم تتدخل هذه الوحدات ذات الخبرة حتى ذلك الحين في تظاهُر الحُكُومة بأن الاستقرار مستتبَ في الدَّولة، وفي حقيقة الأمر كانت تشكِّل قوات الاحتياط للحُكُومة.

---

(1) آخر سفير لأمريكا لدى إيران قبل الثورة. (المترجِم عن الفارسية).

(2) Zbigniew Brezezinski, Power and Principels Mc Graw Hill, Toronto, New- York, 1984, P. 355.

(3) خاش: مدينة صغيرة جنوبِيّ محافظة بلوشستان، المحافظة التي يشكّل أهل السُّنّة الغالبية فيها.

(4) في شمال العاصمة.

(5) في وسط العاصمة، كان اللواء أمير هوشنك فيروزبخش يتولىٰ قيادة هذه الوحدة المسلَّحة.

في المدن الرئيسية وُكِلَت مَهَمَّة اعتقال قادة الاضطرابات إلى الشُّرطة، وأحيانًا سيُكتَفَى بمساندة وحدات صغيرة من الأمن والجيش لهم.

كان مِن المقرَّر يتم إرسال أغلب المعتقلين إلى قاعدة "دوشان تبه" الجويَّة، أو إلى القسم العسكريّ من مطار "مهرآباد"، حيث سيكون في الانتظار طائرتان من نوع "C130" تمهيدًا لنقلهم إلى "خاش"، كان هذا سبب تسمية هذه العمَليَّة بهذا الاسم.

كما رُسِمَت خُطَط مشابهة للمدن الأُخرَى، وجَرَت الاستعدادات في بعض القواعد الجوية الأُخرَى.

تَقرَّر أن يُقاد القادةُ السياسيُّون "غير المعمَّمين" للمعارضة، الذين في الحقيقة كانت الحُكُومة تريد التفاوض معهم، إلى عدد من المباني التي كانت قبل وكالة الاستخبارات وأمن الدَّولة يستخدمانها للضيافة، ليُعامَلوا كضيوف، وبالنسبة إلى المعمَّمين فقد تَقرَّر نقلهم إلى فندق في جزيرة كيش كان قد بُنِيَ حديثًا ولم يُدَشَّن بعد آنذاك. أخذت القُوَّات البحرية الملكيَّة على عاتقها نقل هذه المجموعة إلى هناك وقطع أي نوع من أنواع تواصلهم مع الخارج.

وتمهيدًا لهذه العمليات، نَظَّفَت القُوَّات البرية ثكنة خاش القديمة التي كانت في ما سبق مقرًّا لأحد الألوية وكانت تُستخدم لسنوات مخزنًا للَّوازم المستعمَلة، وزوَّدتها بقدر كافٍ من وسائل الحياة والأَسِرَّة والطعام، حتى إنهم وضعوا فيها بعض مولّدات الكهرباء من باب الاحتياط. كان بإمكان مطار المدينة القديم استيعاب هذه العمَليَّة وتَرَدُّد بعض الطائرات، وبدقة كبيرة يتميز بها العسكريّون، أحصوا البطانيات وقائمة الأدوية وأرسلوها إلى خاش.

كانت وظيفة كلّ شخص في العمَليَّة قد حُدِّدَت مُسبَقًا في الخُطَّة، لم يُعطَ أفرادُ الحرس المَلَكِيّ[1] أيَّ دور في هذه العمَليَّة، حتى لا يكون للملك أيُّ تَدَخُّل

---

(1) العسكريون المميزون المَهَرة الذين كانوا مسؤولين عن حراسة الشاه شخصيًا وحراسة مقر إقامته، أُسِّسَ الحرس المَلَكِيّ (الحرس الخالد) في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح بأمر من داريوش الكبير، بعد قرون، أحيا ميرزا تقي خان أمير كبير، الصدر الأعظم الكبير والمصلح الإيراني،

مباشر في التخطيط لها وتنفيذها، وحتى يكون هو المرجع والحكم في حلّ هذه الأزمة السِّياسِيَّة. وعلى العكس مِمَّا كان قد شاع، لم يكُن "الحرس الملكي" ينوي الانقلاب العسكريّ على الشَّاه.

في تلك الأثناء كانت اعتصامات شركة النِّفْط وشركة الكهرباء الوطنيَّة قد أزعجت الناس العاديين من سكان المدن بشِدَّة. كان عدد القائمين على هذا الاعتصام يقارب عشرين شخصًا، وكانت قوات "المطاردة والتعقّب" تتتبَّع أثرهم كسائر الذين كان مِن المقرَّر اعتقالهم، وجُهّز بعض مهندسي ومتخصصي الجيش الفنيين ليَحُلُّوا مَحَلَّهم.

كان مِن المقرَّر أن تصبح الإذاعة والتليفزيون الإيرانيَّان تحت إشراف، بل تحت سُلْطة الجيش، وأن يحلّ عدد من الضُّبَّاط الشباب بالزِّيِّ العسكريّ محلّ مذيعي برامج الأخبار، كما تَقَرَّر وقف انتشار الصحف لفترة قصيرة.

خُطِّط لهذه التفاصيل بدقة، وكانت جاهزة للتنفيذ.

هل كان الشَّاه على علم بمجريات الأمور؟

هناك احتمال كبير.

كان الجيش بشكل عامّ منسجمًا، وبقي وفيًّا للملك حتى اليوم الأخير، يوم الثَّاني عشر من فبراير 1979، تاريخ السقوط الرَّسْميّ للنِّظام الملكي، وحتى عندما كان الشَّاه في المغرب وقطع اتصالاته مع إيران بَقِيَ الجيش وفيًّا، لم يكُن لقادة الجيش حتى أن يتخيَّلوا أن بإمكانهم اتخاذ أيّ خطوة دون أمر من قائدهم الشرعيّ، وحتى اللحظة الأخيرة التي لم يعد الشَّاه موجودًا فيها في إيران وكان عمليًّا قد ترك كلّ شيء، كان قادة القُوَّات المسلَّحة في انتظار إشارة منه ليؤدُّوا واجبهم، لكنّ هذه الإشارة لم تصدر، وللأسف لم يسمح تسلسل الرتب في الجيش ولم تسمح شخصيَّة اللذين كانوا يتصدرون مسؤوليات مهمَّة باتِّخاذ أي فعل دون

هذه الوحدة في النصف الأول من القرن التاسع عشر بعد الميلاد، وأخذت شكلها النهائي في العصر البهلويّ، في ذلك الوقت كان الجنرال علي نشاط، الذي قُتل لاحقًا بأمر من الخُمينيّ، يتولَّى قيادة هذه الوحدة.

"أمر" أو "تأييد" من الشَّاه، وفي النِّهاية لم يفعلوا. وأدَّى هذا النهج إلى تدمير الجيش وانهيار الدَّولة. لم يكُن هدف "المخطِّطين" تنفيذ انقلاب عسكريّ[1]، بل كان الهدف هو استقرار الدَّولة الذي كان من شأنه حلّ القضايا الشائكة وإعادة النِّظَام والهدوء والحُكُومة وحرمة القانون.

كان على وحدات الشُّرطة والقُوَّات الخاصَّة والقُوَّات الجوية أن تتدخَّل، وأن يكون تَدخُّلها مؤقَّتا وسريعًا، وبالتدريج تُخلِي المكان في المدن لوحدات الجيش وقوات الأمن العاديَّة، وأن تحرس بدورها الأماكن الحسَّاسة. كما أصدرت الأوامر إلى قوات الأمن لحراسة عائلات المُعتقَلين وأماكن إقامتهم، وأن يمنعوا أي محاولة لتصفية الحسابات أو التعدِّي عليهم.

كان مِن المقرَّر أن يطلب رئيس الوزراء الجديد (القائد الذي كان على الشَّاه اختياره، وعلى الأغلب سيكون الفريق أويسي) مباشرةً بعد تسلُّم حكم تعيينه والحصول على ثقة مَجلِسَي الشُّورَى والشُّيُوخ، من الهيئة التشريعيَّة ولفترة قصيرة منحه الصلاحيَّات التامَّة. كان بعض القادة يميل إلى خيار حلّ المَجلِسَين الذي هو من صلاحيَّات الشَّاه، حتى يكونوا مُطلَقِي الحريَّة، لكنهم كانوا على علم بمعارضة الشَّاه لذلك.

---

(1) كانت هناك لجنة سريَّة مهمتها التحضير لعملية خاش، وكان يرأسها الفريق هوشنك حاتم، الذي كان مساعدًا لرئيس هيئة الأركان، ووصل إلى رئاسة هيئة الأركان بعد تعيين المشير أزهاري رئيسًا للوزراء. كان الفريق حاتم رجلًا خبيرًا وصادقًا وحسن السمعة، أكمل جزءًا كبير من تعليمه العسكري في فرنسا.

عرّج إبراهيم يزدي في مذكَّراته (مرجع سابق) على أجزاء من قضية خاش، وكان أكثرها مبنيًا على نتائج التحقيقات التي جَرَت مع ضباط الجيش الكبار، أو التي نُسبت إليهم. بالطبع كان الهدف من البيانات المنشورة في خاطرات يزدي هو إلحاق الأذى بالضباط والقادة الذين قُتلوا جميعًا في ما بعد.

ما ورد في هذا الكتاب من معلومات مبنيّ على روايات اثنين من المسؤولين من الدرجة الأولى عن تنفيذ العملية، الأول هو اللواء جواد معين زاده، رئيس استخبارات القُوَّات البريَّة، الذي تُوُفِّي مؤخَّرًا في لندن، والثاني قائد القُوَّات الخاصَّة الذي يعيش حاليًا في أوروبا. لن أنسى معروفهما وتعاونهما، وأشكرهما عليه جزيل الشكر.

أنقذ أحد قادة الجيش، الذي كان يتولى أمانة سرّ اللجنة، الملفَّ الكامل لمخطَّط عملية خاش ومحاضر الجلسات وإخراجها من إيران، وهو الآن يقيم في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة.

كان تنفيذ هذه العمَليَّة نوعًا من "الحلّ السريع" لإنقاذ الدَّولة. وكان يمكن أن ينجح: كان الجيش مَحَطّ ثِقَةٍ وعلى أتمّ استعداد: كانت قوات التدخُّل السريع المنوط بها تنفيذ المرحلة الأولى من العمَليَّة تتمتَّع بخبرة احترافية عالية.

بَقِيَت تفاصيل العمَليَّة سِرِّيَّةً، وكان يمكن لتطبيقها أن يفاجئ المتمردين الذين اعتادوا ضعف وحيرة الحُكُومة.

كان مسؤولو قوات الأمن يعلمون أنّ الجماعات اليسارية المتطرّفة المسلَّحة، الذين كانوا قد برزوا بلباس الإسلام، سيقاومون. فقد كان في طَهْرَانَ عدد من المسلَّحين "الفلسطينيين". لكن لم يكُن أحد يرى أنّ النجاح سيكون حليفه في مواجهة مع الجيش. وكان جميع المسؤولين يعلمون أنّ "القُوَّات الخاصَّة" ووحدات "القُوَّات الجويَّة" قادرة على قمع أيّ مقاومة محتمَلة من قبل المسلَّحين، وبالتأكيد كان معهم الحقّ.

لم يكُن من الفلسطينيين قلق، إذ لم يكونوا يعرفون الفارسيَّة. وكان احتمال اختفائهم بين الإيرانيِّين ضئيلًا. فقد كرههم الناس عندما أخذوا يظهرون في طَهْرَانَ وبعض المدن الأُخرى بالتدريج. بخاصَّة عندما كانوا يُغِيرُون على المنازل ويسرقونها. كان من المحتمل أن يفضِّلوا الفرار على البقاء حال رؤيتهم قُوَّة الحُكُومة وإصرارها الجِدِّيّ. كانت شبكات الاستخبارات تعرف بعض زعمائهم، وكانوا يعرفون أن من السهل "شراءهم". وكانت هذه طريقة للإسراع بعودتهم إلى لبنان أو أماكن أُخرى.

جاء "المحاربون" الفلسطينيون، أو العرب عمومًا، إلى إيران لأنهم حصلوا على الموافقة بالدخول، وغضَّت الحُكُومة الطَّرْف عن أفعالهم السيئة لكي لا تُزعِج الغربيين. فمكثوا في إيرانَ لأنهم كانوا يرون أنفسهم في أمان. وكانوا يشاركون في المصائب وعمليات القتل والنهب لأنهم كانوا يعلمون أنّ أحدًا لن يسألهم. لكن لو تَغيَّر موقف الحُكُومة، ولو حلّ استخدام القُوَّة مكان الضعف والتجاهل، لَمَا كان شيء يدعوهم إلى البقاء في إيران. لم يكُن يتواطأ معهم سوى الجماعات اليسارية المتطرِّفة الصغيرة، ولم يكونوا يُتقِنون الفارسيَّة: كان تَعقُّبُهم أمرًا في

غاية السهولة. ولو حصلت لهم أيّ مصيبة فما كان أحد ليحزن عليهم. ولو أرادوا المقاومة لمَا كانت مقاومتهم لتدوم.

بالنظر إلى هذه التفاصيل، تَوَقَّعَت قيادة الجيش أن لا يتجاوز عدد الضحايا المحتمَلين في هذه العمَليَّة خمسين شخصًا.

كان كلّ شيء جاهزًا.

وحانت لحظة تنفيذ العمَليَّة.

***

في يوم الأحد الخامس من نوفمبر عام 1978، حدثت اضطرابات شديدة في طَهْرَانَ. فقد هجم أنصار آية الله الخُمَيني بهمجيَّة على كثير من أفرع البنوك والفنادق والمراكز الثقافيَّة ومتاجر بيع الكتب ودور العرض السينمائي والمطاعم، وأخذوا ينهبون في كل مكان، ثمّ أحدثوا حرائق كبيرة.

في تلك الليلة بُثَّت مشاهد إخبارية عن هذه الحادثة في برنامج أخبار التليفزيون الوطنيّ المسائية. وكان أكثر هذه المشاهد قد أُعدّ مُسبَقًا. في تلك المشاهد صُوّر بعض الجنود وهم يتحصنون ويطلقون النَّار على الجموع. كما كان يمكن مشاهدة بعض الجُثَث. ومن أجل إضفاء نوع من الواقعية على تلك المشاهد، عرض التليفزيون صورًا جِدِّيَّة وحزينة لوجه الأستاذ عبد الله شيباني رئيس جامعة طَهْرَان المحتقِن، الذي كان قبل ظهر ذلك اليوم يطلب ملتمِسًا من طلبة الجامعة أن يلزموا الهدوء وأن يحافظوا على الجامعة.

القسم الأكبر من هذه المشاهد الخبرية كان مُجتزَأً من أخبار اضطرابات خارج إيران ومن فيلم روائي حول وصول الجنرال بينوشيه إلى السُّلْطة في تشيلي[1]. كان يكفي المشاهدين أن يمعنوا النظر في الزيّ العسكريّ الذي يرتديه الجنود في المشاهد "الإخبارية" ليعرفوا أنه ليس الزيّ العسكريّ الموحَّد وليست الخوذات

---

(1) يبدو أنها إشارة إلى الفيلم السينمائي الشهير الشيوعي الإيطالي Pontecorvo. (المترجم).

هي تلك التي يرتديها الجنود الإيرانيُّون. بالطبع لم تكُن المشاهد تحتوي على أيّ عمليات نهب ولا أيّ عمليات تخريب وإحراق.

لكن مَن كان يهتمّ بهذه "التفاصيل" غير المهمَّة في تلك الحالة من الغليان المسيطرة على الجوّ السياسيّ وعلى معنويات الناس؟

العجيب أنّه في لحظة بثّ الأخبار وُصِّل التيَّار الكهربائي ليتمكَّن الناس من مشاهدة هذا البرنامج. ومرة أُخرى لم ينتبه أحد أنه في الليالي السابقة كان يُفصَل التيَّار الكهربائي عمدًا حتى ساعات ما بعد انتهاء الأخبار، وذلك كي لا يتمكن أهالي المدن والقرى من مشاهدة الأخبار التي كان من الممكن أن تحمل في طيّها رسائل من الحُكُومة والمسؤولين. ولم يبادر أحد في ذلك الجوّ الفكري إلى استقصاء السبب وراء ذلك.

في مساء ذلك الأحد بدت عاصمة إيران كأنها مدينة تَعرَّضَت لهجوم جنود جنكيز خان. هذه المَرَّة كان الناهبون والحارقون مجموعات صغيرة نسبيًّا وتحت قيادة آية الله رُوح الله الموسوي الخُمَيني.

في المساء ذهب جعفر شريف إمامي عند الشَّاه وقدَم استقالة حكومته التي قُبلت فورًا، كانت حكومته تفتقر إلى الواقعية منذ زمن طويل، كانت وَهْمًا ليس أكثر. كانت العادة أن يكلّف الشَّاه رئيس الوزراء المستقيل بتسيير "أعمال الحُكُومة". لكن حتى التشريفات اللازمة لهذا الأمر لم تتمّ، لم تعد في الدَّولة "أعمال" ليسيّرها رئيس الوزراء وحكومته، لم تعُد هناك دولة.

***

كانت الأوضاع في تلك الساعات وخيمة لدرجة أن الشَّاه خرج من حالة الاكتئاب والحيرة التي سيطرت عليه مؤخَّرًا، وأمر أن يزوِّدوه بالتقارير حول أوضاع العاصمة أولًا بأول، لكنه أيضًا أصدر أوامره إلى قوات الأمن بأن يمتنعوا عن إطلاق النَّارصوب المتظاهرين، وأن يتجنَّبوا إراقة الدماء، وبهذا فقد أُطلقت عمليًّا أيدي "المخربين والناهبين والحارقين".

مع هذا بلغ الأمر مبلغًا لم يعُد يستطيع الشَّاه معه أن يجلس مكتوف اليدين مُبدِيًا لا مبالاته.

بالتدريج اجتمع عدد من قادة الجيش في غرف انتظار قصر صاحب قرانيه، مَقَرّ مكتب الشَّاه. كانوا جميعًا مكتئبين وغاضبين، وأوصلوا رسالة إلى الشَّاه مفادها أنه آن الأوان لفعل شيء ما، ولم يعُد الوضع يقبل التحمُّل[1].

استدعى الشَّاه رئيس التشريفات وقال: "أخبر أويسي أن يبقى في مكتبه وينتظر تعليماتي". يقول الدكتور أمير أصلان أفشار إنه أخبر القادة العسكريّين الموجودين بأوامر الشَّاه، وكان سرورهم فائق الوصف.

ومباشرةً أبلغ بعضهم زملاءه هاتفيًّا باتِّخاذ الإجراءات لتنفيذ عمَليَّة خاش سريعًا.

حسب رواية قائدهم، كان أفراد القُوَّات الخاصَّة قد ركبوا مركباتهم ليبدؤوا العمليات التي وُكِلَت إليهم دون إضاعة أي وقت.

في مطار مهرآباد وفي قاعدة دوشان تبه كانت الطائرات الموكول إليها نقل المعتقَلين المحتمَلين جاهزة.

كان أويسي قد جلس في مكتبه منتظرًا.

---

(1) حول أحداث هذه الليلة، بالإضافة إلى الوثائق الأخرى، انظر أيضًا رواية الدكتور أمير أصلان أفشار، رئيس التشريفات الملكية الذي كان حاضرًا وشاهدًا ويُعَدّ شخصية موثوقة ومحلّ اعتماد: مجلة برتو إيران، طباعة كندا، العدد 56، فبراير 1988. وكذلك حوار مع مطبوعة آرا، 11 سبتمبر 1978. بناءً على طلب منّي أيّد الدكتور أمير أصلان أفشار هاتين المقابلتين كتابيًا وأضاف تعليقات أخرى؛ أشكره جزيل الشكر على ذلك، فشهادته هي المصدر الأصلي لِمَا وُضّح في هذا الكتاب.

استُدعِيَ سفيرا الولايات المتَّحدة الأمْريكِيَّة وبريطانيا العُظمَى إلى القصر، وذهبا معًا لمقابلة الشَّاه، وكانت المِلكة قد دخلت في حوار مطوَّل مع زوجها... وهكذا، مرَّت ثلاث ساعات تقريبًا والجميع في حالة انتظار... كانت طَهْرَان أيضًا تحترق.

بعد هذا اللقاء استدعى الشَّاه رئيس التشريفات وقال له إنه قرَّر تكليف الفريق أزهاري رئيس هيئة الأركان، بتشكيل الحُكُومة الجديدة. فسأله أمير أصلان أفشار: "ماذا عن أويسي؟". أجاب الشَّاه: "اتَصِلْ به وقُل له: مع السلامة".

ذكر أمير أصلان أفشار في كتاباته المختلفة أنه عندما أبلغ هذا القرار للقادة العسكريّين الموجودين في القصر، أظهروا جميعًا انزعاجهم وحزنهم.

"في مراكش قال لي الشَّاه: إنّ سفيرَي أمريكا وبريطانيا كانا يعتقدان أنّ أويسي سيتصرف بحزم وسيزيد الأوضاع وخامةً، وأنه يجب اختيار شخصيَّة أكثر اعتدالًا لمنصب رئيس الوزراء ليهدِّئ الناس... اليوم ثبت لي بالتأكيد أنهم كانوا يريدون منّي مغادرة إيران"[1].

كما كتبت المِلكة في مذكِّراتها أنها كانت تعارض تعيين جنرالًا (أويسي) مشهورًا بالعنف[2].

بعد سنوات أشار شاهبور رضا، شقيق الشَّاه، في مذكِّراته إلى هذه القِصَّة: "كان (الشَّاه) يظنّ أنّ الأمْريكِيّين والإنْجِليز أصدقاؤه. لكنّ هؤلاء (الأصدقاء) أشاروا عليه بأسوأ رأي، فقد عرقلوا تعيين أويسي، الذي كان رجلًا حازمًا، وأوصوا بتعيين المشير أزهاري، الذي كان رجلًا مسالِمًا وكانوا يظنُّون أنّ بإمكانه التوصُّل إلى حلّ مع المعارضين"[3].

---

(1) رواية أمير أصلان أفشار.

(2) Farah Pahlavi, Me'moires, op, cit, P. 283. كتبت فنسان ميلان Vincent Meylan في سيرة الحياة المجازية التي نشرتها حول الكلمة: «كانت فرح دائمًا مؤيِّدة للاعتدال والابتعاد عن العنف». La veritable Farah, Pygmalion, Paris, 2000, P. 248.

(3) Gholam Reza Pahlavi, op, cit, P. 282.

هذه المرحلة من الأيام الأخيرة للملكيَّة في إيرانَ عجيبة في الحقيقة. وتطرح أسئلة كثيرة ما زال الجدل قائمًا حول كيفيَّة الإجابة عنها.

كان موقف الولايات المتَّحدة وبريطانيا العُظْمَى واضحًا: لقد كانوا يسعون لإسقاط النِظَّام المَلَكِيّ في إيرانَ، وكانوا من مؤيِّدي انتصار الثَّورة الإسلاميَّة. لم يكُن يهمّهم عمليات النهب والإحراق المستمرة في العاصمة الإيرانيَّة. ومئات المباني التي نُهبت وبعض القتلى والجرحى. لكنّ موقف الشَّاه بدا أصعب على الفهم، فسرعان ما اكتشف خطأه، وأشار إلى ذلك بصراحة في ما بعد: "لقد أخطأت في السماح بدخول السُّيَّاح بحُرِّيَّة، الذين أصبحوا مباشرةً قادة للاضطرابات وعمليات النهب والإحراق. اقترح عليّ الأمْرِيكِيُّون أنني يجب أن أمضي قُدُمًا في عمَليَّة منح الحريَّات. كان خطئي الكبير هو اتِّباع الأمْرِيكِيِّين والبريطانيّين. أعلم أنني أخطأت، لكنّ اتِّخاذ القرار في ذلك الزمان وفي تلك الظروف لم يكُن أمرًا سهلًا. في تلك اللحظة كنت أريد منع إراقة دماء أبناء وطني. الاعتقاد السائد اليوم هو أنه لو طُبِّق النِظَام وحُفِظَت حرمة القانون لكان عدد الضحايا أقلّ مئات المرّات عمَّا شاهدناه في هذه الأشهر الخمسة عشر"[1].

إنّ الغرب والأمْرِيكِيِّين كانوا يريدون تغيير النِظَّام في إيران. فهل وصلوا إلى أهدافهم؟ هل تُراعى حقوق البشر اليوم في إيران؟ هل قام نظام ديمقراطيّ في إيران؟ هل الحُرِّيَّة هي ما يحكم اليوم في إيران؟"[2].

لكنّ المِلِكة لم تقدّم تفسيرًا لموقفها حتى الآن. هل كانت مثل هذه السِّياسة ستُتَّخذ لو أنها كانت تؤيّد الحزم في مقابلة "الناهبين. ومشعلي الحرائق والقتلة" (الصفات التي أطلقها الشَّاه)؟ لا نعلم.

بعد هذه المشاورات والتحرُّكات اتخذ الشَّاه قراره بالترضية والتصرُّف بسلمية إزاء التمرُّد والمتمردين، بعبارة أُخرى قَبِلَ بتوصيات سفراء الولايات المتَّحدة وبريطانيا العُظْمَى.

---

(1) جرى هذا الحوار في نوفمبر 1980 مع صحيفة واشنطن بوست، ونُشر أيضًا في إيران تايمز.

(2) منقول عن الحوار نفسه، نُشرت الترجمة الكاملة له في إيران تايمز العدد 30 مايو 1980.

ترك الشَّاه مكتبه في وقت متأخر من المساء، وقال للمسؤولين في التشريفات الذين كانوا يؤدُّون عملهم وكانوا حاضرين هناك، إنه سيوجّه في الغد رسالة إلى الشَّعب الإيرانيّ عن طريق الإذاعة والتليفزيون.

أصبح الطريق إلى ارتكاب خطأ فادح -وربما المسمار الأخير في نعش ملكه وسلطته- ممهَّدًا.

***

في السادس من نوفمبر ذهب الشَّاه إلى مكتبه في الوقت المحدَّد وبالانضباط الذي كان معروفًا عنه.

بعد قرار الليلة السابقة استدعى الشَّاه رئيس هيئة الأركان وأبلغه بتعيينه رئيسًا للوزراء، أبدى الفريق أزهاري، الذي لم يكُن يتوقع إطلاقًا مثل هذا القرار، تَرَدُّدَه قليلًا إزاء قَبول اقتراح الشَّاه، فقال له الشَّاه إنّ هذا القرار أمرٌ، ولم يكُن في استطاعة عسكريّ سوى طاعة أوامر القائد الأعلى للقوات.

لم يكُن الشَّاه مخطئًا في إعلان حُكُومة عسكريَّة، وكان على حقّ، لكنّ الحُكُومة التي شُكّلت كانت حُكُومة عسكريَّة في الظاهر.

كان الفريق أزهاري، رئيس الوزراء الجديد، ضابطًا عالي الرتبة في هيئة الأركان، كان لفترة المسؤول عن تنسيق المهامّ لقوات حلف المعاهدة المركزية "سنتو" في أنقره، كان رجلًا فاضلًا، وقارئًا للتاريخ، ومعروفًا بصدقه، وكان يتمتَّع في الجيش باحترام خاص، لكنه لم يكُن مشهورًا بحزمه واستعماله للقوة، "كان يتمتَّع بجميع الصفات الحسنة، لكنه لم يكُن رجلًا يبحث عن السُّلْطة والمقام"[1].

يعتقد كثيرون أن هذا هو سبب تعيينه رئيسًا للحُكُومة، ومن المحتمَل أن يكون السبب في عدم موافقة المِلكة على تعيين أويسي.

(1) William Sullivan, Mission to Iran, op. cit, P. 178.

حسب ما كتبه محمد حسنين هيكل، الذي يبدو أنه تَقَصَّى ووجّه الأسئلة إلى بعض المحيطين بالمِلكة، فإنّ المجموعة المذكورة أخيرًا كانت تؤيّد بشِدَّةٍ مغادرةَ الشّاه إيران وتطبيق نظام "المِلكة الأمّ وولي العرش"[1]، أو الوصاية على العرش[2]. كان ما يقلقهم هو تعيين قائد يُعتبر ممثِّلاً لـ"الجناح الحازم المتشدد" للجيش، الأمر الذي يمكن أن يؤدِّي في النّهاية إلى ظهور نسخة إيرانية من "أيوب خان"[3]، أو "ضياء الحق"[4].

في هذه المحافل، كانوا يقارنون بين الفريق أويسي، الذي كان متدينًا ومراعيًا للشؤون الإسلاميَّة، وكانت له عَلَاقات حسنة مع المراجع الدِّينِيَّة، وأيوب خان، وعلى الأخص ضياء الحق، وكانوا خائفين من أن يتسلّم السُّلطةَ رجلٌ عسكريَ قويّ ومتديّن.

لا يمكن قَبُول هذه الفرضية دون تدقيق وتمحيص، بالطبع فقد كان أويسي معروفًا بحزمه، لكنّ شهرته في هذا الأمر كان مُبالَغًا فيها، كانت طاعته للملك طاعة عمياء، والأغلب أنه لم يكُن رجلًا انقلابيًّا.

ربما روّج الأصدقاء والمقرَّبون من المِلكة في الأشهر التالية هذه الإشاعات، لقد كانوا في ذلك الوقت مشغولين باتّخاذ الإجراءات لتعيين شابور بختيار رئيسًا للوزراء، وهو الذي لم تنتج عن رئاسته فائدة للدَّوْلة ولا للملكيَّة، وهو وصفٌ ذكروه وروّجوا له لاحقًا عندما أرادوا تبرئة أنفسهم وتبرير أخطائهم[5].

اختار الفريق أزهاري أعضاء حكومته في مساء اليوم الذي عُيّن فيه رئيسًا للوزراء، تَوَلّى كل واحد من رؤساء السُّلُطات الثلاث إحدى الوزارات، كما اخْتِيرَ عدد من الوزراء من بين العسكريّين.

---

(1) الكلمات المنصوص عليها في الدستور. (المترجم).

(2) M. H. Heykal, The Return of the Ayatollah, op. cit. P. 134 ets.

(3) جنرال باكستاني وصل إلى السُّلْطة بعد خلع الجنرال إسكندر ميرزا، رئيس الجمهورية الباكستانية، على أثر انقلاب سلمي.

(4) جنرال باكستاني وصل إلى السُّلْطة أيضًا بعد انقلاب عسكري.

(5) Barry Rubin, Pavid with Good intention, The American Experience in Iran, Oxford University Press.

عندما حضر الشّاه إلى مكتبه لتوجيه خطابه (الرسالة التي كان يودّ توجيهها إلى الشّعب الإيرانيّ)، تَوَجَّه بعض الوزراء العسكريّين إلى الوزارات التي نِيطَت بهم. وعلى العكس مِمَّا تَوَقَّع البعض والشائعات التي كانت قد انتشرت، فقد واجهوا استقبالًا حسنًا واحترامًا كاملًا.

ما حدث في قصر نيآفاران في تلك الساعات كان مؤشّرًا على الفَوْضَى المسيطرة على رأس السُّلْطة في الدَّولة[1].

استدعى الشّاه المرافقَ المناوب منوتشهر صانعي، وقال: "من المقرر أن يأتي فريق من الإذاعة والتليفزيون إلى هنا". قال: "صانعي إنهم موجودون وينتظرون أوامرك الميمونة". عندها أخذ الشّاه يمشي في مكتبه غاضبًا.

كانت جميع الشؤون المتعلقة بالشّاه تُنَفَّذ بدقة ونظام. كان كلّ شخص يعرف وظيفته والواجب الذي عليه القيام به، لكن هذه المَرَّة لم يكُن أحد في البلاط يعرف مَن الذي كتب خطاب الشّاه ومن سيُحضِره له. كان هذا العمل من المهامّ الحصرية لشجاع الدِّين شفا، المستشار الثقافيّ للبلاط الملكيّ، الذي كان قد غادر إيران في مهمَّة.

بعد بضع دقائق استدعى الشّاه منوتشهر صانعي مرة أُخرَى وقال: "على رضا قطبي[2] أن يحضرلي خطابي، فأين هو إذًا؟". كان صانعي جاهلاً بكل الأمور، فأخبر الشّاه أنه سيستفسر عن الأمر، وبعد دقائق أبلغ الشّاه أنّ رضا قطبي برفقة

---

(1) حَسَبَ ما رواه منوتشهر صانعي، رئيس تشريفات البلاط ومرافق الشاه الذي كان مناوبًا في ذلك اليوم، كان منوتشهر صانعي مُحِبًا للفَنّ وخبيرًا فيه، وكان مَحَطّ احترام الجميع، كان إلى جانب الملِك والملِكة حتى آخر يوم من إقامتهما في إيران، بعد سنوات عاد إلى بلده، وبعد مُدَّة طويلة نسبيًا أصدر المسؤولون في الجمهورية الإسلاميّة قرارًا بقتله هو وزوجته، ولم تُعقَد لهم حتى محاكمة «إسلاميّة» صورية. بالإضافة إلى هذه الرواية انظر مذكّرات الدكتور أمير أصلان، رئيس التشريفات الملكية، الذي كان حاضرًا وشاهدًا على جميع هذه الأحداث. مجلة آرا، 11 سبتمبر 1987، ومجلة برتو إيران، العدد 65، 1988، وكذلك ملاحظاته لكاتب هذه السطور التي تُعتبر تكرارًا لِمَا جاء في هاتين المجلتين.

(2) كان رضا قطبي قبل هذه الحادثة ببضعة أيام رئيسًا لمؤسّسة الإذاعة والتليفزيون، كان ابن خال الملِكة (ابن المهندس محمد علي قطبي ولويس صمصام البختياري) الذي كان يُعتبر -كما كانوا يقولون- أخًا للملكة، ومن مستشاريها المقرّبين.

حسين نصر (مدير مكتب الملِكة)، وكلاهما في مكتب الملِكة: قال الشّاه غاضبًا: "ما الذي يفعلونه عند الملِكة؟! الخطاب خطابي".

تَحدَّث أمير أصلان أفشار، رئيس التشريفات الملكيّة والرئيس المباشر لمنوتشهر صانعي، إلى الملِكة هاتفيًّا وأخبرها بغضب الشّاه ونفاد صبره.

بعد قليل حضرت الملِكة وبرفقتها رضا قطبي وحسين نصر من قصر نيآفاران إلى قصر صاحب قرانيه (القصران في ساحة واحدة)، حيث مكتب الشّاه، وذهبوا إليه مباشرة.

كان أصلان أفشار حاضرًا وشاهدًا على هذه الأحداث من البداية حتى النّهاية، ونشرها لاحقًا. سلّمَت الملِكة نَصّ الخطاب للشّاه، فقرأه الشّاه وقال: "كلا، يجب علَيّ عدم قول مثل هذا الكلام"، قال رضا قطبي: "لا يا جلالة الملك، لقد آن الأوان لكي تقفوا إلى جانب الشّعب، وعليكم التفضُّل بقول أشياء يرغب الشّعب في سماعها"، وأصرَّت الملِكة وكذلك حسين نصر على هذا الأمر.

يكتب شاهبور غلام رضا:

"كان عليهم إحضار نَصّ الخطاب فقط ليقرأه أخي ويُبدِي رأيه، لكنهم سلّموه إياه قبل دقائق من إلقائه وتسجيله، ولم يجد الفرصة حتى ليفكر في ما كان قد كُتب وما كان عليه قراءته وتسجيله. هذه الحادثة محيِّرة، وكانت كذلك بالنسبة إلينا"(1). يمكن أن تكون رواية شقيق الشّاه هذه انعكاسًا لِمَا فهمه البلاط من خطاب الشّاه.

استدعى الشّاه مُوَظّفي الإذاعة والتليفزيون. جلس خلف مكتبه، وبإرهاق شديد ولحن حزين وصوت مغصوص أخذ يقرأ النَّصّ الذي سلموه إياه، والذي كان قد أَلْقَى عليه نظرة خاطفة فقط، وخلال ذلك ارتكب عدة أخطاء لفظية، وهو أمر لم يكُن من عادته. كان نثر وإنشاء النَّصّ جميلًا، اعترف فيه الشّاه خمس مَرَّات بـ"أخطائه في الماضي"، ومنها عدم اهتمامه بتطبيق الدستور (الذي كان قد

(1) Gholam Reza Pahlavi, op, cit, P. 282.

أقسم على حمايته وتطبيقه)، ووعد أنه "من الآن فصاعدًا" سيمتثل للدستور، وأنه سيشرف على إجراء التغييرات السِّياسِيَّة اللازمة.

أبلغ الشَّاه الناس بتشكيل حُكُومة عسكريَّة، واعتبرها مؤقَّتة من أجل إعادة النِّظَام والهدوء، وتَعهَّد بتشكيل حُكُومة مدنية لاحقًا يكلِّفها بإجراء انتخابات "حُرَّة بالكامل".

كان بيت القصيد في خطاب الشَّاه هو جملة بقيت في الأذهان: "لقد سمعت صوت ثورتكم". وأضاف أنه لا يمكن لهذه الثَّورة أن لا تحظى بتأييده.

كان الناس قد فهموا عبارة واحدة من هذا الخطاب المنسجم الجميل الذي كانت له نتائج مشؤومة: "لقد سمعت صوت ثورتكم". لم تكُن كلمة "الثَّورة" قد استُعملت حتى تلك اللحظة بكل ما تحمله من معنى، وبهذا الخطاب حصلت "الثَّورة" على بُعد رسمي.

في نَصّ الخطاب، قَبِل الشَّاه في خمسة مواضع كان أحدها صريحًا، وبعبارات مختلفة، بعدم امتثاله للدستور، الدستور الذي هو حاميه وحارسه والمتكفّل بتطبيقه، وقبِل رَسْمِيًّا وعلنيًّا، أو أجبروه على القبول، بنقضه للقَسَم الذي كان قد أدَّاه، وانتهاكه للدستور. كان هذا الاعتراف يمنح مَجلِس الشُّورَى صلاحية خلع الشَّاه في حال لم يرضخ للضغوط الواقعة عليه وفي حال لم يرضخ "للتوقُّعات"، ولم يكُن هذا العمل، أو هذا التهديد، صعبًا في ظلّ الاضطراب والجوّ السياسيّ آنذاك.

بتوجيه هذا الخطاب أعلن الشَّاه، عامدًا أو غير عامد، نهايةَ مُلْكِه. كتب السير أنطوان بارسون، سفير بريطانيا العُظْمَى، في مذكِّراته بتاريخ ذلك اليوم: "هل يفهم الشَّاه في الأساس ما الذي قاله؟"(1).

كانت هذه الحادثة هي المرحلة النهائية من أحداث التمرُّد، أو "الثَّورة" التي أجبروا الشَّاه على إعلانها، وبعد مرور ثلاثين عامًا لا تزال مَحَلّ بحث وجدل المحلِّلين والمفسِّرين.

---

(1) Anthony Parsons, The Pride and the Fall, 1974-1979.

لا شكّ في حقيقة عدد من القضايا:

- بعد أن كلّف الشّاه رئيس هيئة الأركان بتشكيل "حُكُومة مؤقّتة"، قرر أن يوجّه خطابًا للشّعب الإيرانيّ.

- عند إلقاء وتسجيل الخطاب لم يكُن الشاه قد قرأ نَصَّه ولم يكُن يعرف محتواه. فقط استطاع أن يتصفّحه لدقائق معدودة.

- مسؤولية تدوين هذا الخطاب تقع على رضا قطبي وسيد حسين نصر (مدير مكتب الملِكة)، رغم اعتقاد البعض باشتراك آخرين فيه.

- ذكر الدكتور عباس ميلاني، أستاذ جامعة ستانفورد والمؤرّخ والمحلّل المعروف، في مقال له أنه نجح مؤخَّرًا في الحصول على مُسَوَّدة هذا الخطاب بخَطِّ رضا قطبي، وأنها بحوزته. وهذا بالطبع لا يعني أن رضا قطبي هو الكاتب الوحيد والمسؤول عن تحضير وتجهيز الخطاب. في هذا المقال أشار الدكتور ميلاني إلى أنه طلب من رضا قطبي مقابلته للتأكُّد من صِحَّة الموضوع أو عدمه، لكنه لم يتلقَّ رَدًّا على الإطلاق، وأضاف أنه في سبيل معرفة دور الملِكة في القضيَّة طلب مقابلتها مرتين، وقد وُوفِقَ على طلبه في البداية، ثمّ أُلغي الموعد في اللحظة الأخيرة[1].

بخلاف هذه المسائل التي لا يمكن الشكّ في صحتها، يجب القول إن المسؤولية السِّياسِيَّة والقانونيَّة في توجيه هذا الخطاب تقع على محمد رضا شاه البهلوي شخصيًّا، وقد قبِلَها لاحقًا بأسًى، وكان مستاءً بشِدَّة من رضا قطبي بسبب هذه القضيَّة وبعض الملامات الأُخرى التي وجّهوها إليه.

---

(1) أورد الدكتور عباس ميلاني تفاصيل هذه القِصَّة في مقال نشره في مجلة Persian Heritage، وهي مجلة فصلية تصدر في الولايات المتَّحِدة باللغتين الفارسية والإنجليزية، العدد 43، خريف 2007.
اعترف سيد حسين نصر، مدير مكتب الملِكة، بدوره الأساسي في تحضير متن الخطاب، وذلك في الحوار الذي أُجرِيَ معه بمناسبة حصوله على جائزة رئيس الجمهورية الإسلاميَّة الإيرانية الكبرى (محمود أحمدي نجاد) عام 2010، وكذلك في الكتاب الذي نشره على شكل حوارات مع رامين جهانبكلو أو في مقابلتين أخرَيَين نُشِرَتا أيضًا، كان مفادها جميعًا هو اتفاقه مع رضا قطبي حول النَّصّ الذي سُلّم للشاه، وأجبروه بتأييد من الملِكة عمليًا على تلاوته. (إيران شناسي، السنة 22، العدد 1 ربيع 1389ه.ش/2010 ميلاديًّا، صص22 و23 و52 و55).

المسألة الأُخرى هي: هل قرأَتِ المِلكة النَّصَّ مُسبَقًا وبشكل دقيق أم لا؟ لا شكّ في أنها ألحَت على الشَّاه لقراءته، وروايات أمير أصلان المتكررة لا يمكن تكذيبها، ولم تُكَذَّب.

فلو قرأت المِلكة النَّصّ بدِقَّة، فهل كان من الممكن أن تنتبه لتفاصيله ونتائجه السِّياسِيَّة والنفسية والقانونيَّة التي كان من الممكن أن يحتوي عليها؟

ليس لدينا جواب لهذه الأسئلة.

الدكتور علي أميني، رئيس الوزراء الأسبق الذي كان مشهورًا بصداقته للأمْريكِيِّين وتَقَرُّبه منهم -سواء كان هذا صحيحًا أو غير صحيح- أشار في مذكِّراته إلى أنّه كان من المناسب والأنفع للشَّاه أن يعترف بأخطاء حُكُوماته السابقة وأخطائه هو شخصيًّا في سبيل تهدئة الرَّأي العامّ[1].

صحيح أن الدكتور أميني كان قد أصبح مستشارًا للشَّاه في الأشهر الأخيرة ومن مقرَّبيه بعد مدة طويلة من الجفاء بينهما، لكننا لا نعلم هل اقترح مثل هذا الأمر على الشَّاه أم لا. على أي حال لقد كان أكثر خبرة وفهمًا من أن يكتب مثل هذا النَّصّ، ولا دليل على الإطلاق يشير من قريب أو بعيد إلى أنه كان له أَدْنَى تدخُّل في تحضير وكتابة النَّصّ.

هل هو الجهل، أم الخطأ، أم الخيانة والمؤامرة؟

عُرِضَت جميع هذه الافتراضات. المسلَّم به هو أنه كان نصًّا مشؤومًا وعاقبته كانت سيئة وزاد الفَوْضَى والحيرة المسيطرتين على الفضاء السياسيّ آنذاك، وكان ضربة لسلطة الشَّاه لا يمكن تفاديها.

على الرغم من هذا الخطاب المشؤوم، فقد كان لتشكيل الحُكُومة العسكريَّة أثر إيجابيّ على الرَّأي العامّ ومسير الأحداث لا يمكن إنكاره.

فوجود العسكريّين في السُّلْطة جعل كثيرين يمعنون التفكير والتدبُّر،

---

(1) انظر: إيرج أميني، بر بال بحران، نشر ماهي، طهران، 2009، ص541. أُدرِجَت ملاحظاته أيضًا في هذا الكتاب الذي يُعتبر سيرة حياة الدكتور علي أميني السياسيَّة.

انتهت فجأة الاعتصامات القائمة في البنوك، ومصانع صهر الصُّلْب، وبعض إدارات ومؤسَّسات الدَّولة بخاصَّة شركة الكهرباء الوطنيَّة وصناعة النِّفْط، وعاد التيَّار الكهربائي ثانيةً.

بدأت البنوك والفنادق ومتاجر الكتب ودور العرض والمؤسَّسات الأُخرَى التي كان عملاء الخُمَيني قد نهبوها وأحرقوها، بدأت في استرجاع ما خسرته، وازدهرت سوق الزَّجَّاجين في طَهْرَانَ فجأة!

في السابع من نوفمبر كانت طَهْرَان في هدوء تامّ، كانت وسائل المواصلات تَتَرَدَّد بشكل عاديّ، وكانت حُمَّى التمرُّد قد سكنت.

في خوزستان، سلّم عشرة أشخاص من لجنة قيادة اعتصامات صناعة النِّفْط، الذين كانوا جميعًا على ما يبدو أعضاء في حزب "توده"، أنفسهم للفريق بقراط جعفريان، قائد منطقة عسكريَّة مقرُّها الأهواز، وطلبوا منه أن يؤمّن عائلاتهم، فقد كانوا يظنُّون، بل كانوا متيقّنين من أنهم سيُعتَقلون ويُسجَنون، وكانوا حقيقة قَلِقِين على مستقبل أحبَّائهم، فطمأنهم جعفريان بهذا الخصوص، ثمّ أصدر أمرًا باعتقالهم مؤقَّتًا. كان تهديد الفريق للمعتصمين والحزم الذي أبداه سببًا في عودة صناعة النِّفْط للعمل.

في التليفزيون حلّ بعض الضُبَّاط الشباب الذين كانوا يعملون في قسم العَلَاقات العامَّة في الجيش، بلباسهم العسكريّ، مَحَلّ مذيعي الأخبار.

بعد تولّي الحُكُومة العسكريَّة، تواصل كثير من قادة الجماعات السّياسِيَّة المعارضة، مباشرةً أو عن طريق أقربائهم، مع الشخصيَّات التي كان يُقال إن لها عَلَاقات حسنة مع قادة الجيش، ليؤكّدوا لهم ولاءهم للشَّاه، وليبنوا مُجَدَّدًا جسور التواصل التي كانت موجودة من قبل[1].

كان محمد بهشتي (الملقَّب بآية الله) ويحمل الدكتوراه في الشريعة، والذي كان له في ما بعد دور بارز في حوادث الثَّورة وبداية الحُكُومة الإسلاميَّة، ويُحتمَل

(1) تواصل اثنان من القادة البارزين للحركة السياسيَّة آنذاك التي أصبحت تُسَمَّى "الثَّوْرة"،

بشِدَّة أن يكون له دور في أحداث الشغب التي كان مِن المقرَّر أن تجري في طَهْرَانَ في الخامس من نوفمبر (وربما ظنَّ الثوريُّون أنها ستكون نهاية الملكيَّة). كان متوجِّهًا بعد ساعات من فيينا عاصمة النمسا، إلى طَهْرَان، لكن توقفت طائرة الشركة البلجيكية "سابينا" في مطار أثينا توقُّفًا طالت مُدَّته بسبب أعطال فنِّيَّة، وهناك علم بمسألة تشكيل حُكُومة عسكريَّة في طَهْرَانَ بقيادة الفريق أزهاري، فغضب بشِدَّة وقال لمرافقيه: "لقد جَرَت خيانتنا"، ثمَ غيَّر بهشتي مسار رحلته إلى باريس ليتشاور هناك مع آية الله الخُمَيني[1].

هكذا كانت ثمانٍ وأربعون ساعة كافية ليشعر المعارضون بأنّ الأمور قد تَغَيَّرَت وأنهم في موقف ضعف، كان الجيش قويًّا ومحلّ احترام الناس، وكانت جميع المؤشّرات تشير إلى أنَ الشَّاه قد حقّق انتصارًا بعد أشهر من مواجهة "الثَّورة"، وأن من الممكن تغيير مجرى الأحداث.

***

قابل بعضَ قرارات "الحُكُومة العسكريَّة" ارتياح الرَّأي العامَ، ومنها عودة المؤسَّسة البهلوية، وتشكيل لجنة من قضاة المحكمة العُلْيا عالي الرتبة ممَّن لا شكّ في استقلالهم في الرَّأي وحيادهم، للتحقيق في ثروة بعض أعضاء العائلة المالكة.

وأثار بعضُ القرارات الأُخرَى أسئلةً كثيرة، منها اعتقال رئيس الوزراء الأسبق أمير عباس هويدا، الذي على الرغم من أنه لم يكُن معتقَلًا بمعنى الكلمة فقد وُضع تحت المراقبة في دار الضيافة التابعة لوكالة الاستخبارات وأمن

والذين ابتعدوا عن النِّظَام الإسلامي لاحقًا ويعيشون اليوم في باريس، مع كاتب هذه السطور. تَحدّث الأول عن احترامه العميق لـ"حضرة الشاه"، وطلب مني أن أشهد بذلك، وطلب أن أساعده في حال تَعَرُّض لمشكلة، وكان الثاني يبحث عن مكان يختفي فيه، وكان يعتقد أنّ بيتي مكان آمن! وكلاهما سيعرف نفسه بعد قراءتهم لهذه السطور. كما حدثت اتصالات مشابهة مع المرحوم الدكتور قاسم معتمدي رواها لي آنذاك، وبالطبع يوجد أشخاص وحالات أخرى مشابهة.

(1) رواية البروفيسور أبو القاسم بني هاشمي، مساعد عميد كلية داريوش الكبير الطبية في جامعة طهران، الذي كان يجلس إلى جانب الدكتور محمد بهشتي ويشاهد هذه الأحداث. أشكر هذا الصديق العزيز الذي أيد لي هذه الرواية خَطِّيًا في ما بعد.

الدَّولة. كانوا يريدون أن يُظهِروه على أنه المسؤول عن جميع الأخطاء السابقة ويحمّلوه مسؤولية كلّ شيء، كما جُلِبَ واعتُقِل بعض المسؤولين والشخصيَّات الأُخرَى دون أن تُوَجَّه إليهم أيّ تهمة محدَّدة. كان الشَّاه والمِلكة أبْدَيَا موافقتهما على اتِّخاذ هذه القرارات.

لم يدُم تَوَهُّم تغيُّر الأحوال طويلًا: كان على الدَّولة التصرُّف من منطلق القُوَّة، وأن تتحدث بحزم. وأن تعتقل مثيري الشغب ومفتعلي الحرائق والناهبين. كان رجال الأمن تَعَرَّفوا عليهم جميعًا ووضعوهم تحت المراقبة، لكنّ أيًّا من هذه الأمور لم يحدث.

كان سفيرا الولايات المتَّحدة وبريطانيا العُظْمَى يتردّدان على الشَّاه والمِلكة باستمرار، وكانا يحثّانهما على التعامل بسلمية وتفاهم مع المعارضين. كان هذا هو موقف بعض "الأصدقاء" و"المقرَّبين" من المِلكة أيضًا.

كان من الممكن أن يكون الدكتور علي أميني هو الشخصيَّة المناسبة بعد الدكتور جمشيد آموزكار لتولِّي منصب رئاسة الوزراء، ليعيد، على الأقل ولو بشكل مؤقَّت، الأمور إلى نصابها، لكنّ الشَّاه لم يكُن يُحِبُّه، بل وكان يتجنَّب استقباله، لكن في هذه الفترة عادت علاقته بالشَّاه، لقد أصبح هو وبعض المُسِنِّين المنسيّين من المحيطين بالشَّاه والمِلكة ومن مستشاريهم، فقدّموا هم أيضًا توصياتهم للشَّاه والمِلكة لكي "يُزِيلا سوء التفاهم" مع المعارضة وينتهجا معهم السلمية والتفاهم، بخاصَّة اجتناب العنف.

لم يكُن الجميع يعتقدون بذلك.

كان آية الله العُظْمَى شريعتمداري وبعض القادة الروحيين يُبدُون قلقهم إزاء الأوضاع، وكان طيف واسع ومؤثّر من النقابات المحلِّيَّة في العاصمة، خصوصًا جمعية الضُبَّاط المتقاعدين المقتدرة، وكذلك عدد من الأكاديميِّين والمفكِّرين والتُّجَّار، يحذّرون الملك من الاستسلام للمتمرِّدين ومن عواقب هذا الأمر الوخيمة. لكنَّ أحدًا لم يكُن يُصغِ إلى تحذيراتهم، كان الأصدقاء والأوفياء قد أُبعِدُوا، وأصبح الأعداء هم المقرَّبين.

كان الشَّاه يخشى الحرب الأهلية، وكان يريد تَجَنُّب سفك الدماء، الحقيقة أنه لم تعُد لديه القدرة على المقاومة، وكان قد استسلم نفسيًّا.

مع هذا، كان لا بدّ للأيام الأولى من حُكُومة أزهاري وتراجع المعارضين من أن تجعله يعتقد أن أمامه طريقًا آخر غير الاستسلام.

كان معارضو الحُكُومة وأعداء الشَّاه يتمتَّعون بحرِّية العمل التامَّة، وكان مؤيِّدوه وأصدقاؤه والمدافعون عن الحُكُومة وحرمة القانون يُتجاهلون، حتى إنهم كانوا يُمنَعون من ممارسة نشاطاتهم.

فرصة أُخرَى ذهبت هدرًا.

***

في النِّهاية قدّم رئيس الوزراء حكومته للمَجلِس. لم يكُن خطابه يليق بعسكريّ مقتدرٍ. كان قد حقَق انتصارات مؤقَّتة، أشار إلى المسائل الدِّينِيَّة، والتمس المساعدة من الآيات العظام.

عُزِلَ رؤساء السُلُطات الثلاث الذين كانوا أعضاء في الحُكُومة، وكان حضورهم سيُضفِي عليها هيبة، وكان المفترَض أن تكون الأوضاع "طبيعيَّة"، لكنها كانت وخيمة، في حين كان الشَّاه قد أضفى على الثَّورة الصبغة الرَّسْميَّة.

بعد عشرة أيام من تَوَلِّي الحُكُومة العسكريَّة السُّلْطة، كانت قد تحوّلت إلى مجموعة من المُوَظَّفين السياسيِّين الجبناء وفاقدي بُعد النظر والبصيرة.

في تلك الأثناء أُصِيبَ الفريق أزهاري بنوبة قلبية. لكنه برجولةٍ بقِيَ على رأس عمله لكي يُظهِر أنه قادر على مواجهة المشكلات.

كان عملًا بلا طائل. وكان احتضار النِّظَام قد بدأ.

***

كان الشَّاه قد أعلن أن "الحُكُومة العسكريَّة" مؤقَّتة بالتأكيد.

سفيرا أمريكا وبريطانيا وبعض الشخصيَّات السِّياسِيَّة المسنَّة التي كانت قد وجدت لنفسها مكانًا على الساحة السِّياسِيَّة تحت اسم "الرجال القدامى"، دائمًا ما كانوا يُوصُون الشَّاه والمِلِكة بـ"حل سياسيّ" للأزمة.

كان الفريق أزهاري مريضًا، وكان يرتاح على فراشه في مقرّ عمله. كان ضعيفًا.

لم تحتفظ مفاوضات الشَّاه والمِلِكة مع هذا وذاك من أجل إيجاد "حلّ سياسيّ" بسرِيَّتها، وكانت تزيد ارتباك الدَّولة.

كانت الدَّولة مشلولة وضعيفة. كان المسؤولون الحُكُوميّون يخبرون المعارضة المتطرّفة (بعبارة أُخرَى أنصار آية الله الموسوي الخُمَيني) بأنّ لديهم حرية العمل، وأن لا يخشوا ردّ فعل قوات الأمن. كانت أحكام الحُكُومة العسكريَّة سارية بشكل رسميّ، لكنها لم تكُن تُطَبَّق عمليًّا. كان الحفاظ على حماسة الثَّورة يحتاج إلى ضحية، فكان "الثوريّون"، حَسَب اعترافات محسن رضائي لاحقًا، يسرقون الجثث ويُقِيمُون مراسم تشييع لضحايا غير موجودين، وكانوا يدعون المراسلين الأجانب والمحلِّيِّين للتصوير وإعداد تقاريرهم، لتستمر الفَوْضَى بأي ثمن كان.

كُلِّف الشَّاه عبد الله انتظام، وزير خارجيَّة حُكُومة الفريق زاهدي، الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لِمَجلِس الإدارة والمدير التنفيذي لشركة النِّفْط الوطنيَّة وبقي لسنوات في هذا المنصب المُهِمّ، بتشكيل حُكُومة ائتلافية.

كان عبد الله انتظام في السبعين من العمر ويعيش سنوات تقاعده، على الرَّغم من الاحترام الذي كانوا يُكِنُّونَه له وعضوية المجالس العُلْيا المتعددة التي

كانت تستوجب تردُّده على البلاط. إلا أنه كان يعتبر نفسه بلا فائدة و"ضحية" للنِظام، كانت نِكاتُه التي كان يطلقها على الجميع والكنايات التي كان يتفوَّه بها متداوَلة بين الجميع. كان هذا التصرُّف سببًا في أن يَحظَى باهتمام عند المعارضين. رفض انتظام قبول المهمَّة التي وكلها الشَّاه إليه. لكنه استمرّ في تَردُّده على البلاط لتقديم توصياته بخصوص التعامل "بسلمية" مع المعارضين وحفظ "سياسة التفاهم".

طلب الشَّاه من محمد سروري، البالغ من العمر ما يقارب تسعين عامًا، نفس الطلب. كان سروري قد عُيّن في أربعينيات القرن العشرين وزيرًا عدة مرات، وكان لفترة طويلة رئيس المحكمة العُليا. كان رجلًا حسن السمعة، على الأقلّ بالنسبة إلى مَن كانوا يعرفونه. لكنه هو أيضًا اعتذر.

تمّ التوسُّط لدى الدكتور محمد نصيري، رجل القانون المعروف الذي كان من رفقاء مصدَّق، والمدير العامّ للبنك الإيرانيّ الوطنيّ في عهده، وكان لبضع سنوات عميد كلية القانون والعلوم السِّياسِيَّة بجامعة طَهْرَان. وكان رجلًا معروفًا بالمسالمة وبعَلَاقاته الحسنة مع جميع الأحزاب السِّياسِيَّة في الدَّولة. وكان مَحَلّ احترام كثير من رجال الدِّين أيضًا. أبدى نصيري شكره لهذه الثِّقَة التي وضعها الشَّاه فيه، لكنه أجاب بأنه ليس "رجل المرحلة"، حتى إنه اعتذر عن الذهاب إلى البلاط.

لكن المفاوضات مع الدكتور غلام حسين صديقي، الأكاديميّ البارز الآخر الذي هو في الحقيقة وريث مصدَّق السياسيّ والمكمل لنهجه، وصلت إلى مراحل جِدِّيَّة.

كان الدكتور صديقي، أستاذ جامعة طَهْرَان المتاز، المؤسِّس لمؤسَّسة الدراسات الاجتماعيَّة في هذه الجامعة، كان في عهد مصدَّق وزيرًا للبريد والبرق، ومن ثمّ وزيرًا للدَّوْلة ونائبًا لرئيس الوزراء، بعد عزل مصدَّق أدَّى هو دوره باعتزال السِّياسة. كان يتمتَّع باحترام كبير في الوسط الأكاديميّ، وكان معروفًا لدى المفكِّرين غير الأكاديميّين وحتى لدى أصحاب السُّوق.

قبل استدعائه لمقابلة الشَّاه. سئل هل سيقبل بمقابلة الشَّاه أم سيعتذر إذ طُلب منه الذهاب إلى القصر. كما وضّحوا له الهدف من اللقاء. في اللقاء الأول قال الشَّاه لصديقي إنه سيعيّنه رئيسًا للوزراء بصلاحيَّات كاملة، وسيطلب من الجيش أن يكون طوع أمره، فهو يريد أن يغادر إيران ويستريح قليلًا. وحسب العادة، ففي غيابه سيُشكَّل مَجلِس وصاية يؤدِّي وظائف رئيس الدَّولة الدستورية.

عارض الدكتور صديقي خروج الشَّاه من البلد، وأخبره أنه قادر على إعادة الأمور إلى نصابها، لكن من الأفضل للشَّاه بعد تشكيل مَجلِس الوصاية الذي سيمنحه قليلًا من السكينة، أن يغادر إلى قاعدة عسكريَّة على ساحل الخليج العربيّ، وإلا فسيضعف الجيش الذي يُعتبر انسجامه أمرًا ضروريًّا لأمن الدَّولة ولتعود الدولة إلى الوضع الطبيعيّ. كان هذا هو شرط صديقي لقبول رئاسة الوزراء، وهو ما رفضه الشَّاه.

كان الدكتور صديقي رجلًا وطنيًّا وحازمًا ومؤمنًا، حتى إن معارضيه كانوا يُكِنُّون له احترامًا كبيرًا. لم يكُن يُعرف عنه التزامه الديني، وكان مثل مصدَّق يدعم فكرة فصل الدِّين عن السِّياسة.

مع هذا كانت له عَلَاقات مع كثير من المرجعيات الدِّينِيَّة العُلْيا: كان رجل المرحلة ورجل الساحة، كان يمكن أن يكون شعاعًا آخر من النور يضيء درب إيران، ومع استثنائه فَقَدَ الملك والملِكة فرصةً أُخرى.

بعد صديقي تَوَجَّه الشَّاه نحو "مُعارِض" تاريخيّ وقديم آخَر هو مظفَّر بقائي. كان بقائي في زمن خلا صديقًا ورفيقًا لمصدَّق، وكان يُعتبر الرجل الثَّاني في الجبهة الوطنيَّة، ثمَ اعتزله وانضمَ إلى أنصار الجنرال زاهدي، واعتزله هو أيضًا. لم تكُن له مكانة ومنزلة صديقي، لكنه كان معروفًا بحزمه.

بعد اجتماعين تفاوُضيَّين مطوَّلين مع الشَّاه، جاءا بعد خمسة وعشرين عامًا من القطيعة، وبعد لقاء دام ساعة مع المِلكة، طلب بقائي أيضًا من الشَّاه أن يغادر طَهْرَان لِمُدَّة أسبوعين على الأقل، ويقيم في قاعدة عسكريَّة -اقترح بقائي قاعدة "وحدتي" في مدينة همدان- لكي يكون رئيس الحُكُومة مُطلَق اليدين

في تنفيذ برامجه، حتى إنّ بقائي لم يكُن يرى أنّ من الضروريّ تشكيل مَجلِس وصاية. في الحقيقة كان ينوي، بعد مشاورات مع بعض قادة الجيش، أن يُجرِي عمَليَّة "خاش"، لكن بقوة وحزم أشَدّ، وأن يجعل المعارضين المتطرِّفين والمخربين يركعون، ثمّ يهيئ الظروف لانتخابات حرة بالكامل.

كان مشروعه قابلًا للتطبيق، ويمكن أن يكون ناجحًا، فقال له الشَّاه إنه لا بدّ من خروجه من إيران، ومع هذا فقد تظاهر بأنه سيَختاره رئيسًا للوزراء، وانشغل بقائي بالاستعدادات.

لاحقًا، سمع بقائي من الإذاعة خبر تعيين رئيس الوزراء الجديد الذي سيخلف الفريق أزهاري[1].

في حين كان الشَّاه والمِلكة يبحثان عن شخصيَّة لرئاسة الوزراء معارِضة للحُكُومة، أو على الأقل بعيدة عن البلاط وأصحاب القرار، لكي يتمكَّنا بذلك، حسب تَوَهُّمهما، من إرضاء المعارضة والأمْرِيكِيِّين والإنْجِلِيز الذين كانوا يرغبون في مغادرة الشَّاه إيرانَ بسرعة. طُرِح "حلّ" آخَر في كثير من المحافل السِّياسِيَّة، بخاصَّة الجيش، هو التوسُّل إلى أردشير زاهدي ليرأس الحُكُومة.

كان أردشير زاهدي ابن قائد الجيش الذي أعاد الشَّاه إلى العرش قبل خمسة وعشرين عامًا، كان سفيرًا في بريطانيا العُظْمَى وفي الولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة، ثمّ وزيرًا للخارجيَّة لِمُدَّة خمسة أعوام، وقبل سبع سنوات من ذاك التَّاريخ أصبح مجدَّدًا سفيرًا في واشنطن.

---

(1) جميع هذه الأحداث وردت بالتفصيل في كتابي الآخر (آخرين روزها، بايان سلطنت ودركذشت شاه، ترجمة مريم سيحون وبهروز صوراسرافيل، انتشارات كتاب)، بخاصَّة في الطبعة الثانية.
أتقدّم بجزيل الشكر لصديقي العزيز الدكتور داريوش شيرواني، عضو مجلس الشورى، الذي كان الرابط الأساسي بين الشاه والمِلكة، ومظفر بقائي، والذي روى لي تفاصيل هذه القِصَّة، فقد كان أردشير زاهدي حاضرًا في الاجتماع النهائي للتحضير لجدول أعمال بقائي، وهو كذلك أيّد هذه القِصَّة. كان هذا الاجتماع أقيم في منزل الدكتور شيرواني.

كان متزوجًا بشهناز ابنة الشَّاه لسبع سنوات، وقد كانت البنت الوحيدة لمحمد رضا شاه من زوجته الأولى الأميرة المصرية فوزية. كان يُقال إن زواجهما كان عن حبّ لا عن مصلحة، وحتى بعد انفصاله عن زوجته بقي أردشير زاهدي من زُمرة المقرَّبين من الشَّاه.

عندما تَوَلَّى وزارة الخارجيَّة أجرى إصلاحات مهمَّة في تلك الوزارة، كما بادر بالتقارب مع الدُّوَل العربيَّة، بخاصَّة مصر، وسعى لإقامة عَلَاقات سياسيَّة مع دول إفريقيا، وفي سنوات مَهَمَّته الأخيرة في واشنطن، نتيجةً لمآدبه المجلَّلة واستقباله الحميم للمدعوِّين وعَلَاقاته الوديَّة مع مختلف المحافل، حصل على أصدقاء كثر، وكذلك أعداء كثر، بلغ بهم الأمر اتهامه بالتدخُّل في الشؤون الداخليَّة لأمريكا!

في شهر سبتمبر استدعاه الشَّاه إلى طَهْرَان ليساعده في فهم طبيعة العلاقة الإيرانيَّة-الأمْرِيكِيَّة، وهي القضيَّة التي أصبحت جوهريَّة في الوضع السياسيّ الداخليّ المتأزّم، أو أنه أراد أن يكون إلى جانبه شخص ثقة.

عندما وصل زاهدي إلى مطار طَهْرَان، فعلى خلاف المعتاد إذ كان يسافر ويعود دون جَلَبة، كان في انتظاره حشد كبير من قادة الجيش، ورجال السِّياسة، سواء المتقاعدون منهم والذين ما زالوا يمارسون عملهم، والصحفيين ومجموعة من نُوَّاب المَجلِس والشُّيُوخ... كلّهم كانوا يعتقدون أن في تعيينه رئيسًا للوزراء حلًّا للخروج من الأزمة السِّياسِيَّة.

منذ ذلك الحين أصبح مقرّ إقامته في منطقة حصارك، الواقعة في مرتفعات شمال طَهْرَان، مكانًا يتردَّد عليه كثيرون، وكان في الأيام الأخيرة مليئًا بالناس الذين جاؤوا جميعًا يطلبون منه أن "يفعل شيئًا"[1].

---

(1) وردت حادثة «التوسُّل إلى زاهدي» بالتفصيل في كثير من الكتب التي نُشرت في بريطانيا وأمريكا حول نهاية النِّظام المَلَكِيّ البهلويّ والثَّورة الإسلاميَّة، على سبيل المثال انظر:

Gene E. Bradley, The Story of One Maar's journey in Faith, X Ion Press, 2003, P. 63-69./ Michael Ledeen et Willian Lewis op, cit./ Sir Eldon Griffiths, Turbulent Iran... op, cit./ .Mike Evans, op, cit

كان أردشير زاهدي يتمتَّع بعلَاقات وُدِّيَّة مع كثير من رجال السِّياسة الأمْريكِيِّين، خصوصًا الجمهوريِّين منهم، كان يعرف أشخاصًا من ذوي النُّفُوذ في جميع أرجاء العالَم، وكان يمكن لذلك أن يكون ذا فائدة، وعلى الرغم من بُعدِه عن إيران في السَّنَوات الأخيرة فإنه استطاع إقامة عَلَاقات مع بعض الشخصيَّات المعروفة بمعارضتها للحُكُومة، وكذلك بعض المراجع الدِّينِيَّة، بخاصَّة آية الله العُظْمَى الخوئي.

كان تَفوُّق أردشير زاهدي على سائر السياسيِّين في إيران، سواء المعارضون منهم والموالون، يكمن في نفوذه في الجيش، بسبب الذكرى الحسنة التي تركها والده بين العسكريِّين، وأيضًا بسبب علاقته مع بعض قادة القُوَّات المسلَّحة من أصحاب النُّفُوذ، كان يُقال إن كثيرًا منهم مثل الفريق أويسي[1] واللواء منوتشهر خسروداد[2] واللواء يزدجردي[3] واللواء عباس شفاعت[4]، وخصوصًا الفريق بقراط جعفريان، قائد جيش الجنوب الذي نجح في إقامة الهدوء في منطقة خوزستان النِّفْطيَّة والهادئة وذلك بإنهاء الاعتصامات[5]، كانوا موافقين على ترَؤُّسه الحُكُومة، ولم تكُن شعبيته بين أفراد الحرس المَلَكِيّ أيضًا تخفى على أحد.

في هذه الأثناء خصَّصَت صحيفة لندنية مُهِمَّة خمسة أعمدة لهذا الاحتمال، واعتبرته "الشخص الوحيد الذي يمكن أن ينقذ الشَّاه"[6].

---

(1) القائد الأعلى للقوات البرية وقائد طهران العسكري، قُتل في باريس بعد مرور خمس سنوات على الثَّوْرة على يد عملاء الجمهورية الإسلاميَّة.

(2) قائد القُوَّات الجَوِّيَّة، الذي قُتل فوق سطح مقرّ إقامة آية الله الخُمينيّ في أيام الثَّوْرة الأولى.

(3) قائد حامية مشهد العسكرية والقائد العسكري لتلك المدينة، الذي عمل على استقرار الهدوء فيها، هو أيضًا قُتل بأمر من الخُمينيّ وقادة النِّظَام الإسلامي.

(4) قائد لواء المظليين في شيراز، الوحدة الأكثر فاعلية في الجيش، بعد الثَّوْرة أعموا بصره في البداية ثمَّ قتلوه.

(5) هو أحد أبرز ضباط الجيش عالي الرتبة، كان معروفًا بأمانته وحزمه، وكان يتمتع بشعبية بين ضباط وأفراد الجيش، بالإضافة إلى قيادة جيش الجنوب، الذي كان يشتمل على فرقتين مدرَّعتَين، اختِيرَ قائدًا عسكريًّا لكل خوزستان، رتَّب ونظَّم شؤون تلك المحافظة بحزم وحسن تدبير، وفي زمن رئاسة شابور بختيار للحكومة استدعاه المشير قره باغي، رئيس هيئة الأركان آنذاك، إلى طهران، ووبَّخه بسبب عنفه مع المتظاهرين، وفي طريق عودته فجَّر الإرهابيون المروحيَّة التي كانت تُقِلُّه إلى مقرّ قيادته، واستُشهد على الفور.

(6) One man who might Rescue the Shah, Sunday Times.

كتب اثنان من المحلِّلين الأمْرِيكِيِّين أيضًا أنّ "زاهدي يَعتبر القيام بانقلاب عسكريّ أمرًا سهلًا، بشرط أن يسمح الشَّاه لأصدقائه بحُرِّية العمل بعد مغادرته إيران... لقد كان يملك أفضل الإمكانيَّات لإنقاذ الدَّولة"[1].

من جهة أُخرَى، كان لزاهدي معارضون ومنتقدون كثر، كانوا يتّهمونه بالعنف وعدم احتمال مخالفة قراراته. كما أنّ البريطانيّين كانوا يعارضون تعيينه، ولم يكونوا يُخْفُون معارضتهم.

في البلاط كان كثيرون يعارضونه، منهم بعض أفراد العائلة المالكة. وبالأخَصّ إحدى شقيقات الشَّاه وبعض أصدقاء ومقرَّبي المِلِكة. ولم يكُن زاهدي بدوره يُخفِي معارضته لهم، وكان يعتقد بوجوب "غربلة البلاط".

على أي حال، كان قد اتُّخِذ تدبيرٌ لوصوله إلى السُّلْطة، فقد تواصل المقرَّبون منه مع آية الله الخوئي، ويبدو أنه كان يوافق على هذا القرار. أرسل الخوئي خاتَمَه العقيق الأخضر إلى زاهدي علامةً مَحَبَّة، لكي يقدِّمه هو بدوره للشَّاه لاجتناب الثرثرة واختلاق المشكلات حول هذه المسألة.

اتُّفق على أن يَعْبُر آية الله العُظْمَى الحدود بين إيران والعراق مشيًا على الأقدام رمزًا لإنهاء "النفاق بين المسلمين" وإيجاد "وحدة الكلمة"، ثمّ يتوجه إلى طَهْرَان ومن ثمّ إلى قم، متنقِّلًا من محطة إلى محطة، وفي هذه الحالة بالتأكيد سينضمّ إليه آلاف الأشخاص، وسينتج عن ذلك حركة تطغى على مظاهرات أنصار الخُمَيني وتخلق جوًّا سياسيًّا جديدًا. كان الجميع يظنّون أنه بدعم الجيش والحُكُومة لهذه الحركة الدِّينِيَّة والشَّعْبيَّة العظيمة ستصبح عندها حركة شاملة وستُعيد الأمور إلى نصابها[2].

(1) Michael Ledeen et William Lewis, Debacle, op, cit, P.204.

(2) العلاقات التي أقيمت في هذه الفترة مع آية الله العظمى الحاج أبو القاسم الخوئي، الرجل الأول في سلسلة المراجع الشّيعيّة، والدور الذي كان يمكن له أن يلعبه أو كان يريد أن يلعبه، لم يكُن قد اتضح بشكل كامل، وسيتحدث أردشير زاهدي عن ذلك في الفصل الأخير من مذكّراته مع ذكر الوثائق الموجودة. أشكره جزيل الشكر على المعلومات التي زودني بها خلال المكالمات الهاتفية التي جرت بيننا.

ومن أجل تنفيذ مشروع أنصاره، وربما من أجل قياس ردّ فعل الناس، ذهب زاهدي في زيارة إلى ضريح حضرة عبد العظيم، الكائن في شهرري في ضواحي طَهْرَان، ومن ثمّ تَوَجَّه بطائرة عسكريَّة لزيارة ضريح الإمام الرضا في مشهد وبرفقته بعض العسكريّين، وهناك التقى بعض رجال الدين، وطمأنهم أنّه "قريبًا ستهدأ الأمور"، وفي كلا المكانين لَقِيَ ترحيبًا. اتُّخِذ مقرّ حامية باغشاه في وسط العاصمة طَهْرَان ومركز قيادة اللواء خسروداد، مقرًّا لتنفيذ هذه العمَليَّة.

كان أنصار تعيين زاهدي يظُنُّون أنّ كلّ شيء سيعود إلى طبيعته بمجرَّد تعيينه رئيسًا للوزراء. في الحقيقة لقد كانت هذه العمَليَّة تشبه كثيرًا تلك التي جرت قبل ربع قرن ونتج عنها عزل مصدَّق وتسلُّم الجنرال زاهدي زمام السُّلْطة. لقد أراد الابن أن يمشي على خُطَى والده، كان مِن المقرَّر في هذه العمَليَّة أن يلعب آية الله العُظْمَى الخويي الدَّوْر الذي لعبه آية الله العُظْمَى البروجردي قبل خمسة وعشرين عامًا.

مع هذا كلّه امتنع الشَّاه والمِلكة عن تعيين زاهدي رئيسًا للحُكُومة، فقد كانا يخشيان "شِدَّته"، كانا يظنَّان أنّ محافل الحزب الديمقراطيّ، التي كانت تسيطر على الحُكُومة في أمريكا، ستُبدِي ردّ فعل سلبيًّا، في حين أن دعم بريجنسكي

الجميع يعلم أنّ آية الله العظمى الخوئي لم يكُن يُحسِن الظنّ بآية الله الموسوي الخُمينيّ، ولم يكُن يُبدِي له اهتمامًا في النجف، بل كان ينظر إليه باحتقار. في الثامن من نوفمبر 1978 استقبل الخوئي المِلكة فرح في مقر إقامته في النجف، واستمرت مفاوضاتهما ثلاثين دقيقة، التي بطبيعة الحال لم يكُن فيها مترجم، وبعد انتهاء اللقاء أعلن الناطق باسم آية الله العظمى أنّ الأخير قد أبلغ الشاه عن طريق المِلكة باهتمامه، داعيًا الله أن يوفق الشاه لخدمة الشعب، كان معنى هذه الكلمات هو دعم الشاه ضدّ تمرّد آية الله الخُمينيّ وأتباعه، لكن النِّظَام الذي كان يُحتضر لم يستغلّ هذه الورقة الرابحة أدنى استغلال، ليس معلومًا لماذا في الأساس ذهبَت المِلكة إلى العراق وإلى النجف لزيارة ضريح الإمام علي ولقاء آية الله العظمى، ولماذا قابلت صَدَّام حسين، رجل العراق القوي آنذاك.

الحقيقة أن النِّظَام في ذلك الزمان كان قد فقد اعتماده على النفس وأهمل أتباعه والجيش.

كانت نتيجة سفر المِلكة إلى النجف ولقائها آية الله العظمى بضع صور نُشرَت، وربما أيضًا لم تُنْتَقَ بدِقَّة.

أتقدّم بجزيل الشكر والامتنان إلى صديقي العزيز الدكتور هادي هدايتي، أستاذ جامعة طهران ووزير التربية والتعليم الأسبق، الذي وضع بين يَدَيَّ بعض الوثائق المُدرَجة في هذا الفصل.

لزاهدي لم يكُن خافيًا على أحد. كانوا يقولون إنّ اسم زاهدي وحده كفيل بأن يهيّج البعض دون سبب، وفي هذا إشارة إلى أتباع مصدَّق. ربما كان القلق الأساسيّ هو أن يحتفظ أردشير زاهدي بالسُّلْطة، على عكس والده، في حال وصل إلى السُّلْطة بدعم من الجيش وآية الله العُظْمَى الخوئي وبعض المرجعيات الدِّينِيَّة الأُخرَى كآية الله شريعتمداري. لكنّ زاهدي لم يُقدِم على فعل شيء قبل صدور فرمان تعيينه رئيسًا للوزراء. أي إنه في الحقيقة لم ينفّذ انقلابًا عسكريًّا.

هل كان بإمكانه النجاح وإنقاذ بلاده من الهلاك بتَسلُّمه الفرمان أو مِن دُونه؟ لا يوجد لدينا جواب لهذا السؤال. لكن المؤكَّد أن التَّاريخ كان بإمكانه اتّخاذ مسار مختِلف.

بعد أقلّ من أسبوعين على تشكيل "الحُكُومة العسكريَّة" التي سرعان ما أصبحت عاجزة، كانت الدَّولة في هرج ومرج كاملَين. ولم يكُن في سفينة الحُكُومة دَفَّة ولا قبطان. كان لا زال بالإمكان التصرُّف والسيطرة على المشكلات، لكن لم تكُن الإرادة موجودة. كانت الحُكُومة تعيش أيام عمرها الأخيرة.

بعد الانفراج الذي حدث نتيجة تَوَلّي أزهاري رئاسة الحُكُومة، مرة أُخرَى أدَّت الاعتصامات المختلفة في العاصمة طَهْرَان، ومنها اعتصامات الإدارات والبنوك وانقطاع التيَّار الكهربائي، إلى شلل في الحياة يكاد يكون كاملًا.

كانت المتاجر تفتح وتغلق أبوابها، وكانت المدارس الابتدائية والمتوسطة مشغولة بالتدريس كعادتها. لكن الجامعات كانت قد أغلقت أبوابها، في حين كانت المصانع الكبيرة في غرب طَهْرَان بعيدة عن الفَوْضَى والاعتصامات، وفي القرى لم يكُن للتمرد أي أثر. "العُمَّال والمزارعون" لم يكونوا قد انضموا إلى الثَّوْرة، ولم ينضموا لها.

لكنّ الحياة في العاصمة كانت تزداد صعوبة يومًا بعد يوم. كان انعدام الأمن سائدًا في كلّ مكان، وكانت الجماعات "الفلسطينية"، إن كانت حقيقةً فلسطينية، تهاجم منازل كثيرة وتنهبها باسم الثَّورة الإسلاميَّة. ترك كثير من الناس البلاد وهم قلقون، وكانت المطارات تكتظّ بهم، وكان البعض يعبر الحدود مع تركيا أو يسافر إلى دول الخليج العربيّ.

لم يكُن وضع محافظات الدَّولة متشابهًا، كان الهدوء يسيطر على كردستان وبلوشستان وتركمانستان وكثير من مدن ساحل الخليج العربيّ وبحر عمان، أكثر قاطني هذه المناطق من أهل السُّنَّة، ولم يكُن مراسلو ومصوّرو قنوات التليفزيون الأجنبيَّة يذهبون إليها، فلم يكُن لإيجاد الفَوْضَى في تلك المناطق أيّ فائدة للثَّوْرة.

كانت محافظة أذربيجان أكثر هدوءًا من غيرها، وربما كان السبب هو تأثير آية الله العُظْمَى شريعتمداري، الأقلّ تحريضًا، في تلك المناطق.

من بين المحافظتين الساحليتين على بحر قزوين، كانت مازندران الأشَدّ اضطرابًا وانعدامًا للأمن، بخاصَّة مدنها الصناعيَّة التي كان لحزب "توده" نفوذ كبير فيها، ويبدو أنّه استطاع إخفاء تنظيماته هناك، في حين كانت المظاهرات المؤيّدة للخُمَيني في مدينة رشت صغيرة، ولم يكُن عدد المشاركين فيها يتجاوز ألف شخص.

كانت شيراز وأصفهان ويزد وكرمان عُرضةً لحُمَّى الثَّورة. في الأشهر الأخيرة وقعت صدامات دامية بين معارضي الخُمَيني الذين كان أكثرهم من العُمَّال والمزارعين، ومؤيِّديه الذين كانوا غالبًا من مُوَظَّفي الحُكُومة والتُّجَّار.

لم يكُن الناس يدًا واحدة، على عكس ما كان يُنشر في الصحف الغربيَّة، كان كثيرون يرغبون في القيام بمظاهرات "مناهضة للثَّوْرة"، لكن الشَّاه، الذي كان يُبدِي قلقه من حرب أهليَّة، كان يمنع هذه المظاهرات، وكان مؤيِّدوه لا يزالون يلتزمون بأوامره[1].

كانت قوى الجيش والدَّرَك والشُّرطة وفيَّة -وبقِيَت وفيَّة- للشَّاه والدستور.

في الأسابيع الأخيرة كانت الشُّرطة والأجهزة الأمنيَّة ترسل تقاريرها باستمرار وتقول فيها إنّ في محالّ الخياطة أفرادًا يخيطون زيًّا عسكريًّا موحَّدًا، منها تلك

(1) بعد مُدَّة من مغادرة الشاه والملكة لإيران، كان عدد المتظاهرين المؤيدين للدستور والشاه في أولى المظاهرات يتجاوز مئتي ألف شخص، وكانت أعداد المتظاهرين آخذة في الازدياد. وبالطبع لم تهتم بهم صحف ووسائل الإعلام الغربية. كان الغرب قد اتّخذ قراره منذ شهور.

الواقعة في حيّ سرجشمه. من المؤكّد أن الإسلاميّين المتطرّفين كانوا يريدون أن يرسلوا إلى الميدان جنودًا مزيَّفين للحديث في الصُّحُف الغربيّة عن تَمَرُّد الجيش، وقد استخدموا هذا الأسلوب بعد سنوات في الجزائر وفي مصر. وكان ظهور العسكريّين المزيَّفين سببًا في حدوث فَوْضَى واضطرابات.

لقد قدّم "الثوريّون" لوسائل الإعلام العالَميَّة عروضًا لمراسم تشييع جنازات مزيَّفة، فما الذي يمنع أن يقدّموا عروضًا لجنود مزيَّفين يخدمون إمامًا مزيَّفًا؟ لكنّ الأمور لم تصل إلى ذلك الحدّ[1].

حتى البلاط كان قد فقد نظامه وترتيبه، كان أكثر أفراد العائلة المالكة قد غادروا إيران. كانوا يريدون أن يبقى هذا الأمر سرًّا، لكن ما كان لشيء أن يبقى سرًّا.

كانت إشاعة سفر الشّاه تتأكّد يومًا بعد يوم، مِمَّا كان يزيد القلق، ومع هذا كان الشّاه يذهب إلى مكتبه بانتظام ويستقبل أشخاصًا كثرًا، لم يعُد لـ"شخصيَّات الدَّولة" أثر، لكن كان الأكاديميُّون وأعضاء المجالس المحلِّيَّة ورجال الدِّين -لكن سِرًّا- وأعضاء النقابات والضُّبَّاط المتقاعدون يذهبون لمقابلته، كان الجميع تقريبًا يطلبون منه عدم ترك الدَّولة والجيش.

في تلك الأيام ذهب أردشير زاهدي سِرًّا إلى البلاط برفقة خمسة عشر من رجال الدِّين، كان من بينهم اثنان أو ثلاثة من المُهِمّين، وأظهروا دعمهم للشّاه، وطلبوا منه المقاومة أمام الفَوْضَى، وعلى وجه الخصوص أن لا يغادر الدَّولة. كان الهدف هو دعم الشّاه، وأن يعرف أن جناحًا من رجال الدِّين يؤيّد زاهدي، لكن على أيّ حال كان عملًا بلا طائل، وكان الأوان قد فات.

حظِيَت المِلكة بدورها بلقاءات كثيرة، فكانت تقيم الاجتماعات، وتبذل المساعي. كان المقرَّبون منها ينشرون إشاعات في المدينة تزيد قلق الناس.

***

(1) نُشرت صورة مشهورة في صحيفتي "إطلاعات" و"كيهان" يقف فيها الخُمينيّ أمام عدد كبير من العسكريين وهم يؤدُّون التحيّة له، في ذلك الوقت شُكّك في حقيقة هؤلاء العسكريين. بعد الثَّوْرة لم يَرِدْ أي تعليق رسميّ عن تلك الصُّورة أو مجموعة الجنود فيها. (المترجم).

في أواسط ديسمبر، بينما كان مظفَّر بقائي يجهّز نفسه لتَسلُّم زمام السُّلْطة وكان ينتظر فرمان تعيينه، كانت مجموعة كبيرة تسعى في سبيل تعيين أردشير زاهدي، وفجأة ظهر على الساحة شخص غير معروف، ولم يكُن أحد يتوقعه... كان شابور بختيار.

الفصل العاشر

آخر المساعي والحِيَل

يبدو أنّ المِلِكة فرح كانت السببَ الأساسيّ وراء تعيين شابور بختيار رئيسًا للحُكُومة. فقد "قابلت شابور بختيار سرًّا قبل ثلاثة أشهر من استدعائه إلى قصر نيافاران"[1].

جَرَت المقابلة في فيلا لمحمد علي قطبي، خال المِلِكة الذي كان إقطاعيًّا ثريًّا. تقع هذه الفيلا في منطقة دروّس شماليّ العاصمة طَهْرَان.

مكث بختيار في ذلك المكان ست ساعات[2]. منها ثلاث ساعات تحاور فيها مع المِلِكة التي حضرَت سِرًّا، وثلاث ساعات تقريبًا تَحدَّث فيها مع خالته لويس صمصام بختياري، التي كانت لا تزال زوجة لمحمد على قطبي.

لويس قطبي هي التي كانت مهّدت لهذا اللقاء، وكانت من أقرب الناس والمستشارين للملكة، ويبدو أن الواسطة الأساسيَّة لهذا اللقاء هو رضا قطبي ابن خال المِلِكة الذي كان بمثابة "أخ" لها، وابن خالة شابور بختيار، لذا يمكن الاعتقاد أن هذه الرابطة العائلية القريبة كانت مؤثّرة في إتمام اللقاء.

بعد سنوات كان تاريخ حدوث هذا اللقاء مثيرًا للجدل. كتبت المِلِكة في مذكِّراتها أن أول لقاء لها مع شابور بختيار كان بعد تعيينه رئيسًا للوزراء، أي في أواخر شهر ديسمبر

---

(1) رواية بختيار نفسه: Chapour Bakhtiar, Ma Fidelité, Paris, Albin Michel, 1982, P. 97.

(2) رواية محمد علي قطبي لكاتب هذه السطور.

1978، في حين كتبت لويس صمصام بختياري-قطبي أنه كان في "يومٍ خريفيٍّ بارد"[1].
يبدو ما قاله بختيار مقبولًا، بالنظر إلى تأييد محمد علي قطبي وزوجته السابقة له[2].

من المحتمل أن يكون سبب هذا الاختلاف هو أن المِلكة لم تكُن تريد ولا تريد الاعتراف بأنها قابلت وتفاوضت آنذاك مع أكثر القادة تطرُّفًا في حركة المعارضة للحُكُومة ومِن ثَمَّ لزوجها، ألم يصرح شابور بختيار في حوارله بأن الجيش الإيرانيّ "قوة مستعمِرة تطلق النَّار على الناس بشكل عشوائي وتقتل الأبرياء"[3]؟

على الأقلّ حدث بين المِلكة وشابور بختيار لقاء آخَر، فقد أهدت المِلكة إلى بختيار[4]، الذي كان رجلاً يحب الشعر وخبيرًا به، مجلّدًا من شعر الشاعر الفرنسي المعاصر بول إيلوار[5].

لم يكُن شابور بختيار "يُخفِي عداءه وكرهه للعائلة البهلوية"[6]، ولم يكُن كرهه للشَّاه يَخفَى على أحد[7]. لكنه أجزل الثناء على المِلكة واعتبر أفكارها ومعتقداتها "قريبة جدًّا" من معتقداته.

كان لقاء المِلكة بهذا وذاك، في ظروف سرّية بالكامل "أمرًا عاديًّا"، وكان الحرس المَلَكِيّ يتولى هذا الأمر بخصوص هذه المقابلات السِّياسِيَّة الداخليَّة أو الدوليَّة فلم يُتَناقَل مثل هذا البعد السري لها قَطّ[8]. الجدل الذي ظهر في السَّنَوات الأخيرة حول لقاء المِلكة وشابور بختيار كان -ولا يزال- نتيجة لإنكار المِلكة حصول مثل هذه اللقاءات قبل تعيينه رئيسًا للوزراء، فلو لم يكُن مثل هذا الإنكار لَمَا حدث مثل هذا الجدل.

---

(1) في مقال قصير في صحيفة كيهان (طباعة لندن)، العدد 1062، 30 يونيو، يوليو 2005.

(2) انفصل هذان الاثنان قبل سقوط النِّظَام. تزوج محمد علي قطبي ثانية ومات في موناكو عام 1998.

(3) مقابلة له مع: Jean Gueyras, Le Monde, 10-11 Septembre 1978.

(4) Chapour Bakhtiar, op, cit, P. 97.

(5) Paul Eluard.

(6) Gholam Reza Pahlavi,

(7) إنّ قراءة مذكّراته باللغة الفرنسية تدلّ على أنّ هذا الكره لم يكُن محصورًا في البعد السياسّي.

(8) أنا شخصيًا رافقت في أواسط أكتوبر أحد المراجع الدينية المعروفة بـ»رتبة آية الله« بسيارتي الشخصية للقاء المِلكة، وكان هذا الشخص في اليوم التالي على رأس إحدى المسيرات الضخمة في العاصمة، لكنه حافظ على علاقته بالبلاط إلى أن غادر الشاه إيران.

الكونت برتران دي كاسل باجاك، أحد كُتَّاب سيرة محمد رضا شاه المهمّين، فقد "ذكرت الملِكة لبختيار أن نظريّاته قريبة جدًّا من معتقداتها وأفكارها، فقد كانت هي على الأخصّ ترغب في أن يغادر الشّاه إيران، لأنها كانت تدرك أكثر من أي شخص آخر الوضع النفسي المتردّي لزوجها، وكانت ترغب في أن يتمّ نقل هادئ للسُّلْطة من زوجها إلى وليّ العهد الذي لم يكُن قد بلغ السن التي تؤهله للعرش. كان بختيار يرغب في هذا أيضًا، لكن لأسباب أُخرَى: كان يريد أن يغادر الشّاه إيران في أسرع وقت، وكان يعرف أنّ الأمْرِيكِيّين يُلِحُّون على ذلك أيضًا"[1].

لسنوات كان شابور بختيار يسعى لتحسين علاقته بالسِّفَارة الأمْرِيكِيَّة في طَهْرَانَ[2]، وفي أثناء مجريات تعيينه رئيسًا للوزراء سعى لطمأنة الشّاه تجاهه خشية أن يُبدِيَ اعتراضه على هذا التعيين. كتب قباد مظفَّر، أحد المهندسين المعماريين المعروفين وأصحاب المكانة وأحد البارزين في عائلة بختياري والمقرَّبين من البلاط، كتب رسالة إلى الشّاه وشهِدَ فيها شخصيًّا، بناءً على طلب من شابور بختيار، على وفاء الأخير للشّاه وامتثاله للدستور[3].

في النصف الثّاني من ديسمبر 1978، استقبل الشّاه شابور بختيار مرّتين، في المَرَّة الأولى أتى إلى القصر في المساء برفقة المشير مقدم، رئيس جهاز الاستخبارات وأمن الدّولة، بسيارته الخاصَّة.

كما شرح بختيار، في الثّامن عشر من ديسمبر 1979، قبل تعيينه رَسْمِيًّا رئيسًا للوزراء، برنامج "حكومته القادمة" لسفير بريطانيا في طَهْرَانَ على مأدُبة غداء خاصَّة[4].

في الحادي والثلاثين من ديسمبر 1978، وبشكل دقيق بعد مرور عام على سفر كارتر الشهير إلى إيران، كلّفه الشّاه رَسْمِيًّا بتشكيل الحُكُومة الجديدة، ومنذ ذلك

---

(1) Bertrand de Castelbajac, L' homme qui voulait éte Ecyrus, Albatros, Paris, 1987, P. 159.

(2) انظر وثائق السفارة (وثائق وكر التَّجَسُّس)، الجزء العشرين، 198 صفحة بالإضافة إلى 98 صفحة صور الوثائق.

(3) رواية الدكتور أمير أصلان أفشار، رئيس التشريفات الملكية، الذي كان يحمل هذه «العريضة». كيهان (طبع لندن)، العدد 1061،23-29 يونيو 2005.

(4) Sir Anthony Parsons، الترجمة الفارسية، ص175.

الحين أصبح الملك يشير إلى بختيار في جميع مكاتباته الشخصيَّة باسم "آخر رئيس وزراء للإمبراطورية الفارسيَّة"، في حين كان المقرَّبون من المِلكة ينادونه بالفرنسيَّة "Le Cousin"، أي ابن الخالة.

عندما ظهر بختيار على الساحة، كان يبلغ من العمر خمسة وستين عامًا. والده القائد فاتح بختياري، الذي كان يسعى للقضاء على الفَوْضَى والمتمردين في إيران ليحافظ على وحدة الأراضي الإيرانيَّة، اعتُقل وحوكم بعد وصول رضا شاه إلى العرش بتهمة التمرُّد المسلَّح، وبناء على حكم محكمة عسكريَّة أُعدِمَ رميًا بالرصاص.

من المحتمَل أنَّ هذا هو منبع كره وحقد شابور بختيار على الشَّاه والعائلة المالكة.

في ظلّ هذه الظروف لم يترك كبار عائلة بختياري الذين تصالحوا مع رضا شاه، شابور الشاب وحده، فأرسلوه إلى بيروت ليكمل دراسته المتوسطة ومنها إلى فرنسا. في فرنسا درس القانون، ويبدو أنه البختياري الأول الذي ينجح في الحصول على درجة الدكتوراه في هذا التخصُّص، وفي تلك المدينة تَزوَّج بفتاة فرنسيَّة، ويبدو أنه أدّى الخدمة العسكريَّة هناك، ودائمًا كان يفتخر بأنه شارك في الحرب الأهلية الإسبانية إلى جانب أتباع الجُمهُوريَّة ومعارضي الجنرال فرانكو.

بعد انتهاء الحرب العالَميَّة الثَّانية رجع شابور بختيار إلى إيران مباشرة، وبدأ عمله في وزارة العمل، التي تأسست بفكرة من أحمد قوام، وفي أثناء نهضة تأميم صناعة النِّفْط كان هو المدير العامَ لمكتب العمل في محافظة خوزستان. بالنظر إلى الوثائق السريَّة لشركة النِّفط الإيرانيَّة البريطانيَّة (المعروفة بشركة النِّفط المنحلَّة، التي كانت صاحبة امتياز استخراج النِّفط الإيرانيّ وأُنهِيَت سيطرتها)، فقد اتَّهمه بعض رفاق مصدَّق المقرَّبين بأنه كان يتقاضى راتبًا من الشركة المذكورة، ومع ذلك عُيِّن مساعدًا لوزير العمل في الأشهر الأخيرة من حُكُومة مصدَّق.

بعد حادثة انقلاب 1953 وانتهاء عهد مصدَّق، لم يكُن بختيار من عداد القادة البارزين والمهمّين للجبهة الوطنيَّة ومؤيِّدي قائدها الوطنيّ، ومع ذلك اعتُقِل وسُجِن مرتين، ثمَّ أصبح عضوًا في مَجلِس إدارة بعض الشركات المهمَّة المرتبطة بالقطاع الحُكُوميّ أو مؤسَّسة البهلوي، وهو ما كان بالتأكيد بعد موافقة الشَّاه المباشرة

أو غير المباشرة، كما يمكن تَصَوُّر أنَ ارتباطه العائلي القريب بالمِلكة ثريا والفريق تيمور بختيار وكذلك بلويس ومحمد علي قطبي. وفي النهاية بالمِلكة فرح، كان مؤثّرًا في اكتسابه هذه المناصب غير السِّياسِيَّة.

مؤكَّدٌ أن شابور بختيار كان له مطامع سياسيَّة. وكان هذا حقًّا مسلَّمًا له به. ربما كان أصحاب المناصب العُلْيا في الحُكُومة والبلاط يتوقعون منه أن "يُظهِر وفاءه" للشَّاه كما فعل كثيرون، أو أن ينضمَّ إلى مؤيِّدي إحدى الشخصيَّات السِّياسِيَّة من أصحاب النُّفُوذ كما فعل بعض رفاق مصدَّق، وبذلك يتمكن من الوصول إلى مناصب سياسيَّة مهمَّة، لكن بختيار لم يفعل ذلك، وإذا كان السبب وراء عدم تغييره مساره هو وفاؤه لمصدَّق، فهو سبب مدعاة للفخر.

الحقيقة أنه حين تَوَلَّى رئاسة الحُكُومة، كان قِلَّة هم مَن يعرفونه.

عند تعيينه رئيسًا للوزراء، استدعى الشَّاه أعضاء مَجلِسَي الشُّورَى والشُّيُوخ إلى القصر لكي يوضّح لهم سبب تعيينه، ولكي يوصيهم بمنح الثِّقَة للحُكُومة الجديدة. وعُقِد اجتماع في إحدى قاعات قصر صاحب قرانيه على مقرُبة من مكتب عمل الشَّاه، وخلال الحوار قال أغلب الحضور للشَّاه إنهم في الأساس لا يعرفون شابور بختيار، حتى إنهم لم يسمعوا باسمه![1]

يجب معرفة الأسباب الحقيقيَّة وراء تعيين شابور بختيار في هذا المنصب:

- كان الشَّاه حائرًا ومريضًا وضعيفًا، بخاصَّة من الناحية النفسية. فكان يبحث عن شخصيَّة، أو على الأقلّ عن شخص، يقبل بخروجه من إيران في ظروف مقبولة ومحترمة.

كان الجوّ السياسيّ آنذاك يقضي بعدم تكليف رجال الحُكُومة، سواء أكانوا عسكريّين أم كانوا مدنيين، ولو كانوا قادرين على حلّ المشكلات. كُلِّف الدكتور صديقي ومظفَّر بقائي بتشكيل الحُكُومة، ولم يكونا من ضمن الفئة السابقة،

---

(1) منقول عن مقال مفصَّل لمصطفى ألَموتي، نائب رئيس مجلس الشورى، يعتمد فيه على تقارير ووثائق رسمية بالإضافة إلى ملاحظاته، مجلة "ره أوورد"، العدد 53، خريف عام 2000.

وقد وافقا، شريطة أن يبقى الشَّاه في إيران، وأن يقيم بعيدًا عن طَهْرَان، لحفظ وحدة وانسجام الجيش الذي بمساعدته يمكن إعادة المياه إلى مجاريها. وقد منحهم التَّاريخ الحقّ في ذلك. لكن الشَّاه كان قد فقد العزم والتصميم على الدفاع عن تاجه وعرشه ووطنه. كان يريد مغادرة إيران باحترام، ولو بقليل منه. كانت هذه هي مطالب أمريكا وبريطانيا العُظْمَى. وكان بختيار هو الوحيد الذي رضخ لسفر الشَّاه الذي لا عودة من بعده. واستغله كورقة رابحة ضِدّ المعارضين المتطرّفين.

لم يعُد الشَّاه يفرّق بين هذا وذاك. لم يكُن يهتمّ لشأن "آخر رئيس وزراء للإمبراطورية الفارسيَّة". "كان يجب" عليه الذهاب. كان يريد الذهاب.

- كانت الملِكة فرح هي الوحيدة التي تعرف الوضع السيئ للشَّاه ومرضه المُهلك. وكان هدفها حفظ العرش لابنها. قالت في إحدى المقابلات: "أنا أناضل من أجل ابني، أرجو أن تكون لديه الصفات والقدرة اللازمة للقيام بواجباته"[1].

كان تعيين شابور بختيار يستوجب خروج الشَّاه من إيران وتشكيل مَجلِس وصاية في إطار الدستور تترأسه "الملِكة الأُمّ وليَّة العهد". وبهذا كان بإمكان الملِكة أن تبقى لسنوات في مقام الوصيّ على العرش. بعض الأصدقاء وبعض المقرَّبين منها، الذين كانوا لأسباب شخصيَّة أو اعتقادية يكرهون الشَّاه. وفي النّهاية وجدوا الجرأة الكافية لإظهار موقفهم. كانوا يريدون بهذا أن ينتقموا منه، وأن يجدوا ميدانًا للكَرِّ والفَرِّ السياسيّ. وكان "Le Cousin" يبدو وسيلة جيدة. كانوا يريدون تشكيل "ملكيَّة اشتراكيَّة ديمقراطيَّة". ألم يكُن بختيار يصرّح أنه "يريد أن يؤسِّس مجتمَعًا اشتراكيًّا ديمقراطيًّا حقيقيًّا"؟[2]

- الدُّوَل الغربيَّة، وعلى رأسها واشنطن ولندن وباريس، كانوا يريدون "أن يذهب" الشَّاه لأسباب متنوعة، وأحيانًا متناقضة. دُرِسَت وحُلّلَت مَرَّات عدَّة. اليوم وقد أصبح من السهل الوصول إلى بعض وثائق الدُّوَل الغربيَّة السِّرِّيَّة،

---

(1) حوار مع "Match Paris"، 22 سبتمبر 1978.

(2) صحيفة كيهان، 6 يناير 1979.

أصبحنا نعلم أنّ أمريكا وبريطانيا، على الأقل، كانتا تتَخذان الخُطُوات لعزل الشّاه[1].

كان الغربيون يعتقدون أنّ بختيار هو الشخص الذي يستطيع أن يُتمّ عمَليَّة نقل السُّلْطة دون مشكلات إلى مهدي بازركان، الذي كانوا يظنُّونه إسلاميًّا معتدلًا، وأن يتّخذ التدابير اللازمة لاستقرار آية الله الخُمَيني في إيرانَ قائدًا روحيًّا. كان على بختيار في نظرهم أن يلعب الدور الذي لعبه الجنرال مينه[2] في سايغون، الذي -كما يقولون- سَلّم "مفتاح المنزل" للشيوعيّين عام 1975. كان الغربيون يتوقعون أن يسمح بختيار للشّاه بالخروج، ومن ثمّ يسلّم الدَّولة لبازركان، رجلهم المثالي، وإلى الخُمَيني، القائد الدينيّ الذي لم يكونوا يظنُّون أنّ له أطماعًا سياسيَّة.

- رأى بختيار أن بإمكانه أخيرًا، في خِضَمّ هذا الاستعراض المعقَّد والمُبهَم، أن يصبح شخصيَّة وأن يظهر على الساحة وأن يلعب دورًا، ومن المحتمَل أن ينجح في تحقيق مُثُلَه السِّياسِيَّة، لقد كان يشبه هيروستراتوس[3]، كان يبحث عن شهرة ودور اعتبَر نفسه مستحقًّا له، عن جدارة أو عن غير جدارة.

***

(1) حول هذه الوثائق انظر المقال المفصل في Los Angeles Times بتاريخ 17 اكتوبر 2008، وكذلك كتاب: Tereta Paris, Tracherous Alliance, Yale university Press, New-Haven, London, 2007، وطبعته الجديدة 2009، وكذلك Vincent Nouzille وMike Evans (مراجع سابقة).

(2) General Minh.

(3) صاحب شخصية يونانية أسطورية أو حقيقية، كانت مجهولة، ولاكتساب الشهرة أحرق معبد مدينة أفسس Ephese الكبير في عام 365 ق.م. ذكروا أنّ الإسكندر المقدوني وُلد في تلك الليلة. أصبح لاسم هيروستراتوس بُعْد رمزيّ، وهو يُستخدم في اللغة الفرنسية بهذه الصُّورة.

في السادس من يناير عام 1979، وجّه رئيس الوزراء الجديد خطابًا إلى الشَّعب الإيرانيّ. كان نثر هذا الخطاب وبنيته يشبه كثيرًا خطاب "لقد سمعت صوت ثورتكم".

قدّم بختيار أعضاء حكومته للشَّاه في جوّ متوتّر[1].

كان أول قرارات رئيس الوزراء الجديد هو إزالة صور الشَّاه عن جدران مكاتب السفارات الإيرانيَّة في الخارج[2]. وفي العاشر من يناير عام 1979 قدّم بختياري حكومته وبرنامجه للمَجلِسَين.

اختصّ الجزء الأكبر من خطابه في مَجلِس الشُّورَى بانتقاد الشَّاه وحكومته، التي كان رئيس وزراء لها[3]. في الحقيقة كان يكرّر كلام ومشروع آية الله الخُمَيني مع قليل من التغيير، على أمل أن يفضّل الناس النسخة المقلَّدة على الأصلية، لكنهم لم يفعلوا، كان جوّ المَجلِس في أثناء تقديم الوزراء والتعريف ببرامج حُكُومة بختيار شديد التوتُّر، جرى الحديث فيه عن ماضيه وعن التُّهَم التي وُجّهت إليه حول تعاونه مع شركة النِّفْط الإيرانيَّة البريطانيَّة، لكن رئيس الوزراء الجديد لم يُجِبْ.

وفي لقاء له مع أعضاء كلا المَجلِسَين ذكر بختيار أنه سيقدّم قريبًا مشروع قانون يقضي بمطاردة جميع رؤساء ووزراء الحُكُومات في السَّنَوات الخمسة والعشرين الأخيرة[4] (بعد انقلاب 1953 وعزل مصدَّق)، وسيحاكَمون ويُحكَم

---

(1) كان أمير أصلان أفشار، رئيس التشريفات الملكية، حاضرًا في هذه المراسم، وروى قصتها في العدد 1062 من صحيفة "كيهان" (طبع لندن) بتاريخ 30 يونيو و6 يوليو 2005.

(2) وهذه رواية رضا قاسمي، الذي كان آنذاك برتبة سفير، وقد تَسَلَّم الأوامر من الوزارة التي كان يتبعها، ليُبلغَها إلى جميع ممثلي إيران في الخارج. (كيهان لندن، العدد 1062، بتاريخ 30 يونيو، 6 يوليو 2006)، وكذلك رواية السيدة مينو مفتاح الدبلوماسية والموظفة في وزارة الخارجية، التي كانت آنذاك شاهدة على إزالة صور الشاه عن جدران مكاتب وزارة الخارجية، كان بعض زملائها يضحك وبعضهم يبكي (كيهان لندن، العدد 1072، 8-4 سبتمبر 2006.

(3) كيهان، 11 يناير 1979.

(4) ، رؤساء الوزارات الثلاثة الذين سبقوا بختيار: شريف إمامي، والفريق أزهاري، وعلى ما يبدو الدكتور آموزكار، وكذلك الدكتور أميني، جميعهم غادروا إيران بجواز سفر دبلوماسي في زمن

عليهم أمام محاكم "استثنائيَة"، وأضاف أن عقوبتهم ستكون ثقيلة، وأن بعضها سيكون الإعدام[1]، وهو ما فعله الثوريّون لاحقًا.

***

أجرى محمد رضا البهلوي تغييرات في قيادة الجيش قبل مغادرته إيران، فعُيّن المشير قره باغي، قائد قوات الدرك ووزير الداخليَّة في حُكُومة شريف إمامي، رئيسًا لهيئة الأركان التي كان يترأسها آنذاك المشير هوشنك حاتم، وعُيّن الفريق عبد العلي بدره إي، قائد جيش الحرس، قائدًا للقُوّات البريَّة، كما عُيّن الجنرال علي نشاط، قائد الحرس المَلَكِيّ الذي كان أحد وحدات جيش الحرس، خلفًا للفريق بدره إي.

لعب قره باغي في الأسابيع الأخيرة للنِّظام المَلَكِيّ دورًا غير واضح تمامًا، فقد مكث لفترة بعد الثَّورة في إيرانَ ثمّ غادرها. شاع أنه ذهب إلى سوريا، وفي النّهاية ذهب إلى باريس، وتُوُفِّيَ بعد سنوات فيها.

حاول الفريق بدره إي في آخر يوم، وبجرأة عجيبة، أن يحرّض الجيش ضِدّ الخُمَيني، لكنهم أطلقوا عليه النَّار من الخلف من سلاح رشَّاش في مقرّ قيادته، ومات على الفور[2]، كما قُتل الجنرال علي نشاط والمشير هوشنك حاتم بعد الثَّورة بأمر من آية الله الخُمَيني.

كان الفريق بدره إي والمشير حاتم والجنرال نشاط جميعهم ضباطًا يتمتَّعون بحسن السمعة.

قبل تَسلُّم قره باغي بفترة قصيرة، اتصل المشير حاتم، الذي كان حينها لا يزال رئيسًا لهيئة الأركان، هاتفيًّا بالقصر وطلب أن يتحدث مع الشَّاه. كان الشَّاه هو القائد الأعلى للقُوّات المسلَّحة، وكان رئيس هيئة الأركان من الأشخاص الذين يحقّ لهم التحدُّث إليه هاتفيًّا، فتحدثت إليه المِلِكة. شرح لها الفريق حاتم وضع

حكومة بختيار وبموافقة منه. الوحيد الذي بقي في السجن هو أمير عباس هويدا، ونعلم المصير المشؤوم الذي حلّ به.

(1) مصطفى ألَموتي، ره آورد، مرجع سابق.

(2) H. Nahavandi, Iran, deux- op, cit, P. 207.

الدَّولة واضطرابات العاصمة، وهو شرح لم تكُن إليه حاجة. وأضاف أنه لا يزال بالإمكان إنقاذ الدَّولة، ويمكن إنهاء الفَوْضَى واستعادة سيطرة الحُكُومة وحرمة القانون بتنفيذ عمَليَّة "خاش"، بالطبع بما يتناسب مع الوضع آنذاك. وطلب الإذن بتدخُّل الجيش، أجابت المِلِكة بأنها ستنقل رسالته إلى الشَّاه... بعد بضع دقائق استدعت المِلِكة حاتم هاتفيًّا وقالت له: "جلالة الملك لم يسمح"[1].

كان المشير حاتم أيضًا، مثل أردشير زاهدي، يريد أن يعمل ضمن إطار القانون!

***

بينما كان هذا الجدل العقيم يجري في طَهْرَانَ، كان رُوح الله الخُمَيني ومرافقوه في فرنسا يعيشون حالة من الرُّعْب خوفًا من تدخل الجيش لفرض الهدوء والنِّظَام والحُكُومة الدستورية في إيران.

في لقاء له مع مبعوثي جيسكار ديستان، الرئيس الفرنسي، الذي كان يلعب في الغالب دور الوسيط بين الخُمَيني وكارتر، طلب الخُمَيني منهم -أو طلب يزدي باسم الخُمَيني- أن يطلب جيسكار من الرئيس الأمْرِيكِيّ منع "الانقلاب العسكريّ" بأي ثمن كان[2].

قال جيمي كارتر في ردّه على الخُمَيني، الذي أرسله بواسطة جيسكار ديستان، إنّ الشَّاه سيغادر إيران قريبًا، وفي مثل هذه الظروف الأصلحُ أن يسودَ الهدوء النِّسبِيّ في إيرانَ حتى تتاح السيطرة على الأمور. إنّ تدخُّل الجيش خطر محتمَل، لكن إن زادت الفَوْضَى، فاحتمال تَدَخُّل الجيش سوف يزداد، في إطار الوضع الحالي، والتغيير المحتمَل (خروج الشَّاه)، أليس من الأفضل أن يسود قليل من الهدوء؟[3]

---

(1) رواية قائد "القُوَّات الخاصَّة" الذي يقيم حاليًا في أوروبا، ورواية أحد قادة الجيش عالي الرتبة الذي يقيم في غرب أمريكا، وكان آنذاك يقف بجانب المشير حاتم، أنا شخصيًّا مطمئنٌ إلى صِحّة روايتيهما، بخاصّة أنه لم تعُد بينهما علاقة.

(2) Vincent Nozille, op, cit.

(3) ورد مَتْنَا هاتين الرسالتين (رسالة الخُمينيّ إلى كارتر للحيلولة دون تدخُّل الجيش، ورسالة كارتر إلى الخُمينيّ) كما هما في كتاب نوزيل صص452-449، بالاستفادة من المصادر الأمريكيّة والفرنسية.

أرسل الرئيس الفرنسي، من أجل استجلاء الأوضاع مجدَّدًا، مستشاره الخاصّ ومحلّ ثقته ميشيل بونياتوفسكي[1]، للمرة الثالثة بطائرة خاصَّة إلى طَهْرَان.

كتب بونياتوفسكي في تقريره لجيسكار ديستان: "الشَّاه كان في غاية الاتّزان، وكان ينظر إلى الأوضاع ببصيرة، لكنه كان حزينًا مُتعَبًا، وبدا أنه لا يأبه لأوضاع الناس". كُتب وسُلّم هذا التقرير، الذي كشفت عنه أخيرًا مصادر أمْرِيكِيَّة، بتاريخ 28-26 ديسمبر من عام 1978، أي قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من تعيين شابور رَسْمِيًّا رئيسًا للوزراء[2].

يبدو أنّ ميشيل بونياتوفسكي[3] أطلع الشَّاه رَسْمِيًّا، في هذا اللقاء، على أنّ قضيَّة إيران ستُحَلّ بشكل قاطع في مؤتمَر غوادلوب[4].

***

كان "خطر" تدخُّل الجيش، بموافقة من الشَّاه أو مِن دونها، هو الهاجس الأكبر لدى زمرة نوفل لوشاتو وحُكُومة كارتر في تلك الأيام، وجرى التباحث في هذه المسألة خلال "لقاءات سرِّيَّة متعددة"[5] بين إبراهيم يزدي "الناطق باسم آية الله والنائب عنه"، ووولتر زيمرمان الوزير المفوَّض والمستشار السياسيّ للسِّفَارة الأمْرِيكِيَّة في باريس.

---

(1) Michel Poniatowski.

(2) انظر كتاب: Vincent Nouzille، مرجع سابق، ص449.

(3) جاء ميشيل بونياتوفسكي ثلاث مرات إلى إيران خلال هذه الأسابيع، في سفره السابق، وبناءً على طلبه جرى بيننا لقاء طويل. كان رجلًا خبيرًا في القضايا الدولية، وقد درس "الملف الإيراني" بدقة، شعرت في هذا اللقاء بأنه لم يعُد يعتقد أن باستطاعة الشاه السيطرة على الأوضاع (ذكرت أحداث هذا اللقاء في Iran, deux Reves Brisés صص197-196).

(4) وردت تفاصيل هذا الموضوع في كتاب نوزيل.

(5) Mike Evans, The liberal left ......, op, cit, P. 237.

وأخيرًا كان الجميع ينتظرون "القرار النهائي" الذي كان مِن المقرَّر اتّخاذه في مؤتمَر غوادلوب. أظهر محمد رضا البهلوي، الذي لم تعُد لديه تلك الأوهام وذلك الأمل حول مستقبله، أظهر لميشيل بونياتوفسكي قلقه إزاء تَدَخُّل السوفييت في شؤون إيران. وطلب أن ينقل رسالة إلى موسكو في أثناء مؤتمَر غوادلوب وأن يحذِّر السوفييت رَسْمِيًّا من التدخُّل في شؤون إيران"[1].

بدأت أعمال مؤتمَر غوادلوب، الذي دعا إليه جيسكار ديستان نظراءه الغربيين الثلاثة، حسبما ذكر[2]، في الخامس من يناير عام 1979، وتَحدّد فيه "مصير إيران" بشكل نهائيّ. وحَسَبَ إحدى الروايات فقد أبدى الرئيس الفرنسي في مداولات المؤتمَر معارضته للشَّاه أكثر من أيّ شخص آخَر: "إن بقي على رأس السُّلْطة فسيجري جدول من الدماء في إيران، وسيزداد نفوذ الشيوعيّين كلّ يوم، وسيُضطرّ الجنود الأمْرِيكِيُّون إلى التدخُّل، وسيتّخذ السوفييتيون هذا الأمر حُجَّة للتدخُّل في إيران. على واشنطن أن تقبل بفكرة تغيير (الشَّاه) في إيران"[3].

يقول جيسكار ديستان في تصريح آخر: "يجب دعم الشَّاه، حتى لو كان وحيدًا وضعيفًا، فهو على الأقلّ يرى الأمور ببصيرة، وهو يسيطر على الجيش، القُوَّة الوحيدة في الدَّولة التي يمكنها مواجهة رجال الدين"[4]، وكتب جيسكار ديستان أن جيمي كارتر الشخص الأول الذي قال إنّ "على الشَّاه أن يغادر، فالشَّعْب الإيرانيّ لا يريده، ولكن نحن (الأمْرِيكِيِّين) ليس لدينا سبب لنقلق إزاء هذا التغيير"[5]. ما نُشر من روايات وثائق رسميَّة بعد ذلك لا يؤيِّد ما كتبه جيسكار ديستان.

---

(1) Vincent Nouzille، مرجع سابق.

(2) Le Pouvoir et lavie, of. Cit, P.109.

(3) William Shawcross, Le Shah..., op, cit, P. 140.

(4) Le Pouvoir et La Vie, P. 109.

(5) المرجع السابق.

لم يكُن موقف الأمْرِيكِيِّين قد اتّضح بعد، كما أنّ ميشيل بونياتوفسكي قال لاحقًا إنّهم "كان لهم خمسة مواقف مختلفة حول الأوضاع في إيرانَ آنذاك"(1).

يبدو أنّ بريجينسكي كان خائفًا من سياسة البيت الأبيض ودعمها للإسلام المتطرّف وصعود الخُمَيني إلى السُّلْطة(2).

مستشاري البيت الأبيض، ووزراة الخارجيَّة وكثير من السياسيِّين الأمْرِيكِيِّين وكذلك المحافل شبه الرَّسْميَّة المتخصصة في التحليل والاستشارات السِّياسِيَّة، جميعهم تقريبًا كانوا من أنصار الخُمَيني ونهضته ودعمها من أجل تغيير النِّظَام السياسيّ في إيران، وفي نهاية الأمركان النصرحليف هذه الفئة.

بناءً على الدراسات التي أجراها مايك إيفانز، والروايات والشهادات التي جمعها والوثائق التي أوردها في كتابه، فقد خصَّصَت حُكُومة كارتر مبلغ مئة وخمسين مليون دولارًا لتأمين تكاليف "عمليات الخُمَيني"(3). كان لانتشار كتاب مايك إيفانز أصداء واسعة في أمريكا، وجرى التباحث بشأنه كثيرًا في وسائل الإعلام، وإلى الآن لم تكذّب السُّلُطات الأمْرِيكِيَّة محتواه.

في طَهْرَان، وحَسَب الوثائق السرية للسفارة الأمْرِيكِيَة، كان موقف وتصرف الدبلوماسيين الأمْرِيكِيِّين يرجِّح كَفَّة التعاون مع الثَّورة الإسلاميَّة وآية الله الخُمَيني ودعمه بشكل رسمي وعلني، ووصل الأمر إلى أن مندوبي السِّفَارة كانوا يشاركون في الاجتماعات التي كانت تُعقَد للإعداد لدخول الخُمَيني إلى طَهْرَان(4).

---

(1) من حواره مع TF1، البرنامج الأول في التليفزيون الفرنسي، ليلة انتخاب رونالد ريغان رئيسًا لأمريكا، 6 نوفمبر 1980.

(2) Pierre Salinger, Otages... op, cit, P.43.

كان لأردشير زاهدي، سفير إيران في واشنطن، فهم مشابه لموقف السيد بريجينسكي (حَسْبَما ذُكر لكاتب هذه السطور)، وجاءت جميع كتابات السيد بريجينسكي التالية مؤيدة لهذا الأمر.

(3) Mike Evans, The liberal left....., op, cit, P.14، بالتأكيد كانت التكاليف الحقيقية لـ"الثَّوْرة" أكبر من هذا بكثير، وتشمل: تكاليف الإقامة الباهظة في نوفل لوشاتو، والأجور التي كانت تُدفَع بسخاء، وتكاليف المظاهرات في طهران والمحافظات، كما يجب أن نضيف إلى المساعدات الأمريكيَّة ما قدّمه تُجّار السوق وما قدّمته الحكومة الليبية وكذلك المساعدات الأجنبية الأخرى.

(4) وثائق «وكر التَّجَسُّس»، الجزء 27، صص100- 104، و131-130.

اختتم مؤتمَر غوادلوب أعماله باتِّخاذ "قرار نهائي" من الدُّوَل الغربيَّة الأربع الكُبْرَى حول إيران، أُصدرت الأوامر للجنرال الأمْريكِيّ روبرت هايزر[1]، مساعد قائد حلف شمال الأطلسي، بالذهاب إلى إيران، وأن يسرع في إخراج الشَّاه منها، وأن يمنع تدخُّل الجيش في الأزمة. وأن يمهِّد الطريق أمام دخول آية الله رُوح الله الخُمَيني إلى إيران.

الكونت ألكساندر دي مارانش الذي كان لِاثنَيْ عَشَرَ عامًا رئيس وكالة الاستخبارات الفرنسيَّة[2]، والمستشار الأمنيّ الدوليّ لبعض رؤوساء دول "العالَم الحُرّ"، كتب في مذكِّراته:

"أرسلت حُكُومة كارتر الجنرال هايزر إلى إيران لتنفيذ سياستها الحمقاء الهادفة إلى تغيير النِّظَام السياسيّ في إيران. قابل هايزر جميع السُّلُطات العسكريَّة، ووضّح لهم أن القُوَّات المسلَّحة الإيرانيَّة هي الأفضل وأنها الأكثر تجهيزًا والأقوى في المنطقة، وهم يتسلّمون أغلب عتادهم من أمريكا، فإن أراد الجيش إبداء ردّ فعل (في مواجهة الثَّورة الخُمَينية) فلن يُزَوَّد بعدها ولو بقطعة واحدة من قطع الغيار التي يحتاج إليها. وعلى هذا النحو أجلس الأمْرِيكِيُّون الخُمَيني على كرسي السُّلْطة، وقادوا الثَّورة إلى النصر"[3].

ذهب الجنرال هايزر إلى إيران، لا بصفته مندوبًا عن الولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة فحسب، بل كمبعوث "جميع قوى العالَم الغربي"، وعرض قرارات مؤتمَر غوادلوب على كلّ من لَقِيَه[4].

انتهت مهمَّة الجنرال هايزر بردّ فعل غاضب من الجنرال ألكساندر هيغ[5]، القائد العامّ لقوات حلف شمال الأطلسي. فلم تكلّف الحُكُومة الأمْرِيكِيَّة نفسها بإبلاغ الرئيس المباشر لهايزر بهذه المهمَّة. فقدّم هيغ استقالته من منصبه، وما

(1) Robert Huyser.

(2) S.D.E.C.E- D.G.S.E

(3) Alexandre de Marenches, op, cit.

(4) Mike Evans, op, cit, P. 15.

(5) Alexander Haig.

نعرفه أنه أصبح لاحقًا وزيرًا للخارجيَّة في عهد الرئيس رونالد ريغان، بعد مدة انتقد جورج بوش، المستشار اللاحق للرئيس الأمْريكِيّ والرئيس الأمْرِيكِيّ لاحقًا، انتقد بشِدَّة دور الأمْرِيكِيّين في نجاح الثَّورة الإسلاميَّة، وذكر ضمن ذَمِّهِ حُكُومةَ كارتر، أنّ المهمَّة التي نيط بها الجنرال هايزر من أجل "شلّ حركت الجيش الإيرانيّ" كانت خطأً فادحًا[1].

لم تكُن إيران دولة مجهولة للجنرال هايزر، كان الشَّاه يعرفه جيدًا، وكان يستقبله في كلّ مهامِه التي جاء فيها إلى إيران.

في هذه المَرَّة لم يُبلِغوا الشَّاه حتى بسفر هايزر إلى إيران. كان هايزر ضابطًا في القُوَّات الجوية الأمْرِيكِيَّة، وطِبْقَ العادة فقد استقرَ في قاعدة دوشان تبه عند زملائه الإيرانيِّين في القُوَّات الجوية.

تَعَجَّب الشَّاه كثيرًا حين علم بالأمر، اقترح عليه أردشير زاهدي أن يصدر أوامره باعتقال الجنرال الأمْرِيكِيّ بحُجَّة دخوله غير المصرَّح به إلى الأراضي الإيرانيَّة، ثم يطرده[2]، لكن محمد رضا البهلوي لم يوافق على هذا الاقتراح.

أخيرًا ذهب الجنرال هايزر لمقابلة الشَّاه برفقة سفير الولايات المتَّحدة الأمْرِيكِيَّة، "كان الأمر الأساسيّ الذي يرغبون في معرفته هو اليوم والساعة التي سأغادر فيهما إيران"[3].

بعد انتصار الثَّورة الإسلاميَّة قال الفريق ربيعي، القائد العام للقُوَّات الجوية الإيرانيَّة، الذي كان في الحقيقة مُضيف الجنرال هايزر، في محكمة الثَّورة الإسلاميَّة: "الجنرال هايزر رمى الشَّاه خارج إيران كفأر نافق"[4].

---

(1) Washington Post, 29 janvier 1979.

(2) Ardeshir Zahedi, Untold Secrets, L.A. P.9.

(3) Reponse a l' Histoire, op, cit, P. 246.

(4) تصريحات الفريق ربيعي في محكمة الثَّورة الإسلاميَّة التي نقلها الشاه كما هي في مذكَّراته (Reponse a l' Histoire, op, cit, P. 246)، قُتِل الجنرال ربيعي بعد "جلسة" المحكمة بقرار من سلطات الحكومة الإسلاميَّة.

"كان القائد الحقيقيّ لإيران، في هذه المدة القصيرة، هو الجنرال هايزر الذي كانت لديه مهمّة التمهيد لدخول الخُمَيني إيران"[1].

لم يكلّف هايزر نفسه حتى بزيارة رئيس الوزراء الشرعيّ للدَّوْلة، أي شابور بختيار: لم يكُن يأبه له، كتب بختيار لاحقًا أنه لم يكُن حتى قد سمع باسمه[2]، ولا يوجد دليل يجعلنا لا نصدق ما قاله.

في الحادي عشر من يناير 1979 أعلن وزير الخارجيّة الأمْرِيكِيّ سيروس فانس[3]، في واشنطن أن الشَّاه سيغادر إيران قريبًا، لكنّ تاريخ مغادرته سيبقى سرًّا لأسباب أمنيَّة.

في الحقيقة كان الجميع في طَهْرَانَ ينتظرون أن تتم المراسم الدستورية لتنصيب شابور بختيار رئيسًا للحُكُومة، حتى لا يبقى ما يحول دون خروج الشَّاه، وبعبارة أُخرى: حتى لا يحدث فراغ في السُّلْطة.

حدث هذا الأمر في السادس عشر من يناير من عام 1979، في ذلك اليوم، حَسَبَ رواية شخص موثوق به، كان "سفير الولايات المتَّحدة" يتصل هاتفيًّا بالقصر كلّ ربع ساعة ليتأكّد إن كان "الشَّاه قد غادر أم لا"[4].

كانت واشنطن على عجلة من الأمر لإتمام المرحلة الأولى من المهمَّة التي وكلتها إلى الجنرال هايزر.

***

في السادس عشر من يناير، حصل شابور بختيار على الثِّقَة من مَجلِس الشُّيُوخ، وكان مَجلِس الشُّورَى قد منحه الثِّقَة من قبل.

كان الشَّاه يريد أنَ يتمَ كل شيء بشكل منظَّم ومرتَّب، وكان يعتقد أنّه أصبح

---

(1) Gholam Reza Pahlavi, op, cit, P.290.

(2) Declaration a l' A.F.P (نشر في كيهان وإطلاعات في يناير 1979).

(3) Cyrus Vance.

(4) Golam Reza Pahlavi, op, cit, P. 284.

يستطيع مغادرة إيران، وكما ذكر مَرَّات عدة في أقواله وكتاباته فقد كان يعلم أنَه لا عودة بعد هذا السَّفَر. لكنه لم يكُن يعرف -وربما لم يكُن يمكنه تَصَوُّر- تلك المعاناة والإهانة التي تنتظره، وذلك الحقد والكره الذي يُكِنُّه له بعض المحافل وبعض القادة السياسيّين.

للمرة الأخيرة تَوَجَّه الشَّاه إلى مكتبه في تمام الساعة العاشرة صباحًا. وللمرة الأخيرة وقّع بعض المراسلات والوثائق الرَّسْميَّة. كان آخر من ذهب لمقابلته هو الدكتور محمد باهري، أستاذ الجامعة ووزير العدل الأسبق، الذي ذهب يلتمس إليه أن لا يترك وطنه وأبناء وطنه وجيشه، وأن لا يغادر إيران. فقال لباهري إنّ هذا السَّفَر لم يتأكّد بعد: كان يهدف إلى تهدئة خاطره. وكان لا يريد أن يزعجه أحد. فقد كان يعرف أنّ باهري ومجموعة أُخرى ينوون تنظيم مظاهرة للحيلولة دون سفره. بعد انتهاء مراسم استقبال الدكتور باهري، شرب الشَّاه كاسًا من الشاي واقفًا، ثمّ غادر مكتبه إلى الأبد. ذلك المكتب الذي حكم منه بلاده سنواتٍ طويلةً ارتكب خلالها أيضًا كثيرًا من الأخطاء، ولمع نجمه فيها كذلك على الساحة الدوليَّة.

في تلك اللحظة ارتكب أكبر وأسوأ خطأ في حياته السِّياسِيَّة. فقد ترك وطنه، وأبناء وطنه، وجيشه القوي الذي كان مدعاة لفخره وفخر جميع الإيرانيّين، والذي كان لا يزال وفيًّا له وينتظر أوامره.

تركت المَلِكة بدورها قصر نيآفاران، المكان الذي كانت تقيم فيه. اجتمع مئات من مُوَظَّفي البلاط والحرس المَلَكِيّ وخدم كلا القصرين، الذين علموا بالأمر في اللحظة الأخيرة، وكانوا ينتظرون. صافح الشَّاه والمِلكة كثيرًا منهم، قال الشَّاه: "لا تحزنوا، سوف نعود". تقريبًا كان الجميع يبكي. تَوَجَّه الشَّاه والمِلكة بعدها إلى مَهبِط الطائرة المروحية بجانب القصر، وركب كل منهما طائرةً منفصلة لأسباب أمنيَّة. في الطائرة كان الشَّاه قد غاص في سكوت وحزن عميقَين، لم يكُن بجانبه سوى الدكتور أمير أصلان أفشار وضابط من الحرس، كان ينظر إلى الخارج. إلى عاصمة بلاده، فيمَ كان يفكّر؟

كان مطار مهرآباد، قبل وصول الشَّاه والمِلكة بدقائق، قد أُغلِقَ ووُقِفَت جميع رحلاته، ثمّ هبطت المروحيَّات.

لم يُكشَف عن ساعة الانطلاق وبَقِيَ الأمر سرًّا، فقد اتُّخِذَت إجراءات الحيطة والحَذَر خوفًا من مظاهرات المعارضين لخروج الشَّاه من إيران. كان هناك تخوُّف من احتلالهم ساحة المطار ومَنعِهم إقلاع الطائرة. كان الشَّاه قد سمع أنّ مثل هذا الأمر نُوقِشَ في بعض المحافل.

حضرت مجموعة صغيرة لوداعه، لم يكُن فيهم سفراء أو وزراء، كان الدكتور جواد سعيد رئيس مَجلِس الشُورَى، الذي قُتل لاحقًا بأمر من سُلُطات النِظَام الإسلاميّ، حاضرًا، ولم يكُن الدكتور محمد سجادي رئيس مَجلِس الشُيُوخ، حاضرًا هناك، وهو الذي كان وزيرًا حتى في عهد رضا شاه، وربما لهذا الغياب تركه "الثوريُّون" وشأنه.

كان مِن المقرَّر أن يحضر رئيس الوزراء، لكنه لم يكُن هناك حتى تلك اللحظة، فكان عليهم انتظاره، لقد كان تَصرُّفه مخالفًا للعادات. لم يهتمّ الشَّاه بذلك: كان على عجلة لإنهاء آخر مشهد من مشاهد مُلكِه.

أخيرًا وصل شابور بختيار بطائرة مروحية إلى المطار، واستقبله الشَّاه في القاعة الخاصَّة في مبنى التشريفات بمطار مهرآباد الدوليّ، وطلب منه "أن يتخذ التدابير الكاملة لحماية شخصيَّات النِظَام المَلَكيّ، وأن يؤمّن لهم وسائل السَّفر إلى الخارج إذا لزم الأمر"(1). لماذا لم يفعل هو ذلك من قبل؟ ذكر محمد رضا شاه أنّ بختيار قد أخذ على عاتقه هذا الأمر بشكل صريح، كما أشار رئيس الوزراء في مذكِّراته إلى أمل الشَّاه هذا(2)، لكنه أضاف أنه لم يقطع للشَّاه مثل هذا الوعد(3)، وقال في مذكِّراته إنّ المِلكة التي كانت حاضرة من أجل إنهاء هذا الجدل، قالت: "إنّ بختيار سوف يضحّي، اعتمِد عليه"(4).

---

(1) من حواره مع كاتب هذه السطور في المكسيك بتاريخ 29 سبتمبر 1979، انظر:
Iran, Deux Rêves Brisés, op, cit, P. 281.

(2) Ma Fidelité, op, cit, P. 151.

(3) المرجع نفسه.

(4) المرجع نفسه.

ودّع الشّاه والمِلكة المشايعين. كان كثير منهم يبكي، وكانوا لا يزالون يطلبون من الشّاه عدم ترك وطنه. ركع الفريق بدره إي أمام الشّاه حسب التقاليد القَبَلِيَّة، وقال باكيًا: "لا تتركنا يا جلالة الملك"، فأمسك به الشّاه بيديه وأنهضه، وأبدى شكره وامتنانه له بعينين دامعتين... انتشرت صور هذا الموقف في جميع مطبوعات العالَم.

كانت هذه هي اللحظة الوحيدة التي فقد فيها الشّاه سيطرته المعهودة على أقواله وأفعاله، وكانت المَرَّة الأولى التي يشاهَد فيها بعينين دامعتين.

ركب الشّاه والمِلكة الطائرة. استدعى محمد رضا البهلوي رئيسَ الوزراء مرة أُخرى، وذكّره ثانيةً ببعض الأمور. وفي النّهاية قال: "استودعتُك إيران، وأستودِعُك الله"، وللمرة الأولى قبّل بختيار يد الشّاه[1].

جلس الشّاه خلف مِقوَد الطائرة الملكيَّة وأقلع بها، كانت الوجهة هي مدينة أسوان في مصر.

بدأ عندها سفر الشّاه الذي لا عودة بعده، وبدأ تَشَرُّدُه.

لم يعُد شيء يَحُول دون عودة آية الله رُوح الله الموسوي الخُمَيني إلى إيران: كان يخاف من الشّاه، ولم يعد الشّاه موجودًا في إيران.

---

(1) رواية الدكتور أمير أصلان أفشار الذي كان موجودًا في الطائرة وشاهدًا على ذلك (كيهان لندن، العدد 1062، 30 يونيو، 6 يوليو 2005).

النِّهاية: "لاشيء"

بمغادرة الشَّاه لإيران أُنجِزَت المَهَمَّة الأولى من المهامَ التي وكلها مؤتمَر غوادالوب إلى الجنرال هايزر.

بقي هايزر في إيرانَ بعد مغادرة الشَّاه. والتقى مَرَّات عِدَّةً بقيادات الجيش والأجهزة الأمنيَّة. ما لدينا من روايات وما نُشر من دراسات يشير كله إلى أنَ الطرف الأساسيّ في هذه المفاوضات والمنظِّم لهذه اللقاءات كان رئيس هيئة الأركان الجديد المشير قره باغي[1].

كذلك جرى بين الجنرال هايزر وقيادات المعارضة لقاءات طويلة ومتعدِّدة. وكان في الطرف الآخر من المفاوضات الدكتور محمد بهشتي (المعروف بآية الله بهشتي). وكان يلعب الدور الذي لعبه إبراهيم يزدي في نوفل لوشاتو.

---

(1) شاع في طهران في البداية أنّ الجنرال هايزر جاء لتشجيع الجيش على توطيد الاستقرار، لكن سرعان ما تَبيَّن عكس ذلك، واتّضح أن مَهَمْته هي تسريع مغادرة الشاه ودخول آية الله الخُمينيّ إلى إيران ونقل السُّلْطة إليه، عندما وصلت هذه الإشاعات إلى مسامعي وتأكدت تقريبًا من مهمة هايزر التي جاء من أجلها إلى إيران، اتصلت شخصيًا بالمشير قره باغي هاتفيًا، وبعد أن أبديت قلقي من عدم إبداء الجيش أيّ رَدّ فعل تجاه عمليات التمرُّد والشغب، سألته عن المَهَمْة التي جاء فيها هايزر، فأخذ المشير قره باغي يتحدث عن وفائه "لصاحب الجلالة" بتفصيل وبشرح مشوْش نوعًا ما، وهو ما لم أشكّ فيه قطّ، ثمّ أضاف أنّ الجنرال هايزر جاء إلى إيران مستشارًا سياسيًا له (أي لقره باغي)، في الأيام والساعات التالية أكّد الأميرال أبو الفتح أردلان والأميرال سيامك ديهيمي واللواء جواد معين زاده أيضًا، أنّ رئيس هيئة الأركان يتحدث دائمًا مع الجنرال هايزر باعتباره مستشاره السياسيّ، وبالطبع لم يعُد يخفى على أحد أنّ الجنرال هايزر جاء إلى إيران من طرف الرئيس الأمريكيّ لاتخاذ الإجراءات اللازمة لتغيير النِّظَام.

كان الرابط في هذه اللقاءات شخصان: الأول أحد الشخصيّات المهمّة المتعلّقة بالنِّظّام المحتضَر، وكانت تربطه منذ سنوات عَلاقة صداقة بالمهندس مهدي بازركان، الذي كان له أيضًا دور مُهِمّ في المفاوضات، والثاني أحد الإقطاعيّين المشهورين الذي كان أستاذًا في كلية الهندسة بجامعة طَهْرَان، وكانت تربطه عَلَاقات مع جميع التيَّارات السِّياسِيَّة. وقد وضعا أماكن إقامتهما تحت تصرُّف المتفاوضين[1].

استمرت إحدى مقابلات هايزر مع المعارضة عشر ساعات، وكان كل من بهشتي وبازركان حاضرًا فيها.

لم يهتمَ الجنرال هايزر بشابور بختيار رئيس الوزراء الشرعيّ للدَّوْلة، ولم يُقدِم على لقائه، ويبدو أنّ شابور بختيار بدوره لم يكُن يرغب في لقائه، وهو أمرٌ لا يَعِيبه إطلاقًا، ولكن لماذا بَقِيَ مكتوف الأيدي ولم يفعل شيئًا؟

***

بينما كان الجنرال هايزر منشغلًا بإنجاز مَهَمَّته من أجل "نقل السُّلْطة" و"تصفية" النِّظَام الملكي[2]، كان شابور بختيار الذي حصل على الثِّقَة من المَجلِسَين وكان تجسيدًا للشرعيَّة، في الحقيقة هو القائد الأعلى للقُوَّات المسلَّحة.

في حوار معه أعلن أنه "لا يحقّ لأحد في الجيش أن يتّخذ القرارات دون إذن منّي"، كان هذا الحوار مع إذاعة "بي بي سي"، وكانت له أصداء واسعة في الصحف المحلِّيَّة[3].

---

(1) أشيَر في بعض الدراسات التي نُشرت في أمريكا إلى المهندس كاظم جفرودي، الأمين العامّ لنقابة شركات البناء ومدرِّس «مقاومة الموادّ وبناء السدود» في كلية الهندسة. (المترجم).

(2) " Before General Hayser's death in 1997, I met with him in his home. During the meeting, the General told me " Jimmy Carter was responsible for the overthrow of the Shah". Huyser maintained Carter had deceived not only the Shah but me also". Mike Evans, op, cit, P. 15.

اعترافات جاءت متأخرة ومحزنة.

(3) كيهان، 17 يناير 1979.

كان رئيس الوزراء مُحِقًا. فقد كان الجيش لا يزال على أُهبَة الاستعداد للتدخُّل وفرض الهدوء. كان الجيش جاهزًا وقادرًا على تنفيذ أوامره. وكان لا يزال بإمكانه تثبيت الوضع. أو على الأقلّ أن يمكّن رئيس الحُكُومة من الدخول في مفاوضات مع المعارضة من منطلق القُوَّة. كان بإمكان رئيس الوزراء الاعتماد على جزء مُهِمّ من الرَّأي العامّ الذي لا يزال وفيًّا للدستور وللشَّاه.

كانت المشكلة تكمن في أن بختيار كان قَلِقًا من الجيش. ولم يكُن مطمئنًّا لقياداته. ربما كان يفضِّل المعارضين المتطرِّفين على العسكر. وهو ما فعله كيرنسكي في أثناء الثَّورة البُلشُفيَّة في روسيا حين فضَّل تسليم السُّلْطة للينين على أن يتفاهم مع الجيش. ثمّ هرب من البلاد[1].

المهندس لطف علي صميمي. وزير البريد والبرق في حُكُومة بختيار والوحيد من الجبهة الوطنيَّة الذي كان مستعدًّا للتعاون معه. كتب أنّ بختيار "لم يكُن يملك أي برنامج أو فكرة حول شؤون الدَّولة ومواجهة الأزمة". في الأساس لم يكُن لحُكُومة بختيار وجود. الأشخاص مثلي مِمَّن كانوا يعتقدون أنه مفتاح نجاة الدَّولة. سريعًا ما أدركوا خطأ اعتقادهم. أخبرني الفريق رحيمي قائد قوات الشُّرطة والقائد العسكريّ لطَهْرَان بأنّ (الجيش قد ملّ ويئس من ضعف وحيرة بختيار التي عطّلت الدَّولة)"[2].

لم يُرِدْ بختيار أن يعتمد على الذين بَقُوا أوفياء للشَّاه. وقال لاحقًا: "إنني أفضّل الخُمَيني على أولاد الحرام هؤلاء. لا يمكنني التعاون مع هؤلاء الملكيين القذرين الفاسدين"[3].

---

(1) Alexander F. Kerenski (1881 - 1970): كان وزيرًا للعدل ثُمّ وزيرًا للحرب في أول حكومة شُكِّلَت بعد استقالة نيكولاس الثاني وقبل انتصار البلشفيين. في فبراير 1917 أصبح رئيسًا لثاني "حكومة مؤقّتة" في روسيا، وعزل الجنرال كورنيلوف Kornilov الذي كان ينوي مقاومة البلشفيين. لم يكُن يحميه سوى الجيش، ومع هذا كان يخشاه. ذهب إلى أوروبا ثُمّ إلى أمريكا، ومات في نيويورك عام 1970 عن عمر يناهز تسعين عامًا.

(2) منقول من مذكّرات لطفعلي صميمي السياسيّة، آهنك سياسي، طبع باريس، العدد 3، 9 ديسمبر 1981.

(3) من حواره مع إيران تايمز، 1980.

بعد خروج الشَّاه من إيران بفترة قصيرة، وفي الوقت الذي أصبح فيه المؤيّدون للدستور والحُكُومة وحرمة القانون مُطلَقِي الحُرِّيَّة، ولم يعُد بإمكان محمد رضا البهلوي منعهم عن التظاهر بحُجَّة تَجَنُّب الحرب الأهلية، نظّمت هذه المجموعة مظاهرات حاشدة في طَهْرَانَ في الخامس والعشرين من يناير عام 1979. لم يكونوا يملكون مساعدات ماليَّة ولا ميزانيَّة ولا إمكانيَّات، ومع هذا فقد أرسلوا ما يزيد على مئتي ألف شخص إلى شوارع طَهْرَان. أمر بختيار أن يُبَثَّ بشكل مكرَّر بيانٌ من الإذاعة لحَثّ الناس على عدم المشاركة في هذه المظاهرات، وأمر الشُّرطة بعدم حماية المتظاهرين. "لقد طلبوا منّي أن أقدِم المساعدة لهذه المظاهرات، لكنَّني رفضت"[1].

بهذا لم يبقَ أحد حوله، إلّا عددًا قليلًا من أصدقائه وبعض المقرَّبين من الملِكة الذين غادروا أيضًا إيران تدريجيًّا!

لم يبقَ أمام شابور بختيار حَلّ سوى التوسُّل إلى آية الله الخُمَيني. في البداية أرسل برقية يطلب فيها من آية الله الخُمَيني أن يقابله: "أنا كإيرانيّ وطنيّ، أعتبر نفسي جزءًا صغيرًا من هذه النهضة العظيمة القوميَّة والإسلاميَّة، أعرف وأعتقد اعتقادًا صادقًا أنّ قيادة وزعامة آية الله العُظْمَى الإمام الخُمَيني ورأيه يمكن له أن يكفل استقرار وأمن البلاد، لذا قررت أن أنال الشرف بزيارته خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، لكي أقدّم شرحًا بأحوال الدَّولة وما اتخذته من إجراءات، وأن أنال بركته وأستفيد من توجيهاته حول مستقبل البلاد". أُعِدّ هذا النَّصّ بالاتّفاق بين مهدي بازركان وإبراهيم يزدي، لكن الخُمَيني رفض لقاءه دون تقديم استقالته مُسبَقًا، الأمر الذي رفضه بختيار[2].

بعد ذلك أرسل شابور بختيار رسالة أُخرَى إلى آية الله الخُمَيني وناداه فيها بـ"الإمام الدينيّ الكبير". وقال: "حضرتكم تعلمون أنّ برامج هذه الحُكُومة، من أولها إلى آخرها، هي تلك المطالب التي كان وجودكم المقدَّس وسائر مقاتلي

---

(1) شابور بختيار، سى وهفت روز بس از سى وهفت سال، انتشارات راديو إيران، باريس، ص71.

(2) وردت تفاصيل هذه المفاوضات بالتفصيل في مذكِّرات إبراهيم يزدي، انظر صص157-156.

طريق الحقّ والحُرِّيَّة تريدون تحقيقها خلال سنوات التخويف والترهيب والقمع الطويلة. وبمجرَّد تَسلُّمي رئاسة الحُكُومة عملت على تطبيقها بشوق وإخلاص بعد التوكُّل على الله...".

بعد تلك الشروح المليئة بالمدح لرُوح الله الموسوي الخُمَيني، طلب أن "يلبّي طلب هذا المريد في أن يؤخّر عودته إلى إيران". وفي النّهاية كتب: "أرجو أن تسمحوا، بما لديكم من حكمة ودراية ونيَّة مخلصة مريدة لخيروسعادة الشَّعب الإيرانيّ، أنّ يُجْرَى أي نوع من تغيير نظام الحكم بسلام وهدوء حَسَبَ العادات الديمقراطيّة المعمول بها في كلّ العالَم..."[1].

وذكر كذلك أنه "في حال عاد الخُمَيني إلى إيران، سوف ينزله في مدينة قم، وفي أول فرصة سيقبل استقالة الشَّاه وتنازله عن العرش لولي العهد"[2]. كان بختيار يريد أن "يرسل الخُمَيني إلى قم، وأن يؤسّس فاتيكانًا صغيرًا في تلك المدينة"[3].

لم يهتمّ أحد بهذا الكلام سواء من المقرَّبين من الخُمَيني أوالناس. كان بختيار رجلًا "وحيدًا، يجلس في مكتب فارغ. كان رئيسًا للحُكُومة، لكنه لم يكُن رئيسًا على شيء"[4]. في خِضَمِّ هذه الأحداث صرّح شاهبور رضا وليّ عهد إيران، لوكالة أنباء فرنسا بأنه "مستعدّ للحلول مَحَلّ والده إذا أراد الشَّعب ذلك". وأنّ "لديه الكفاءة اللازمة لقَبُول هذه المسؤولية"[5].

انتشر هذا التصريح في طَهْرَانَ، وزاد تشوُّش الآراء، ربما لم يكُن ولي العهد يدرك أنه لم يبلغ السِّنَّ القانونيَّة للحكم بعد، وأن كلامه العقيم يصبّ أكثر في مصلحة معارضي النِّظَام... في الحقيقة كان الأوان قد فات.

---

(1) نُشر هذا النَّصّ في الصحف آنذاك، كما نُشر في جميع الكتب والدراسات المختصّة بالمرحلة النهائية من الثَّوْرة، منها انظر: الدكتور هـخشايار، از آموزكار تا خميني، انتشارات آرمانخواه، 1361، صص47-46.

(2) رواية الدكتور أمير أصلان أفشار، كيهان (لندن)، العدد 1062، 30 يونيو، 6 يناير 2005.

(3) إطلاعات، 5 فبراير 1979، العجيب في الأمر أنه صَرح بهذا في حين كان الخُمينيّ قد استقرّ في طهران وعيّن مهدي بازركان رئيسًا للحكومة.

(4) Gerges Menant, Paris Match, 16 fevrier 1979.

(5) إطلاعات، 18 يناير 1979.

آن الأوان لإحضار الخُمَيني إلى إيران. في طَهْرَانَ -كما رأينا- كان الدبلوماسيون الأمْرِيكِيُّون يشاركون بفاعليَّة في اجتماعات إجراءات دخول الخُمَيني إلى إيران[1].

في نوفل لوشاتو، حَسَبَ الوثائق الأمْرِيكِيَّة الحُكُوميَّة وبعض التقارير الفرنسيَّة التي يمكن الآن الوصول إليها[2]، كان إبراهيم يزدي ووولتر زيمرمان، الوزير المفوَّض والمستشار السياسيّ للسفارة الأمْرِيكِيَّة، بمساعدة من السُّلُطات الفرنسيَّة، منشغلين بإجراءات هذا السفر. كان الخُمَيني، الذي وصل مؤخَّرًا إلى مرتبة الإمامة، يماطل، وكان مترددًا، حتى بعد خروج الشَّاه من إيران كان خائفًا من تَدَخُّل الجيش، وهي الفرضية التي كانت شائعة في طَهْرَانَ، وكان خائفًا من محاولة اغتياله، أو تغيير مسار طائرته إلى مكان آخر[3].

كان المقرَّبُون من الخُمَيني يخشون أن تنطفئ جذوة الانتفاضة رُوَيدًا رُوَيدًا، وأن يملَّ الناس... وأخيرًا قَبِل الخُمَيني أن يتوجَّه إلى طَهْرَان. "كان جيمي كارتر وفاليري جيسكار ديستان و(بي بي سي) هم الأكثر وثوقًا من بين شركاء آية الله الخُمَيني وثوريّي إيران"[4].

في الأول من فبراير عام 1979 هبط الخُمَيني على سُلَّم طائرة "بوينغ 747" التابعة للخطوط الجوية الفرنسيَّة في مطار مهرآباد الدوليّ، التي سُمِّيَت تيمُّنًا بهذه المناسبة بـ"الحُرِّيَّة".

كان يتكئ على كتف شابّ يضع نظارات سوداء، ويرتدي زِيَّ الخطوط الجوِية الفرنسيَّة.

بعد ثلاثين عامًا أُعلِنَ أنّ هذا الشاب، الذي كان كبير مضيفي الطائرة

---

(1) وثائق السفارة الأمريكيَّة السرِّيَّة (وكر التجَسُّس)، الجزء السابع والعشرون، صص104-100، و133-130.

(2) انظر: Mike Evans, op, cit و Vincent Nouzille, op, cit.

(3) يشير هذا التحليل جيدًا إلى أنّ مفتاح حلّ المشكلة كان لا يزال في يد الجيش، كان الأمريكيّون، الذين أعلنوا في مكيدة بعد عدة أيام أنّ الجيش "محايد"، يعلمون هذا الأمر، وكذلك كان الخُمينيّ يعلمه، فقد كان يعرف خصمه الأساسي. (المترجم).

(4) Ardeshir Zahedi, L' Extension, avril 2009.

بالاسم، كان في الحقيقة في مَهَمَّة لوكالة الاستخبارات الفرنسيَّة لحماية آية الله. وجَمْع الأخبار عن الأحداث في الداخل الإيرانيّ.

نَشَرَت إحدى الصحف الفرنسيَّة الصباحيَّة الكُبْرَى هذا الخبر تحت عنوان لافت: "عودة الخُمَيني إلى طَهْرَان: كبير مضيفي الطائرة كان جاسوسًا"[1]. لقد استطاع الخُمَيني بمساعدة الأجانب أن يغادر العراق إلى فرنسا. والآن يعود إلى إيران مُتَّكِئًا على كتف جاسوس أجنبيّ! يا لها من مصادفة غريبة!

في الطائرة، سأل المبعوثُ الخاص للإذاعة والتليفزيون الوطنيّ الإيرانيّ "حضرتَه": "الآن وقد عُدْتُم إلى إيران بعد خمسة عشر عامًا من النفي، بِمَ تشعر؟ فأجاب "حضرته": "لا شيء". كان كلّ شيء في الحقيقة يتلخَّص في هذه الكلمة، فسواء في الظاهر وفي أسلوب إلقاء هذه الكلمات أو على أرض الواقع، كانت إيران تعني بالنسبة إلى الخُمَيني "لا شيء".

شاهد ملايين وسمعوا هذا الحوار، ولزم كثير من الوقت كي يفهم الإيرانيُّون معناه.

هكذا بدأت حُكُومة "الغربان السوداء"[2] الدمويَّة على أرض كورش والفردوسي وابن سينا.

لكنّ إيران كانت ولا تزال بلاد العنقاء وأرض نهضات كثيرة على مرّ التَّاريخ.

***

(1) Le Figaro, 2 fevrie 2009.

(2) يشير المؤلف إلى نشيد حركة المقاومة الوطنية الفرنسية إبَّان استعمار النازيين، الذي وُصفوا فيه بالغربان السوداء، النشيد من تأليف الكاتبَين الفرنسيَّين الشهيرين Maurice Druon و Joseph Kessel. (المترجم).

عَشِيَّة نشر هذا الكتاب، أرى من واجبي أن أتقدَّم بجزيل الشكر لصديقَيَّ العزيزَين اللذين لم أرَهما: السيد بيجن خليلي، مدير مؤسَّسة "شركت كتاب"، وزميلته السيدة جيلا ميرافشار، لِمَا بذلاه من جَهْد كبير في دِقَّة ترجمة الكتاب، وكذلك اللياقة التي أبدياها في طباعته وتجليده ونشره.

والشكر موصول أيضًا لجميع العاملين في مؤسَّسة "شركت كتاب"، لِمَا أبدوه من حسن المعاملة والاهتمام واتصالاتهم المغمورة بالحب.

أتمنى للجميع التوفيق والرّفاه

سبتمبر 2010